تحفة المجالس ونزهة المجالس

تأليف

جلال الدين السيوطي

مكتبة الإيمان بالمنصورة
ت : ٢٢٥٧٨٨٢

مكتبـة الإيمـان

ت ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعة الثانية

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م



وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمـد لله الذى أوضح سبيله القويم ، وأنار صراطه المستقيم ، وتفضل بالإحسان العمـيم ، وجعل في سير الأولين وقصص الماضين عبرة لذوى الاعتبار ، وتذكرة لأولى الأبصـار . والصـلاة والسـلام على أشرف مبعوث محمد المختار ، وعلى آله وأصحابه الأخيار .

وبعـد ، فإنه لما وجدت النفس تميل إلى مطالعة أخبار من تقدّم ، ومراجعة آثار من ضـرب بـربع عمـره وتهـدم ، أحببـت أن أجمع كتابا يشتمل على ذكر شيء من فضل العقـل وفضـل العـلم وذكر جملة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وذكر نبينا محمـد ﷺ وذكـر الخلفـاء الأمويين ، والخلفاء العباسيين ، والقضاة ، والكرم ، والشعر والمتطفلين والمتلصصـين وأخبار النساء والعشاق والحكايات والنوادر . . . وغير ذلك عـلى وجه الاختصار ، دون الإطناب والإكثار ؛ ليكون تحفة المُجالس ونزهة المَجالس اقتداء بمن في هذا الفن ألف ، واتباعا لمن وضع أمامى وصنف .

وقـد قـال بعض الحكماء: الكتاب خير جليس ، وآنس أنيس ، لا يظهر سرك ولا يغير صدرك ، وقال أبوالطيب المتنبى:

خـير المحـادث والجلـيس كـتاب ::: تخلـو بـه إن ملّـك الأصـحاب
لا مفشـيا سـرا إذا اسـتودعته ::: وتـنال مـنه حكمـة وصـواب

وقال:

أعـز مكـان في الدنـا سـرج سابح ::: وخـير جلـيس في الـزمان كـتاب

وقـال بعـض الحكماء: الكتاب جليس لا مشقة لـه ، وقال: ذهب المكارم إلا من الكـتاب ، وقـال الجاحظ: الكتاب وعاء ملئ علما ، وظرف حشى ظرفا إن شئت كان أعـيى مـن بـاقل ، وإن شـئت كـان أبلـغ مـن سحبان وائل ، وإن شئت ضحكت من نـوادره ، وإن شـئت عجبـت من غرائبه ، والكتاب نعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم

المعونة في بلاد الغربة ، وقال موفق الدين عبد اللطيف البغدادى في وصيته: ينبغى للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعرف خيرهم وشرهم ، وقال ابن مسعود: القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة .

وقد رتبته على خمسة عشر بابا وبتمامها إن شاء الله يتم الكتاب والله الهادى للصواب .

(الباب الأول) في فضل العقل.

(الباب الثاني) في فضل العلم وشرف أهله.

(الباب الثالث) في فضل جملة الأنبياء.

(الباب الرابع) في ذكر نبينا محمد ﷺ .

(الباب الخامس) في الخلفاء الأمويين.

(الباب السادس) في الخلفاء العباسيين.

(الباب السابع) في القضاة.

(الباب الثامن) في الكرم وحسن الأخلاق والشيم.

(الباب التاسع) في ذكر قطع متفرقة من الشعر وفيه فصول.

(الباب العاشر) في المتكففين.

(الباب الحادى عشر) في المتلصصين.

(الباب الثانى عشر) في أخبار النساء المتفطنات.

(الباب الثالث عشر) في حكايات العشاق.

(الباب الرابع عشر) في الحكايات.

(الباب الخامس عشر) في ذكر طرف من النوادر.

* * * * *

الباب الأول

في فضل العقل

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وقال عز من قائل: **﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾** وقال النبي ﷺ: **«إن الناس يعملون الخيرات وإنما يعطون أجورهم يوم القيامة على مقادير عقولهم»** وقيل له عليه الصلاة والسلام في الرجل الحسن العقل الكثير الذنوب فقال: **«ما من آدمي إلا وله خطايا وذنوب فمن كان سجيته العقل لم تضره ذنوبه لأنه كلما أخطأ لم يلبث أن يتدارك ذلك بتوبة تمحو ذنوبه وتدخله الجنة»** ، وقال مجاهد في قول الله تعالى: **﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾** أي: عاقلا .

وكان الحسن البصري يقول: العقل هو الذي يدفع إلى الجنة ويحمى من النار أما سمعت قوله تعالى إخبارا عن أهلها: **﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾** وقال بعض الحكماء: العقل شرف الإنسان ، وقال آخر: ما عند الله مثل العقل ، **ولله در القائل:**

يعد رفيع القوم من كان عاقلا ::: وإن لم يكن في قومه بحسيب
إذا حل أرضا عاش فيها بعقله ::: وما عاقل في بلدة بغريب

ولله در من قال:

جمال الفتى في الناس صحة عقله ::: وإن كان نزرا رزقه ومكاسبه
وشين الفتى في الناس قلة عقله ::: وإن كرمت أعراقه ومناسبه
إذا كمل الرحمان للمرء عقله ::: فقد كملت أخلاقه ومآربه

وقال آخر:

ما وهب الله لامرئ هبة ::: أحسن من عقله ومن أدبه
هما جمال الفتى فإن عدما ::: فإنّ فقد الحياة أجمل به

بيت مفرد:

المــرء بــالعقل مــثل القــوس بالوتر ::: إن فاتهــا وتــر عــدت مــن الخشب

روى ابـــن الجـــوزي: في الـباب الأول مـن كـتاب الأذكـياء عـن ابن عباس أنه دخـل عـلى عائشـة فقـال: يـا أم المؤمـنين أرأيـت الـرجل يقـل قـيامه ويكـثر رقـاده أيهمـا أحـب إلـيك؟ قالـت: سـألت رسـول الله ﷺ كمـا سـألتنى عـنه فقـال: **«أحســنهما عقــلا»** قلـت: يـا رسـول الله أسـألك عـن عـبادتهما فقـال: **«يا عائشة إنهما يسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة»** .

وعـــن ابـــن عمـــر قـــال: قـال رسـول الله ﷺ : **«لا تعجـــبوا بإسلام امرئ حتى تعـــرفوا عقـــدة عقلـــه»** ، وعـن أبـى هريـرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أول شـــيء خلقـــه الله القـــلم ثم خلـــق الـــنور وهو الدواة ثم قـــال لـــه: اكتـــب ، قـــال: ومـــا أكتـــب ؟ قـــال: اكتـــب مـــا يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ثم خلق العقل وقال: وعزتي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنَّك ممن أبغضت»** .

وعـــن ابـــن عـــباس قـــال: لما خلق الله العقل قال: أدبر ، فأدبر ثم قال: أقبل ، فأقـبل قـال: وعـزتي مـا خلقـت خلقـا قـط أحسـن مـنك فـبك أعطـى وبك آخذ ، وبـك أعاقـب ، وعـن وهـب بـن منـبه قـال: إنـي وجـدت فيما أنزل الله على أنبيائه أن الشـيطان لم يكـابد شـيئا أشـد علـيه مـن مؤمـن عـاقل وأنـه يكـابد مائـة جـاهل فيسـخرهم حـتى يركـب رقـابهم فـينقادون لـه حيـث شـاء ، ويكـابد المؤمن العاقل فيصـعب علـيه حـتى يـنال مـنه شـيئا مـن حاجـته ، وقـال وهب أيضا: لإزالة الجبل صـخرة صـخرة وحجـرا حجـرا أيسـر عـلى الشـيطان مـن مكـابدة المؤمـن العـاقل لأنـه إذا كـان مؤمـنا عـاقلا فهـو أثقـل عـلى الشـيطان مـن الجـبال وأصـعب مـن الحديـد وإنـه لـيزاولـه بكـل حـيلة فـإذا لم يقـدر أن يسـتزلـه قـال: يـا ويلـه مـا لـي ولهـذا لا طاقـة لـي بهـذا ويرفضـه ويـتحول إلى الجـاهل فيستأسـره ويسـتمكن مـن قـياده حـتى يسـلمه إلى الفضـائح الـتي يتعجـلها في عـاجل الدنـيا كـالجلد والـرجم

والحلق وتسخيم الوجوه والقطع والصلب ، وأن الرجلين ليستويان في أعمال البر فيكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد ، إذا كان أحدهما أعقل من الآخر ، وعن وهب بن منبه أن لقمان عليه السلام قال لابنه: يا بنى اعقل عن الله عز وجل فإن أعقل الناس عن الله عز وجل أحسنهم عملا وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكابره يا بنى ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل ، وعن مطرف أنه قال: ما أوتى عبد بعد الإيمان أفضل من العقل ، وعن خليد بن دعلج قال: سمعت معاوية بن قرة يقول: إن القوم يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويصومون وما يعطون يوم القيامة إلا على قدر عقولهم ، وعن أبى زكريا قال: إن الرجل يتلذذ في الجنة بقدر عقله .

* * * * *

الباب الثاني

في فضل العلم وشرف أهله

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ والمراد به العلم وما يؤول إليه وقال تعالى في أول سورة أنزلها على نبيه محمد ﷺ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فافتتح كتابه المجيد بنعمة الإيجاد وأردفها بنعمة العلم فلو كان أتم منه أو يوجد نعمة بعد نعمة الإيجاد أعلى من العلم لما خصه الله تعالى ولما صدر به لأنه سبحانه جعل العلم أعلى شرفا وأول منة امتن بها على ابن آدم بعد خلقه وإبرازه من العدم إلى ضياء الوجود وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ وقد خص الله سبحانه العلماء في كتابه العزيز بخمس مناقب.

الأول: الإيمان ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ [آل عمران: ٧].

الثاني: التوحيد ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨].

الثالث: البكاء والحزن ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ ﴾ [الإسراء: ١٠٧] إلى قوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾.

الرابع: الخشوع ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ... ﴾ الآية.

الخامس: الخشية ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في الماء ليصلون على معلم الناس»**، وعنه ﷺ: **«من طلب العلم فهو كالصائم نهاره القائم ليله وإن بابا من العلم يتعلمه الرجل خير له من أن يكون له أبو قبيس ذهبا فأنفقه في سبيل الله»**.

وعـــنه ﷺ : «**نوم مع علم خير من صلاة مع جهل**» . وعـنه علـيه الصلاة والسلام: «**مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر**» .

وعـــنه ﷺ قـــال: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكـــة لتضع أجنحتها رضيً بطالب العلم ، وإن العالم يستغفر لـــه من في السموات ومن في الأرض حـــتى الحيـــتان في المـــاء، وفضـــل العـــالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**» ، وعن الباقر عنه عليه الصلاة والسلام: «**عالم ينفع أفضل من سبعين عابد**» .

وعـــن **معـــاذ بن جبل أنه قال:** قال رسول الله ﷺ : «**تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ودراســـته تســـبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة والبحث عنه صدقة وبذله لأهله قربة**» لأنه معالم الحلال والحرام وبيان سبل الجنة والمؤنس في الوحشة والمحدث في الخلوة والجليس في الوحـدة والصـاحب في الغـربة والدلـيل عـلى السـراء والمعـين عـلى الضراء والزين عند الأخـلاء والسـلاح عـند الأمراء يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وفي الهدى أئمة تقـتص آثـارهم ويقـتدى بأفعالهم وينتهى إلى رأيهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسـحهم وفي صـلاتها تسـتغفر لهـم ويصـلى عليهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامـه وسباع البحر وأنعامه والسماء ونجومها والأرض وخزانها لأن العلم حياة القلب مـن الجهـل ونـور الأبصار ومصابيحها في الظلمة وقوة الأبدان من الضعف وبالعلم يبلغ العـبد مـنازل الأخـيار ويرقى الدرجات العلى ومجالسة الملوك في الدنيا ومرافقة الأبرار في الآخـرة والفكـر في العـلم يعـدل الصـيام ومذاكـرته تعدل القيام وبالعلم توصل الأرحام وتفصـل الأحكـام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبالعلم يعرف الله ويوحد وبالعلم يطاع ويعبد ، والعلم إمام العقل وهو قائد يرزقه الله السعداء ويحرمه الأشقياء .

وعـــنه **عليه الصلاة والسلام:** «**يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، ولغدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة، ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة**» اهـ .

* * * * *

الباب الثالث

في ذكر جملة من الأنبياء

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

قـــال أبـــو محمـــد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: قرأت في التوراة في أول سفر من أسفارها أن أول ما خلق الله تبارك وتعالى من خليقته السماء والأرض، وكانت الأرض خربة خاوية، وكانت الظلمة على العمران وكانت ريح الله ترف على وجه الماء فقال الله جل ذكره: ليكوّن النور فكان نورا فرآه الله حسنا فميزه من الظلمة وسماه نورا وسمى الظلمة ليلا فكان مساء، وكان الصباح يوم الأحد، وقال الله عز وجل: ليكوّن سقف وسط الماء فيخلل بين الماء والماء فكان سقف وميز بين الماء الذي هو أسفل وبين الماء الذي هو أعلى فسمى الله السقف سماء وكان مساء وكان صباح يوم الاثنين، وحدثني أبو الخطاب قال: حدثنا مالك بن سعير قال: حدثنا إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح في قول الله عز وجل: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] قال: كان على رضى الله عنه يقول: هو بحر تحت العرش وهذا شبيه بما ذكر في التوراة من أن السماء بين ماءين وعاد الخبر إلى التوراة وقال الله عز وجل ذكره: ليجتمع الماء كله الذي تحت العرش في السماء في مكان واحد فليكن اليبس: فكان كذلك فدعا الله اليبس: الأرض وسمى ما اجتمع من المياه البحور، ثم قال الله جل ذكره: لتخرج الأرض زهرة العشب والشجر الحمل كلا بعونه فأخرجت الأرض ذلك فرآه الله حسنا وكان مساء وكان صباح يوم الثلاثاء وقال الله عز وجل: ليكون نوران في سقف الماء ليميزا بين الليل والنهار وليكونا آيات للأيام والسنين فكان نوران الأكبر لسلطان النهار والأصغر لسلطان الليل فرآه الله حسنا وكان مساء وكان صباح يوم الأربعاء وقال الله جل ذكره: ليحرك الماء كل نفس حية ولتطر الطير على الأرض فى جو السقف، وخلق الله تنانين عظاما وحرك الماء على كل نفس حية لحسنها وكل طائر لحسنه فرأى الله ذلك حسنا فتركهن وقال: أثمروا وأكثروا، وكان مساء، وكان

صباح يوم الخميس ثم قال الله عز وجل: نخلق بشرا من طين كصورتنا فخلق آدم عليه السلام من أدمة الأرض ونفخ في وجهه نسمة الحياة وقال: إن آدم لا يصلح أن يكون وحده ولكن أصنع له عينا مثله فألقى عليه السبات فأخذ إحدى أضلاعه فلأمها وسمى الضلع الذي أخذه امرأة لأنها من المرء أخذت فقربها إلى آدم فقال: عظم من عظامى ولحم من لحمى ومن أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويتبع امرأته ، ويكونان كلاهما جسما واحدا وباركهما الله وقال: أثمروا وأكثروا املؤوا الأرض وتسلطوا على حيتان البحور وطير السماء والأنعام والدواب وعشب الأرض وشجرها وثمرها ورأى كلما خلق فإذا هو حسن جدا وكان مساء ، وكان صباح يوم السادس فكمل الله عز وجل كل الأعمال التى عمل ثم فرغ من اليوم السابع من خليقته فباركه وطهره ونصب ربنا عز وجل الفردوس **فانقسم على أربعة رؤوس:**

قيســـون وهو محيط بأرض حويلا كلها وثم يكون أجود الذهب وحجارة البلور والفيروزج .

واسم النهر الثانى: سيحون وهو محيط بأرض كوش أرض الحبشة .

واسم النهر الثالث: دجلة وهو الذي يذهب قبل أشور وهو ناحية الموصل .

والـــنهر الرابع: الفرات ونصب شجرة الحياة وسط الفردوس وشجرة علم الخير والشر وقال لآدم: كل ما شئت من شجر الفردوس ولا تأكل من شجرة علم الخير والشر فإنك يوم تأكل منها تموت يريد أنك تتحول إلى حال من يموت وكانت الحية أقدم دواب البر فقالت للمرأة: إنكما لا تموتان إذا أكلتما منها ولكن أعينكما تفتح وتكونان كالآلهة تعلمان الخير والشر فأخذت المرأة من ثمرتها فأكلت وأطعمت بعلها فانفتحت أبصارهما وعلما أنهما عريانان فوصلا من ورق التين واصطنعاه أُزُراً ثم سمعا صوت الله جل ذكره حين ورى النهار فاختبأ آدم وامرأته في شجرة من شجر الجنة فدعاهما فقال آدم: سمعت صوتك في الفردوس ورأيتنى عريانا فأختبات منك فقال: ومن أراك عريان لقد أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها فقال: إن المرأة

أطعمتني فقال الله جل ذكره للحية: من أجل فعلك فأنت ملعونة وعلى بطنك تمشين وتأكلين التراب وسأغرى بينك وبين المرأة وولدها فتكون تطأ رأسك وتكونين أنت تلدغينه بعقبه ، فقال للمرأة: وأما أنت فأكثر أوجاعك وأحبالك وتلدين الأولاد بالألم وتردين إلى بعلك فيكون ملكا عليك ، وقال لآدم: ملعونة الأرض من أجلك وتنبت الحاج نوع من الشوك قاله الجوهري وتأكل منها بالشقاء ورسم وجهك حتى تعود إلى التراب من أجل أنك تراب وسمى الله جل ذكره امرأته حواء ؛ لأنها أم كل حى وألبسها وإياه سرابيل من جلود وقال: إن آدم قد علم الخير والشر فلعله يقدم يده يأخذ من شجرة الحياة فيأكل منها فيعيش الدهر فأخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي أخذ منها فهذا ما في التوراة .

وأما وهب بن منبه فذكر: أن الجن كانت سكان الأرض قبل آدم فكفرت طائفة منهم فسفكوا الدماء فأمر الله جل ذكره جندا من الملائكة من أهل سماء الدنيا فيهم إبليس وكان رئيسهم فهبطوا إلى الأرض فأجلوا عنها الجان واستشهد على ذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ أى: من قبل أن يخلق آدم فألحقوهم بأطراف التخوم وجزائر البحور وسكن إبليس والجند الذي معه عمران الأرض وأريافها وكان اسم إبليس عزرائيل ثم ذكر خلق الله آدم وقال: ثم كساه لباسا من ظفر يزداد جدة في كل يوم وحسنا ، فلما أكل من الشجرة انكشط عنهما اللباس وكان له مثل شعاع الشمس حتى صار في أطراف أصابعهما من أيديهما وأرجلهما قال: وخلقه يوم الجمعة ومكث في الجنة: ستة أيام وكان أول شيء أكلا في الجنة العشب وكانت الشجرة التي نُهيا عنها شجرة البر وكان الله جل ذكره أخدم آدم عليه السلام الحية في الجنة وكانت أحسن خلق الله لها قوائم كقوائم البعير فعرض إبليس نفسه على دواب الأرض كلها أيها تدخله الجنة فكلها أبت ذلك عليه إلا الحية فإنه حملته بين نابين من أنيابها ثم أدخلته الجنة .

قال: ولما تاب الله عز وجل على آدم أمره أن يصير إلى مكة فطوى الأرض وقبض عليه المفاوز فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا حتى انتهى

إلى مكة وكان مهبطه حين أهبط من جنة عدن في شرقي أرض الهند وأهبط الله عز وجل حواء بجدة والحية بالبرية وإبليس على ساحل الأبلة ، وقال ابن إسحاق: يذكر أهل العلم أن مهبط آدم وحواء على جبل يقال له: واشم من أرض الهند وهو جبل بين قرى الهند الدهنج والمندل ، والعرب تنسب الطيب واليلنجوج إلى المندل ، قال الشاعر يذكر امرأة:

إذا برزت نادى بما في ثيابها ::: ذكي الشذا والمندلي المقير

الشذى - شدة الريح التي تؤذى ، والمندلي: العود ، والمقير: المشقق ، قال: وكان آدم عليه السلام أمرد وإنما تنبت اللحى لولده بعده طوالا كثيرة الشعر جعداء ، وآدم أجمل البرية ولما هبط إلى الأرض حرث وغزلت حواء الشعر وحاكته بيدها ، وقرأت في التوراة أن آدم جامع امرأته حواء فولدت له قابيل فقالت: استفدت لله رجلا ثم ولدت هابيل أخاه فكان قابيل حراثا وكان هابيل راعى غنم فقربا قربانا فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل فقتل أخاه هابيل ، وقال وهب: إن آدم كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى وكان الرجل منهم يتزوج أي أخواته شاء إلا توءمته فأبى قابيل أن يتزوج إلا أخته توءمته فمنعه أخاه هابيل وقال: أنا أحق بها فغضب آدم عليه السلام وقال: اذهبا فتحاكما إلى الله عز وجل بالقربان فأيكما قبل قربانه فهو أحق بها فقربا القربان بمنى ، فمن ثم صار مذبح الناس إلى اليوم ، فنزلت نار بتقبل قربان هابيل فقتل قابيل هابيل رضخ رأسه بحجر واحتمل أخته حتى أتي واديا من أودية اليمن في شرقي عدن فكمن فيه وبلغ آدم ما صنع فوجد هابيل قتيلا وقد نشفت الأرض دمه فلعن الأرض فمن أجل لعنة آدم لا تنشف الأرض دما ، وأنبتت الشوك ، يقال: لا تنشف الأرض دم شيء إلا دم الجمل لرقة تكون فيه ، وفي التوراة إن آدم عليه السلام طاف على امرأته حواء فولدت له غلاما سماه شيثاً من أجل أنه خلق من عند الله مكان هابيل وولد لآدم أربعون ولدا في عشرين بطنا وأنزل عليه تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة وهو أول كتاب كان في الدنيا جرى لله تبارك وتعالى على الألسنة كلها ، وحدثنى زيد بن أخزم قال: حدثنى يحيي بن كثير قال: حدثنا عثمان بن سعد الكاتب عن عني عن أبى أن آدم صلاة الله وسلامه عليه لما احتضر اشتهى قطفا من قطف الجنة فانطلق بنوه

ليطلبوه فلقيتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ فقالوا: إن أبانا اشتهى قطفاً من قطف الجنة فقالوا: ارجعوا فقد كفيتموه وانتهوا إليه وقد قبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل عليه السلام والملائكة خلف جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا: هذه سنتكم في موتاكم يا بنى آدم قال وهب: وحفر له في موضع من أبى قبيس يقال له: غار الكنز فلم يزل آدم عليه السلام في ذلك الغار حتى كان زمن الغرق فاستخرجه نوح - عليه السلام - وجعله في تابوت معه في السفينة فلما نقص الماء وبدت الأرض لأهل السفينة رده نوح إلى مكانه ووجدت في التوراة أن جميع ما عاش آدم تسعمائة وثلاثون سنة وقال وهب: عاش ألف سنة .

شيث بن آدم عليه السلام

قال وهب: كان شيث بن آدم أجمل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم به وأحبهم إليه وكان وصى أبيه وولى عهده وهو الذي ولد البشر كلهم وإليه انتهت أنساب الناس ، وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة وكانت هنالك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة فأنزل الله جل ذكره على شيث خمسين صحيفة وعاش تسعمائة سنة واثني عشرة سنة (ولد شيث وولد ولده إلى إدريس) ولد لشيث: أنوش وبنون وبنات وولد لأنوش قينين وولد لقينين مهلايل وولد لمهلايل اليارد وولد لليارد أخنوخ وهو إدريس عليه السلام .

إدريس عليه السلام

قال وهب بن منبه: إن إدريس النبي - عليه السلام - كان رجلا طويلا ضخم البطن عريض الصدر قليل شعر الجسد وكانت إحدى قدميه أعظم من الأخرى وكانت في صدره نكتة بيضاء من غير برص وكان دقيق الصوت دقيق المنطق قريب الخطا إذا مشى ، وإنما سمى إدريس لكثرة ما كان يدرس من كتاب الله وسنن الإسلام وأنزل الله جل ذكره عليه ثلاثين صحيفة ، وهو أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبسها وكان من قبله يلبسون الجلود واستجاب له ألف إنسان ممن كان يدعوه ، فلما رفعه الله اختلفوا بعده وأحدثوا الأحداث إلى زمن نوح عليه السلام . قال: وهو أبو جد نوح ورفع وهو ابن ثلاثمائة وخمس وستين سنة ، وولد لإدريس

عليه السلام متوشلخ على ثلاثمائة سنة من عمره ، وولد لمتوشلخ لمك وولد للمك غلام فسماه نوحا عليه السلام .

نوح عليه السلام

قال وهب: إن نوحا أول نبي نبأه الله تعالى بعد إدريس وكان نجارا إلى الأدمة وهو دقيق الوجه في رأسه طول عظيم العينين غليظ الفصوص دقيق الساقين كثير لحم الفخذين دقيق الساعدين ضخم السرة طويل اللحية عريضها طويلا جسيما ، وكان في غضبه وإشهاره شدة فبعثه الله عز وجل إلى قومه وهو ابن خمسين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ثلاثة قرون من قومه عايشهم وعمر بينهم فلا يجيبون ولا يتبعه منهم إلا قليل كما قال الله تعالى .

وفي التوراة: وأوحى الله إليه أن اصنع الفلك وليكن طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراع وارتفاعها ثلاثين ذراع وليكن بابها في عرضها ، وادخل الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك ومن كل شيء من اللحم اثنين اثنين ذكورا وإناثا فإني منزل المطر على أهل الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة فأتلف كل شيء خلقته على الأرض ، وأن تعمل تابوتا لتحمل فيه جسد آدم وتجعل التابوت من خشب الشمشاء .

وتجعل معك زاد سنة ففعل نوح ، وأرسل الله جل ذكره ماء الطوفان على الأرض في سنة ستمائة من عمر نوح في سبعة عشر يوما من الشهر الثاني ولبثت السفينة في الماء مائة وخمسين يوما ، ثم أرسل الله ريحا فغشيت الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الغوط الأكبر وميازيب السماء ، واستقرت في الشهر السادس على جبل فردوا .

وفي الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال فلما أن كان في سنة ستمائة سنة وسنة في أول يوم من الشهر الأول نضب الماء عن الأرض فكشف نوح غطاء الفلك فرأى وجه الأرض وفي سبعة وعشرين يوما من الشهر الثاني جفت الأرض هذا ما في التوراة .

وقال وهب: ذكر لنا أن السفينة استقلت في عشر خلون من رجب وكانت في الماء مائة وخمسين يوما ثم استقرت على الجودى وهو جبل بأرض الجزيرة شهرا .

وخرج إلى الأرض في عشر خلون من المحرم وفي التوراة أن الله جل ذكره: أمر نوحا أن يخرج من الفلك ومن معه فخرجوا وابتنى نوح مذبحا لله وقدم قربانا على المذبح فأنشأ الله على القربان ريح الرحمة وبارك نوحا وبنيه وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملؤوا الأرض ولتكن هيبتكم على دواب الأرض وكل طير السماء وأنوان البحر ولكن لا تأكلوا لحما فيه نفسة، ومن يهريق دما من البشر يهراق دمه من أجل أن آدم عليه السلام على صورة الله عز وجل وقال لنوح: إن آية ميثاقي الذي أوثقكم به أن لا أفسد الأرض بالطوفان قوسي الذي جعلت في الغمام فإذا رأيتم ذلك فاذكروا ميثاقي.

وذهب وهب: أن نوحا دخل الفلك وولده الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم وأربعون رجلا وأربعون امرأة ولما خرجوا بنوا قرية بقردى سموها ثمنين لأنه كان فيها ثمانون بيتا لكل إنسان ممن آمن معه بيت فهي إلى اليوم تسمى بسوق ثمانين وقرب قربانا وصام شهر رمضان وهو أول من صامه قال: وإنما سمى الماء طوفانا لأنه طفا فوق كل شيء، قالوا: وكان بين موت آدم عليه السلام إلى أن غرقت الأرض ألفا سنة ومائة سنة واثنتان وأربعون سنة، وفي التوراة أن نوحا عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة وكان عمر نوح تسعمائة وخمسين سنة. وقال وهب: كان عمره ألف سنة لأنه بعث إلى قومه وهو ابن خمسين سنة ولبث يدعوهم إلى أن مات تسعمائة وخمسين سنة.

ولد نوح عليه السلام

وفي التوراة: أنه ولد لنوح سام وحام ويافث بعد خمسمائة سنة من عمره، وأما المتخلف عنه الذي قال له: يا بنى اركب معنا فهو (يارم) ولم أر له في التوراة ذكرا فالناس جميعا من هؤلاء الثلاثة حدثنى سهل بن محمد قال: حدثنى الأصمعي عن مسلمة بن علقمة المازنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب: لأي ابن آدم كان النسل؟ فقال: ليس لواحد منهما نسل، أما المقتول فدرج وأما القاتل فهلك نسله في الطوفان فالناس من بنى نوح ونوح من بنى شيث بن آدم.

وفي التوراة: أن نوحا لما خرج من السفينة غرس كرما ثم عصر من خمره فشرب

وانتشى فتعرى في جوف قبته فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه فأطلع على ذلك أخويه فأخذ سام وحام رداء فألقياه على عواتقهما فغشيا على أعقابهما فواريا عورة أبيهما وهما مدبران فاستيقظ نوح من نومته وعلم ما فعل به ابنه الأصغر فقال: ملعون كنعان عبد عبيد يكون لإخوته ، وقال: مبارك سام ، ويكثر الله يافث ويحل في مسكن سام ويكون كنعان عبدا لهما . انتهي .

حام بن نوح عليه السلام

قال وهب: إن حام بن نوح كان رجلا أبيض حسن الوجه والصورة فغير الله لونه وألوان ذريته من أجل عورة أبيه وأنه انطلق وتبعه ولده فنزلوا على ساحل البحر فكثرهم الله وأنماهم فهم السودان وكان طعامهم السمك فحددوا أسنانهم حتى تركوها مثل الإبر حتى كان السمك يلتصق بها ونزل بعض ولده المغرب فولد حام كوش بن حام وكنعان بن حام وقوط بن حام فأما قوط بن حام فسار فنزل أرض الهند والسند فأهلها من ولده وأما كوش وكنعان فأجناس السودان والنوبة والزنج والفران والزغارة والحبشة والقبط والبربر من أولادهما .

يافث بن نوح عليه السلام

وأما يافث بن نوح فمن ولده الصقالبة وبرجان والأشبان فكانت منازلهم أرض الروم قيل: ومن ولده الترك والخزر ويأجوج ومأجوج .

سام بن نوح عليه السلام

وأما سام بن نوح فسكن وسط أرض الحرم وما حوله واليمن إلى حضرموت إلى عمان إلى البحرين إلى عالج ويبرين ووبار والدو والدهناء فمن ولده أرم وأرفخشذ ابن سام فمن ولد أرفخشذ قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وابنه يعرب بن قحطان أول من تكلم بالعربية ونزل أرض اليمن وهو أبو اليمن كلهم وهو أول من حياه بتحية الملك: أنعم صباحا وأبيت اللعن (ولد أرفخشذ) يقطر بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، ويقطن هو أبو جرهم بن يقطن وجرهم

ابـن عم يعرب وكانت جرهم ممن سكن اليمن وتكلم العربية ثم نزلوا مكة فكانوا بها وقطـورا بـنى عـم لهم ثم أسكنها الله إسماعيل عليه الصلاة والسلام فنكح في جرهم فهـم أخـوال ولده (ومن ولد أرم بن سام بن نوح) عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح وكانوا ينزلون الأحقاف من الرمل فأرسل الله عز وجل إليهم أخاهم هودا (ومن ولـد أرم بـن سـام بـن نوح) ثمود بن عافر بن أرم بن سام بن نوح وهو ابن عم عاد وكـانوا يـنزلون الحجـر ، فأرسل الله عز وجل إليهم أخاهم صالحا (ومن ولد أرم بن سـام بـن نـوح) طسـم وجديـس ابـنا لاوذ بـن أرم بـن سـام بن نوح ونزلوا اليمامة وأخوهمـا عمليق بن لاوذ بن أرم بن سام بن نوح نزل بعضهم الحرم وبعضهم الشام ومـنهم العمالـيق أمـم تفـرقوا في الـبلاد ، ومنهم فراعنة مصر والجبابرة ومنهم ملوك فـارس وأهل خراسان وأخوه أميم بن لاوذ بن أرم بن سام بن نوح نزل أرض فارس فأجناس الفرس كلهم من ولده

(ومــن ولــد أرم بن سام بن نوح) مـاش بن أرم بن سام بن نوح نزل بابل فولد نمـرود بـن مـاش وهـو الذي بنا الصرح ببابل وملك خمسمائة سنة وفي زمانه فرق الله الألسـنة فجعل في ولد سام تسعة عشر لسانا وفي ولد حام سبعة عشر لسانا وفى ولد يافـث ستة وثلاثين لسانا ويقال: إن النبط من ولد ساروج بن أرغو بن فالغ بن شالخ بـن أرفخشـذ بـن سـام بـن نـوح وأن نمرودا هو أخو ساروج بن أرغو والأنبياء كلها عجميها وعربيها والعرب كلها يمنيها ونزاريها من ولد سام بن نوح عليه السلام .

هود عليه السلام

قال وهب: هـو هـود بن عبد الله بن رباح بن جاوب بن عاد بن غوص بن أرم بن سـام بـن نـوح وكـان أشبه ولد أرم بآدم - عليه السلام - خلا يوسف وكان رجلا آدم كـثير الشعر حسن الوجه وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل وبلادهم أخصب بـلاد وأكـثرهم وديـارهم بـالدو والدهـناء وعالج ويبرين ووبار وعمان إلى حضرموت الـيمن ، فـلما سـخط الله عـز وجل عليهم جعلها مفاوز وغيطانا ، ولما أهلك الله قومه لحق هود ومن آمن معه بمكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا وكان هود رجلا تاجرا .

صالح عليه السلام

قـال وهب: إن الله عز وجل بعث صالحا إلى قومه حين راهق الحلم وكان رجلا أحمر إلى البياض سبط الشعر وكان يمشى حافيا ولا يتخذ حذاء كما كان يمشى المسيح ولا يتخذ مسكنا ولا بيتا ولا يزال مع ناقة ربه حيث توجهت وهو صالح بن عبيد بن عامر بن أرم بن سام بن نوح وكانت منازل قومه بالحجر بينها وبين قرح ثمانية عشر ميلا ، وقرح هي في وادي القرى ولما قال لـه قومه: ائتنا بآية أتى بهم هضبة ولما رأته تمخضت كما تمخض الحامل وانشقت عن الناقة وعاقر الناقة هو أحمر ثمود الذي يضرب به المثل في الشؤم واسمه قراد بن سالف ، وكان أحمر أشقر أزرق سناطا قصيرا والعاقر الآخر مصرع بن مهرج ، وكان رجلا نحيفا طويلا أهوج أهيف مضطربا ولما عقرت الناقة صعد فصيلها جبلا ثم رغا فأتاهم العذاب . قال غير وهب: فلما أهلكهم الله قال صالح لمن معه: يا قوم إن هذه دار قد سخط الله على أهلها فاظعنوا عنها والحقوا بحرم الله وأمنه فأهلوا من ساعتهم بالحج وأحرموا في العباء وارتحلوا قلائص حمرا مخطمة بحبال من ليف ثم انطلقوا يلبون حتى وردوا مكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا فقبورهم في غربي الكعبة بين الندوة والحجر وكان صالح رجلا تاجرا .

إبراهيم عليه السلام

هـو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن أشرع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح هكذا قال وهب وقابلت بهذه النسبة ما في التوراة فوجدتها موافقة إلا أنى وجدت مكان أشرع شاروع قال وهب: إبراهيم أول من ضاف الضيف وأول من ثرد الثريد وأطعمه المساكين وهو أول من قص شاربه واستحد واختتن وقلم أظفاره واستاك وفرق شعره وتمضمض واستنثر واستنجى بالماء ، قال: وهو أول من شاب وهو ابن مائة وخمسين سنة وذلك أن سارة لما ولدت إسحاق قال الكنعانيون: أما تعجبون لهذا الشيخ والعجوز وجدا غلاما لقيطا فتبنياه وصور الله جل ذكره إسحاق على صورة إبراهيم فلم يكن يفصل بينهما فوسم الله إبراهيم بالشيب ووجدت في التوراة أنه ولد لتارح أبى إبراهيم ناحور وهارن فولد لهارن لوط وسارة وملكا ومات

هـارن ونكـح نـاحور ملكا بنت هارن وكانت سارة عاقرا لم تلد فساق تارح ابنه إبراهيم ولوطـا ابن ابنه وخرج معهم إلى أرض حران فحلوا ثم مات تارح في أرض حران قال: إن أول مـن بـنى حـران أخـوان لإبراهيم يقال لهما: حاران وبهما سميت حران وفاهر وهـو أبـو ربقـا امـرأة إسـحاق وقـال وهب: كان بين نوح وإبراهيم ألفا سنة ومائة سنة وأربعـون سنة ، والذي حاج إبراهيم في ربه هو نمرود بن كنعان وهو أول من تجبر وقهر وغضـب وسـن سـنن السوء وأول من لبس التاج ووضع أمر النجوم ونظر فيها وعمل بهـا وأهلكه الله جل ذكره ببعوضة دخلت في خياشيمه فعذب بها أربعين سنة ثم مات ، قـال وهب: ملك الأرض مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين ، وأمـا الكافران فنمرود وبختنصر وسيملكها من هذه الأمة خامس قال: ولما أنجى الله جل ذكـره إبراهـيم من النار خرج من أرض بابل إلى الأرض المقدسة وسارة وابن أخيه لوط وكـان آمـن بـه في رهـط معه من قومه واتبعوه حتى وردوا حران فأقاموا بها زمانا حتى خـرجوا إلى الأردن فدفعوا إلى مدينة فيها جبار من الجبابرة من القبط يقال لـه: صادوف وهـو الـذي عـرض لـه سارة حتى منعها الله منه ومنع سارة بها جرام إسماعيل وكانت قبطـية . قـال وهـب: وخـرج ذلك الجبار من تلك المدينة وورثها الله إبراهيم فأثرى بها وأنمى الله ماله فقاسم لوطا فأعطاه نصفه وأنزل الله على إبراهيم عشرين صحيفة .

وفي الـتوراة: أن سـارة تزوجـت إبراهـيم وقالت: إن الله قد حرمني الولد فادخل بـأمتي لعلـنا أن نـنعدى مـنها . قـال وهـب: وهبـتها لــه وفي الـتوراة أن هاجـر ولدت إسماعـيل وإبراهيم ابن ست وثمانين سنة وولدت سارة إسحاق وإبراهيم ابن مائة سنة وأن إبراهـيم اخـتتن وهـو ابن تسع وتسعين سنة وختن إسماعيل وهو ابن ثلاث عشرة سـنة وخـتن معه من أولاد الغرباء وأن سارة عاشت مائة وسبع وعشرين سنة ثم ماتت في جـيرون قـرية الجـبابرة في أرض كـنعان وتزوج إبراهيم امرأة من الكنعانيين يقال لها: قنطورا فولدت لـه أربعة نفر وتزوج أخرى يقال لها: حجورا فولدت لـه سبعة نفر فكان جمـيع أولاد إبراهـيم ثلاثـة عشر رجلا ، وعاش إبراهيم مائة وخمس وسبعين سنة . قال وهب: عاش مائتي سنة وقبره في مزرعة جيرون وكان اشتراها وفيها قبرت سارة .

إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام

قـــال: وأمـر الله عـز وجـل إبراهـيم علـيه السلام بالمسير إلى مكة بإسماعيل وأمه وأخـبره أنه قد بوأه البيت الحرام وأنه يقضى على يديه عمارته وينبط لإسماعيل سقايته فسـار بـه وبأمـه وتـركهما هـناك وجـاءت رفقـة من جرهم فنزلوا شعاب مكة وأعطوا إسماعـيل سـبع أعنز فكانت أصل ماله فنشأ إسماعيل مع أولادهم وتعلم الرمي ونطق بلسـانهم ثـم خطب إليهم فزوجوه امرأة منهم . قال ابن إسحاق: هى بنت مضاض بن عمرو الجرهمى فولدت لإسماعيل اثني عشر عظيما منهم قيذر ونبت والنساب يختلفون في نسـب معـد بن عدنان فبعضهم يقول: هو من ولد قيذر وبعضهم يقول: هو من ولد نبت ، وكان نبت بكر إسماعيل وهو ولى البيت بعده ثم ولى بعد نبت مضاض بن عمرو الجـرهمى جـد نبـت لأمـه ولما كثر ولد إسماعيل ضاقت عليهم مكة فانتشروا في البلاد فكـانوا لا يدخلـون بلـدا إلا أظهـرهم الله عـلى أهـلها وهـم نفـوا العمالـيق ، وعاش إسماعيل مائة وتسع وثلاثين سنة ودفن في الحجرة، وفيه دفنت هاجر أمه .

إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام

وإســـحاق هو الذبيح على ذلك أكثر أهل العلم ووجدته في التوراة الذبيح قال: وحدثـنى محمـد بـن خـالد قـال: حدثنا مسلم بن قتيبة قال: حدثنا مبارك قال: حدثنا الحسـن عـن الأحنف عن العباس بن عبد المطلب قال: الذبيح إسحاق قال: وحدثنى أبـو الخطـاب قـال: حدثنا أبو داود عن شعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال: الذبيح إسحاق قال: وحدثنى أبو الخطاب قال: حدثنا أبو داود عن يزيد عن عطاء عن سماك بن حرب عن محمد بن المنتشي عن مسروق قال: الذبيح إسحاق قـال: حدثنا غير واحد عن محمد بن يوسف وغيره عن عمرو بن حماد عن أسباط عن السـرى عـن أبـى مـالك عـن أبـى صـالح عـن ابـن عـباس وعـن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ في قصة إبراهيم بطولها وتمامها أن الذبيح إسـحاق وبلغني عن ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن عمرو بن أبى سفيان قال: سمعـت كعـبا يحـدث أبـا هريـرة أن الذبـيح إسـحاق وقال قوم: إن الذبيح إسماعيل

وحدثني إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا يحيى بن اليمان عن إسرائيل عن ثوير عن مجاهد عن ابن إسحاق عمر قال: الذبيح إسماعيل وحدثني محمد بن عبيد الله قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم عن الحجاج بن الحجاج عن الفرزدق الشاعر قال: سمعت أبا هريرة على منبر رسول الله ﷺ يقول: الذبيح إسماعيل وفي التوراة أن إسحاق تزوج رفقا بنت ناحور بن تارح وهي ابنة عمه قال وهب: هي رفقا بنت ناهر بن آزر بنت عمه فولدت له عيصو ويعقوب توأمين في بطن واحد فخرج عيصو ثم خرج بعده يعقوب ويده عالقة بعقبه فسمي يعقوب وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة ولما مات قبره ابناه في المزرعة التي اشتراها إبراهيم عند قبر إبراهيم.

عيصو بن إسحاق بن إبراهيم

وكان عيصو رجلا أحمر أشعر الجلد كان عليه خواتم من شعر وكان صاحب صيد وهو أبو الروم وكان الروم رجلا أصفر في بياض شديد الصفرة ومن ذلك سميت الروم بنى الأصفر وتزوج عيصو بنت عمه إسماعيل بن إبراهيم فولدت له الروم بن عيصو وخمسة آخرين فكل من في أرض الروم اليوم فهو من نسل هؤلاء الرهط وبعض الناس يزعمون أن الأشبان من ولده وعمر عيصو مائة وسبعا وأربعين سنة وكذلك عمر يعقوب ودفنا في المزرعة عند قبر أبيهم.

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

ويعقوب هو إسرائيل الذي ولد الأسباط كلهم وكان رجلا أغر أزهر شخيثا رزينا لا يكاد يبرح القبة وكذلك قيل في التوراة وكان إسحاق أمره أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين وأن ينكح امرأة من بنات خاله لابان بن فاهر بن آزر وكان مسكنه العراق فتوجه إليه يعقوب فأدركه الليل في بعض الطريق فبات متوسدا حجرا فرأى فيما يرى النائم أن سلما منصوبا إلى باب من أبواب السماء عند رأسه والملائكة تنزل منه وتعرج فيه، وأوحى الله تبارك وتعالى إليه أنني أنا الله لا إله إلا أنا إلهك وإله آبائك وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة وذريتك من بعدك وباركت فيك وفيهم وجعلت

فيكم الكتاب والحكم والنبوة ثم أنا أحفظك حتى أردك إلى هذا المكان وأجعله بيتا تعبدني فيه وذريتك فهو بيت المقدس فصار إلى خاله فخطب إليه ابنته راحيل وكانت لـه ابنتان: ليا وهى الكبرى، وراحيل: وهى الصغرى، فقال لـه: ألك مال أزوجك عليه؟ قال يعقوب: تزوجني راحيل وهى شرطى ولها أخدمك قال لـه خاله: ذلك بيني وبينك فرعى لـه يعقوب سبع سنين فلما وفاه شرطه دفع إليه ابنته الكبرى ليا وأدخله عليها ليلا فلما أصبح وجد غير ما شرطه فجاءه وهو في نادى قومه فقال لـه: غررتني وخدعتني واستحللت عملي سبع سنين ودلست لي غير امرأتي فقال لـه خاله: يا ابن أختي أردت أن تدخل على خالك العار والسبة وهو خالك ووالدك متى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى فهلم فاخدمني سبع حجج أخرى حتى أزوجك أختها وكان الناس حينئذ يجمعون بين الأختين - إلى أن بعث الله عز وجل موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة - فرعى لـه سبع سنين فدفع إليه راحيل فولدت ليا أربعة من الأسباط روبيل ويهودا وسمعان ولاى وولدت لـه راحيل يوسف وأخاه بنيامين وأخوات لهما وكان لايان دفع إلى ابنتيه حين جهزهما إلى يعقوب أمتين فوهبتا الأمتين ليعقوب فولدت لـه كل واحدة منهما ثلاثة رهط من الأسباط ثم فارق يعقوب خاله وعاد حتى نازل أخاه عيصو وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة وكان عمره مائة سنة وسبعا وأربعين سنة ودفن عند قبر إبراهيم عليه السلام.

يوسف بن يعقوب عليهما السلام

وكان بين دخول يوسف مصر إلى أن دخلها موسى بن عمران أربعمائة عام وعاش يوسف بعد موت أبيه ثلاثا وعشرين سنة ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة وفى التوراة أنه عاش مائة وعشر سنين وولد ليوسف ابنان إفرائيم وهو جد يوشع بن نون بن إفرائيم والآخر ميثا فولد ميثا ابنا يقال لـه: موشى فبنا قبل موسى بن عمران ويزعم أهل التوراة أنه هو الذي طلب الخضر عليهما السلام.

شعيب وبلعم والخضر

وذكـــر وهـــب: أن شـعيبا وبلعـم كانـا من ولد رهط آمنوا لإبراهيم يوم أحرق وهاجـروا معـه إلى الشام فزوجهم بنات لوط قال: ولم تكن مدين قبيلة شعيب ولكنها أمـة بعث إليهم ولما أصاب قوم شعيب ما أصابهم لحق شعيب والذين آمنوا معه بمكة فـلم يـزالوا بهـا حـتى ماتوا قال: واسم الخضر فلياء بن ملكا بن فالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وكان أبوه ملكا .

أيوب عليه السلام

قـــال وهب: هـو أيوب بن عوص بن رعويل ، وكان أبوه ممن آمن لإبراهيم يوم أحـرق وكـان أيـوب في زمن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وكان صهره وكانت تحته بنـت ليعقوب يقال لها: بنت يعقوب وهى التي ضربها بالضغث وكانت أم أيوب بنت لوط النبى عليه السلام وكانت لها البثنية .

موسى وهارون عليهما السلام

قـــال وهب: هـو موسى بن عمران بن ناهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهـيم ولم يكن بين آل يعقوب وأيوب نبي حتى كان موسى عليه السلام وكان موسى علـيه السـلام جعـدا آدم طويـلا كأنـه من رجال شنوءة ، وكان هارون أطول منه وأكثر لحمـا وأبـيض جسـما وأغلـظ ألواحـا وأسـن من موسى بثلاث سنين وكانت في جبهة هارون شامة وفي أرنبة أنفه شامة وعلى طرف لسانه شامة ولا يعرف أحد قبله ولا بعده كانـت عـلى طرف لسانه شامة وهي العقدة التي ذكرها الله ، وكانت مريم أختهما أسن مـنهما وكانـت تحـت كاكـب بـن يوفـنا بـن فـارص بـن يهـودا بـن يعقـوب واسـم أم موسـى إباخـثه . قال: وفرعون موسى هو فرعون يوسف عمّر أكثر من أربعمائة عام واسمـه الوليد بن مصعب وغيره ينكر هذا ويذكر أن ذاك غيره واسم امرأة فرعون آسية بنـت مزاحم وقارون بن صافر بن فاهث بن لاوى ابن عم موسى بن عمران والسامرى هـو موسـى بـن ظفر ويقال: إنه من أهل فاجر ما وكان من بنى إسرائيل من بنى عم أم

موسى قال: وقبض هارون وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة وعمّر موسى بعده ثلاث سنين وهو في سنه يوم مات وخلفه يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب .

إشماويل بن لصفا

قال: هو إسماعيل بالعربية واسم أمه حنة وهو من بنى إسرائيل ولم يكن بينه وبين يوشع بن نون نبي وهو الذي ذكره الله في القرآن حين قال: ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا** ﴾ .

(**طـالوت**) قال وهب: هو ابن سبط بن يامين بن يعقوب وكان مسكينا وكان راعى حمير وخرج من قريته يطلب حمارين له فنزل بإشماويل فأعلمهم أنه ملكهم وأنه من سبط بن يامين فقالوا: قد علمت أنه لم يكن من هذا السبط ملك ولا فيه نبوة فقال لهم إشماويل: أو أنتم أعلم بذلك أم الله؟ ألم تعلموا أن الله حين بعثه عليكم قد عرف نسبه .

داود وسليمان وولده

ثم استخلف الله بعد إشماويل داود بن إيشى وكان سابع سبعة إخوة له هو أصغرهم وكان يرعى على أبيه وكان فيه قصر وزرق وقرع في ناحية من رأسه وكان تزوج بنت طالوت وكان شرط على طالوت أن يقتل جالوت فولدت له إيسالوم وهو بكره وهو الذي خرج على أبيه وأراد نزعه من الملك ثم تزوج امرأة أوريا بعد أن قتل فولدت له سليمان بن داود ولم يزل الملك والنبوة بعد سليمان في ولده وأولادهم إلى الأعرج من ولد ولده وكان عرجه من عرق النسا فطمعت الملوك في بيت المقدس لزمانته وضعفه وأنه لم يكن نبيا فسار إليه ملك الجزيرة وكان يقال له: لنقز ويسكن برية التوثار وهى برية سنجار في مدينة يقال لها: الحضر مبنية من حجارة وكان لنقز يعبد الزهرة فنذر لئن ظفر ليذبحن ابنه للزهرة وكان بختنصر يومئذ كاتبه فأرسل الله عليهم ريحا فأهلكت جيشه وأفلت هو وكاتبه حتى وردا الحضر فقتله ابنه وغضب له بختنصر فاغتره حتى قتله وملك بعده وكان أول ملك بختنصر وسار إليهم ملك الهند بعده فأهلكه الله وانقرض ولد سليمان ونظراؤهم .

سبخاريب وبختنصر وأرمياء النبي عليه السلام

وسار سبخاريب ملك الموصل وكان يسكن نينوى وملك أذربيجان إليهم وكان اسمه شلما عاش وهو بالعربية سلمان الأعسر فاختلفا ووقعت الحرب بينهما حتى تفانوا وغنم بنو إسرائيل ما كان معهما وسار إليهم ملك الروم ومعه الأشبان والصقالب وملك الأندلس فتشاجروا أيضا فاقتتلوا فأهلك الله بعضهم ببعض ثم أحدثوا وغيروا ورغب بعضهم عن بيت المقدس وضارعه بمسجد ضرار فزلزل بهم ذلك المسجد وشدخوا بخشبة ثم غزاهم بعد ذلك بختنصر فرغبوا إلى الله وتابوا فرده الله عنهم بعد أن فتحوا المدينة وجالوا في أسواقها فهذه المرة الأولى التي ذكرها الله فقال عز وجل: ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ثم أحدثوا بعد ذلك أيضا فبعث الله عز وجل أرمياء النبي ليخبرهم بغضب الله عليهم فقام فيهم بوحي الله فضربوه وقيدوه وسجنوه فبعث الله عند ذلك بختنصر وهو الكرة الآخرة التي ذكرها الله عز وجل فقال: ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ فقتل منهم وصلب وأحرق وجدع وباع ذراريهم ونساءهم ومثّل بهم كل مثلة وصارت منهم طائفة إلى مصر ولجؤوا إلى ملكها مضار بختنصر إلى ملك مصر فاقتتلا فظفر به بختنصر فأسره وأسر بنى إسرائيل وقتل جنوده ثم لحق بأرض بابل وأقام أرمياء بأرض مصر واتخذ جنينة وزرع فيها بقلا يعيش منه فأوحى الله إليه أن ذلك لهما وشغلا عن الزرع والمقام بأرض الكفر وكيف تبيعك أرض أو تحملك مع ما تعلم من سخطي على بنى إسرائيل فلا يحزنك هذا البلاء الذي قضيته على بنى إيليا وأهلها وأنه ليس زمن العمران ولكنه زمن الخراب فاعمد إلى جنينتك هذه فاهدم جدرها وانتف بقلها وغور نهرها والحق إلينا فلتكن في بلادك حتى يبلغ كتابي أجله فخرج أرمياء مذعورا خائفا وذلك في زمن الثمار فركب أتانا له وتزود سلة فيها عنب وتين واتخذ سقاء جديدا فملأه ماء وفتل حبلا فرسن به أتانه ثم انطلق حتى إذا رفع له شخص بيت المقدس رأى خرابا عظيما لا يوصف فقال: ﴿ أَنَّىَ يُحْيِي هَـذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وابتعث ملكا من ملوك

فارس يقال له: كوشك فعمرها وأحياه الله وقيل له: ﴿ **انظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

عزير ودانيال

وكان في الأسارى الذين في يد بختنصر دانيال وعزير فأما دانيال الذي عبر رؤياه نزل منه بأفضل المنازل وكان قبره بناحية السوس ووجده أبو موسى الأشعرى فأخرجه وكفنه وصلى عليه ثم دفنه، وأما عزير فأقام لبنى إسرائيل التوراة بعد أن أحرقت يعرفونها حين عاد إلى الشام فقالت طائفة من اليهود: عزير ابن الله وهو الذي أكثر المناجاة في القدر فمحا اسمه من الأنبياء فلا يذكر فيهم وهو رسول.

شعياء النبي عليه السلام

مكثت بنو إسرائيل زمانا يطيعون الله وابتعث الله شعياء بن راموص نبيا ثم كثرت فيهم الأحداث والبدع فابتعث الله سبخاريب الملك فأقبل إليهم حتى نزل بساحتهم فتابوا إلى الله وأنابوا فقبل الله منهم وسلط على عدوهم الطاعون فأصبحوا موتى وغنمهم الله عسكرهم بجميع ما فيه ولم يفلت منهم إلا سبخاريب ملكهم وخمسة نفر منهم معه ثم أحدثوا بعد ذلك أحداثا ونبذوا كتاب الله وتنافسوا فشرد بهم وأفناهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة ونزع منهم الملك والنبوة فليسوا في أمة من الأمم إلا وعليهم ذل وصغار إلى يوم القيامة وشعياء هو الذي بشر بالنبي ووصفه وبشر بعيسى.

حزقيل

هو حزقيل بن قوزى وهو الذي أصاب قومه الطاعون فخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فأماتهم الله ثم أحياهم.

إلياس عليه السلام

هو من سبط يوشع بن نون بعثه الله إلى أهل بعلبك وكانوا يعبدون صنما يقال له: بعل وملكهم أحب وامرأته أزبيل وكان يستخلفها على ملكه إذا غاب فتحكم

بـين الـناس وكانـت قـتالة للأنبـياء وقـد قتلـت منهم بشرا كثيرا وهى بنت ملك سبأ وعمـرت عمـرا طويـلا وتـزوجها سـبعة مـن ملـوك بـنى إسـرائيل وهـى قتلـت يحـيى بـن زكـريا وقال الله عز وجل لإلياس: سلني أعطك فقال: ترفعني إليك وتؤخر عنى مذاقة الموت فرفعه الله إليه بعد أن كساه الريش وجعله أرضيا سماويا ملكيا يطير مع الملائكة عليه وعليهم الصلاة والسلام .

اليسع عليه السلام

وكان اليسع تلميذ إلياس فدعاه لـه فنبأه الله بعده وأيده بمثل روح إلياس .

يونس بن متى

وبعث الله بعد إلياس يونس بن مَتَّى إلى أهل نينوى .

زكرياء عليه السلام

هـــو زكـــرياء بن أذن وكان زكرياء بن أذن وعمران بن ماثان بن يعاقيم من ولد داود الـنبي مـن سبط يهودا بن يعقوب وكانا في زمن واحد فتزوج أشياع بنت عمران أخـت مريم بنت عمران واسم أم مريم حنة فكان عيسى ويحيى ابني خالة وكان زكريا نجارا وأشاعت اليهود أنه ارتكب مع مريم الفاحشة .

عيسى ويحيى

وأمـــا يحيى فإن أحب قتله بحيلة امرأته أزبيل في قتله وأما عيسى فإن أمه لما ولدته هربت به من أحب صاحب أزبيل إلى مصر وحملته أمه إلى هناك .

يوسف النجار

وكـان هذا خطبها وتزوجها فيما يذكر في الإنجيل فلما صارت إليه وجدها حبلى قـبل أن يباشـرها وكـان رجـلا صـالحا فكـره أن يفشى عليها ورأى أن يسرحها خفية فتراءى لـه ملك الله في النوم فقال: يا يوسف بن داود إن امرأتك مريم سوف تلد نبيا يسـمى عيسـى وهـو ينجى أمته من خطاياهم وفي الإنجيل أن الملك الذي خافته مريم

على عيسى هراذس .

وكان عيسى ولد في بيت لحم يهودا ولما مات هراذس رأى يوسف في النوم أن يذهب به وبأمه إلى أرض الجليل فانطلق فسكن في قرية تدعى ناصرة فلذلك قيل نصارى (أصحاب الكهف) هم فتية من الروم دخلوا الكهف قبل المسيح وضرب الله على آذانهم فيه فلما بعث الله المسيح أخبر بخبرهم ثم بعثهم الله بعد المسيح في الفترة بينه وبين محمد ﷺ (ذو القرنين) هو رجل من الإسكندرية اسمه الإسكندر وكان حلم حلما رأى فيه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها فقص رؤياه على قومه فسموه ذا القرنين .

وكان في الفترة بعد عيسى عليه السلام (جرجيس) هو من أهل فلسطين وكان قد أدرك بعض الحواريين وبعث إلى ملك الموصل وهو بعد المسيح عليه السلام (لقمان الحكيم) كان لقمان عبدا حبشيا لرجل من بنى إسرائيل فأعتقه وأعطاه مالا وكان في زمن داود النبي عليه السلام واسم أبيه ثاران ولم يكن نبيا في قول أكثر الناس وروى يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: كان لقمان النبى خياطا .

قال وهب: قرأت من حكمته نحوا من عشرة آلاف باب لم يسمع الناس كلاما أحسن منه ثم نظرت فرأيت الناس قد أدخلوه في كلامهم واستعانوا به في خطبهم ورسائلهم ووصلوا به بلاغاتهم .

وأما ذو الكفل

فلم أجد له فيما نقله وهب ذكرا وقال غيره: هو من بنى إسرائيل بعث إلى ملك كان فيهم يقال له: كنعان فدعاه إلى الإيمان وكفل له بالجنة فكتب له كتابا ذكر فيه حق على الله فآمن به ذلك الملك فسمى ذا الكفل بالكفالة .

(**عدد الرسل**) ذكر وهب عن ابن عباس قال: أول المرسلين آدم عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ وكانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي ، الرسل منهم ثلثمائة وخمسة

عشر منهم خمسة عبرانيون وهم آدم وشيث ونوح وإبراهيم وموسى صلاة الله عليهم وخمسة من العرب هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ، وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليهما الصلاة والسلام .

(الكتـــب) قال: والكتب التي أنزلت على الأنبياء مائة كتاب وأربعة كتب على شيث خمسون صحيفة وعلى إدريس ثلاثون صحيفة وعلى إبراهيم عشرون صحيفة وعلى موسى التوراة وعلى داود الزبور وعلى عيسى الإنجيل وعلى محمد الفرقان .

(التاريخ) عاش آدم ألف سنة وفي التوراة أنه عاش ألف سنة إلا سبعين سنة وكان بين موت آدم وبين الطوفان ألفا سنة ومائتا سنة واثنتان وأربعون سنة وبين الطوفان وبين موت نوح ثلاثمائة وخمسون سنة .

وبين نوح وإبراهيم ألفا سنة ومائتا سنة وأربعون سنة وبين إبراهيم وموسى سبعمائة عام وبين موسى وداود خمسمائة عام وبين داود وعيسى ألف ومائتا عام وبين عيسى ومحمد ستمائة عام وعشرون عاماً فهذا تاريخ على بعض الروايات .

وقال وهب: كان بين نوح وآدم عشرة آباء وبين إبراهيم ونوح عشرة آباء وقرأت في الإنجيل أن عدد القبائل من إبراهيم إلى داود أربعة عشر قرنا ومن داود إلى جالية بابل أربعة عشر قرنا وإلى المسيح أربعة عشر قرنا ووجدت في كتب سير العجم أن بين الإسكندر وبين أزدشير مدة ملوك الطوائف وهى أربعمائة وخمس وستون سنة ثم ملك أزدشير ومن بعده من ملوكهم إلى يزدجرد المقتول في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكانت مدتهم أربعمائة سنة ونيفا وثلاثين سنة وكان بين الإسكندر وبين النبي ﷺ نحو من تسعمائة سنة والإسكندر بعد المسيح فيما ذكر وهب وفى هذا مخالفة لقوله: إن بين عيسى ومحمد ستمائة وعشرين عاما وغيره يذكر أن الإسكندر قبل المسيح والخبر في الإنجيل عن جالية بابل أنها كانت بعد داود بأربعة عشر قرنا والنساب يذكرون أنها كانت قبل إبراهيم وفي هذا من الاختلاف والتفاوت ما ترى والله أعلم بالصواب اهـ .

* * * * *

الباب الرابع في ذكر
نبينا محمد ﷺ

روى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال: «**يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا فلك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا إنسي ولا جني، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول: القلم، ومن الثاني: اللوح، ومن الثالث: العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول: حملة العرش، ومن الثاني: الكرسي، ومن الثالث: باقي الملائكة ثم قسم الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الأول: نور إبصار المؤمنين، ومن الثاني: نور قلوبهم، وهي المعرفة بالله ومن الثالث: نور ألسنتهم وهو التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله"**» ، وروى عن واثلة بن الأسقع: قال قال رسول الله ﷺ : «**إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم فأنا خيار من خيار من خيار**» فهو ﷺ النبي العربي الأبطحي الهاشمي القرشي نخبة بني هاشم المختار المنتخب من خيار بطون العرب وأعرقها في النسب .

محمد بن عبد الله

الذبيح ابن عبد المطلب واسمه شيبة الحمد ؛ وإنما سمى عبد المطلب لأن أباه هاشما قال لأخيه المطلب وهو بمكة أدرك عبدك بيثرب فمن ذلك سمى عبد المطلب وقيل: إن عبد المطلب جاء به إلى مكة رديفه وهو بهيئة دنية فكان يسأل عنه فيقول: هو عبدي حياء أن يقول ابن أخي فلما أدخله إلى مكة أظهر حاله أنه ابن أخيه فلذلك قيل له: عبد المطلب وهو أول من خضب بالسواد من العرب وعاش مائة وأربعين سنة .

(**ابـــن هاشم**) واسمـه عمرو وإنما قيل لـه هاشم: لأنه كان يهشم الثريد لقومه في سنة الجدب .

(**ابن عبد مناف**) واسمه المغيرة ، (**ابن كلاب**) واسمه حكيم وقيل: عروة .

(**ابـــن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر**) واسمه قريش وإليه تنسب قريش فما كان فوقه فكناني لا قرشي .

(**ابن مالك بن النضر**) واسمه قيس .

(**ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار**) بكسـر النون من النزر وهـو القلـيل قيل: لأنه لما ولد ونظر أبوه إلى نور محمد ﷺ بين عينيه فرح فرحا شديدا وأطعم وقال: هذا كله نزار أي: قليل في حق هذا الولد فسمى نزارا لذلك .

(**ابـــن معـــد بن عدنان**) قـال ابن دحية: أجمع العلماء على أن رسول الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه ، وقد ذكر الحافظ أبو سعد النيسابورى بسنده عن كعب الأحـبار أن نـور الـنبي ﷺ لـما صـار إلى عـبد المطلـب وأدرك نام يوما في الحجر فانتبه مكحـولا مدهونـا وقـد كسـى حلـة البهاء والجمال فبقى متحيرا لا يدرى من فعل به ذلـك فـأخذه أبـوه بـيده ثـم انطلـق به إلى كهنة قريش وأخبرهم بذلك فقالوا: إن إله السـموات قـد أذن لهـذا الغـلام أن يـتزوج فزوجه قيلة فولدت لـه الحارث ثم ماتت فـزوجه بعدهـا هند بنت عمرو وكان عبد المطلب يفوح منه رائحة المسك الأذفر ونور رسول الله ﷺ يضيء في غرته .

وكانـت قـريش إذا أصـابها قحـط تـأخذ بيد عبد المطلب فتخرج به إلى جبل ثبير فيـتقربون بـه إلى الله ويسـألونه أن يسقيهم به الغيث فكان يغيثهم ويسقيهم ببركة نور محمـد ﷺ غيـثا عظـيما ، (ولمـا أقدم أبرهة) ملك اليمن إلى هدم بيت الله الحرام وكان سـبب ذلـك أن أبـرهة بـن الصباح الأشرم كان سلطانا قويا شديد البأس جزيل المال وكـان لـــه فـيل قـوى اسمـه محمود وأفيال أخر فلما بلغه تعظيم العرب للبيت الحرام وقصـدهم إيـاه وكـان عـلى ديـن النصـرانية بـني كنيسـة في صـنعاء واجتهد في أمرها

وتحسينها حتى عملها طوبة من ذهب وأخرى من فضة وسماها القليس وأمر أن يحجها كل من كان على دين النصرانية في كل عام تعظيما لها وتكون بينهم كالكعبة بين العرب ، فلما تكملت وانتهت زخرفها وزينها قصدها رجل من العرب من كنانة يعبد الأصنام وكان قد لحقه غيرة على ذلك فلما وصل إليها صحب البوابين والخدام الموكلين بها وبخدمتها وصار يمسي ويصبح عندهم مدة إلى أن غفلوا عنه فدخل إلى صدر الكنيسة وقذر فيه فجاء بعض خدام الكنيسة فرأى صنيعه فانتهره فهرب من بين يديه ولم يعلم له مكان فبلغ ذلك أبرهة فعظم عليه الأمر جدا ، وأقسم بالمسير إلى الكعبة وهدمها ومن وجده من العرب يقتله ثم جهز جيشا وسار ومعه العسكر وكان لا يقدم على عسكر إلا هزمه فبلغ ذلك قبائل العرب فاحتمى أكثرهم وقابله بالحرب فمنهم من قتله أبرهة ومنهم من هزمه ولم يزل يفعل ذلك من أرض الحبشة حتى وصل مكة .

وكان عبد المطلب سيد قريش وكبيرهم في الجاهلية وأمر الأصنام التي يعبدونها في الكعبة مفوض إليه فلما سمع ذلك قال: يا معشر قريش إن أبرهة استاق إبل قريش وغنمها وكان لعبد المطلب فيها أربعمائة ناقة فركب عبد المطلب في قريش حتى طلع جبل ثبير فاستدارت دائرة غرة نور رسول الله ﷺ على جبينه كالهلال واشتد شعاعها ، ثم إن أبرهة أرسل إلى عبد المطلب يقول: أنت رجل كبير القدر وقد وصفت لي بكل جميل وأنك تقرى الضيف وتقرى الوحش على رؤوس الجبال وليس بيني وبينك أمر وقد سمعت ما تم لغيرك من العرب معي وما لي قصد سوى هدم هذا البيت فإن راعتك رياستك وقومك ودعني وإياه ، فلما سمع عبد المطلب رسالته قال للرسول: ارجع فاستأذن له فأذن له أبرهة فمضى عبد المطلب إليه وكان جالسا على سرير الملك في خيمته بظاهر مكة فاستأذن عليه فأذن له فدخل عليه فلما عاينه أبرهة ارتاع وحصلت له في قلبه هيبة عظيمة ونهض قائما عن سريره وهم أن يجلسه إلى جانبه فخشي من بعض خواصه وكره أن يجلسه تحت السرير فنزل وجلس معه على الأرض ثم قال لترجمانه: اقرئه مني السلام وقل له: الملك يسألك: هل لك من حاجة؟ فقال

عبد المطلب: إني جئت لأسأل الملك في أن يعيد إليَّ إبلي التي أخذها فأعاد الترجمان ذلك على الملك فقال للترجمان: قل له: إن الملك لما رآك عظمت في عينيه لشخصك فلما ورد عليه هذا القول منك سقط وقارك عنده، وذلك لأنك تركت الحديث معه في أمر البيت الذي تعتمر به أنت وبنوك وفى بقائه عزهم وعز دين العرب وتتحدث معه في الإبل التي لا قدر لها بالنسبة إليه فأعاد الترجمان على عبد المطلب القول فقال: قل للملك: لما كنت رب الإبل تحدثت في أمرها، والبيت له رب إن شاء مكن الملك وإن شاء دفعه عنه فاكتفى أبرهة بهذا الجواب ورسم بإعادة الإبل إلى عبد المطلب فأعيدت ثم ركب أبرهة في جيشه وساق الفيل بين يديه فدنا رجل من قريش إلى أذن الفيل وقال: يا محمود أنت في حرم الله عز وجل وبجوار بيته المعمور فبرك الفيل خاضعا ذليلا فتقدم إليه الموكلون به وضربوه الضرب الوجيع ليقوم فما قام فلما أعياهم قالوا: قم فارجع من حيث أتيت فقام فقصد بلاده فمشى فحرفوه نحو الكعبة فبرك ثانيا فلما أعياهم أمره قال أبرهة: لا حاجة لنا به دعوه ثم سار هو وجيشه غير بعيد فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل كل واحد في منقاره حجر وفى رجليه حجران أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فرمتهم بها فكانت تقع الحجر على رأس الرجل فتخرج من دبره فهلكوا جميعا لم يبق منهم غير واحد، فروى أنه لما خلص ووصل إلى بلادهم وذكر لهم الطير رفع لهم رأسه ليريهم من الطيور ما شابه فرأى طيرا فوق رأسه فقال: هذا هو فرماه بمنقاره بحصوة فهلك من ساعته.

(وروى): أن النور لما انتقل من عبد المطلب إلى ولده عبد الله فكان في وجهه رأته امرأة من العرب ذات مال وحسب وجمال فقالت: هل لك في مال جزيل وتقع عليَّ؟ فقال لها: سأنظر في أمرك ثم مضى إلى آمنة ووقع عليها فحملت منه برسول الله ﷺ ثم دعي إلى المرأة فنظرت إلى وجهه فقالت: إن السعد الذي رمته منك ظفر به غيري ثم سألته عما تقوله فأخبرها بما كان فقالت له: لم يكن لي رغبة إلا في خير نالته آمنة منك، وولد ﷺ بمكة يوم الجمعة بعد طلوع الفجر سابع ربيع الأول عام الفيل وكان حمل آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب به أيام التفريق في منزل أبيه

عبد الله بمنى عند الجمرة الوسطى وصدع بالرسالة في اليوم السابع والعشرين من رجب وقبض صلاة الله عليه بالمدينة يوم الإثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة عن ثلاث وستين سنة ، وولدت له فاطمة صلاة الله عليها بعد المبعث بخمس سنين وتوفيت بعد أبيها بنحو مائة يوم وقيل: ستة أشهر فتكون مدة حياتها ست عشرة سنة .

وولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - يوم الجمعة ثالث عشر رجب وروى سابع شعبان بعد مولد رسول الله ﷺ بثلاثين سنة وقبض قتيلا بالكوفة ليلة الجمعة لتسع ليال بقين من شهر رمضان سنة أربعين عن ثلاث وستين سنة ودفن بالمعرى من تحت الكوفة بمشهده الآن وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهو وإخوته أول هاشمي ولد بين هاشميين .

وولد الإمام الحسن الذكي سيد شباب أهل الجنة بالمدينة يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة وقيل: ثلاث وقبض يوم الخميس سابع صفر سنة تسع وأربعين أو سنة خمسين من الهجرة عن سبع أو ثمان وأربعين سنة .

وولد الإمام الحسين رضى الله عنه سيد شباب أهل الجنة بالمدينة آخر شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة وقتل بكربلاء يوم عاشوراء سنة إحدى وستين عن ثمان وخمسين سنة ، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال للحسين عليه السلام: **«يا بنى من زارني حيا أو ميتا أو زار أباك أو زار أخاك أو زارك كان حقا عليَّ أن أزوره يوم القيامة وأخلصه من ذنوبه»** ، انتهى والله أعلم بالصواب .

* * * * *

الباب الخامس

في الخلفاء الأمويين

كانت دولة بنى أمية وخلافتهم بالشام وعمالهم بمصر وغيرها فأولهم معاوية وآخرهم مروان بن محمد بن مروان الأول ومدتهم اثنتان وتسعون سنة ، وبويع لمعاوية بالخلافة في ذى الحجة سنة أربعين في بيت المقدس وبقي في الخلافة أربع عشرة سنة وتوفي عن ثمان وسبعين سنة ودفن بدمشق وولى بعده ابنه يزيد فمكث في الخلافة ثلاث سنين وثلاثة أشهر ومات عن ثلاث وعشرين سنة وولى بعده ابنه معاوية فمكث فيها ثلاثة أشهر وعشرين يوما وولى بعده عبد الله بن الزبير فكانت مدة خلافته تسع سنين ومروان بن الحكم فمكث مروان في الخلافة سنة واحدة ، وقيل: سمته زوجته ، وولى بعده عبد الملك بن مروان وكان ملكه بالشام ومصر وعبد الله بن الزبير بالحجاز والعراق ثم إن عبد الملك أنفذ الحجاج بن يوسف الثقفي إلى حرب عبد الله بن الزبير فحصره في الكعبة ورماه بالمنجنيق وقتله ، وتفرد عبد الملك بالخلافة فكان مجموع خلافته إحدى وعشرين سنة منها سبع سنين وسبعة أشهر قبل قتل عبد الله بن الزبير وولى بعده الوليد بن عبد الملك فمكث فيها تسع سنين وتوفى ودفن بدمشق وولى بعده سليمان بن عبد الملك وبقى سنتين وثمانية أشهر وولى بعده عمر بن عبد العزيز ابن عم سليمان وبقى سنتين وخمسة أشهر وتوفى عن تسع وثلاثين سنة بدير سمعان بأرض حمص وولى بعده يزيد بن عبد الملك بعهد من أبيه وأخيه سليمان فمكث فيها أربع سنين وشهرا وولى بعده أخوه هشام بن عبد الملك فمكث في الخلافة عشرين سنة وولى بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومكث في الخلافة سنة وشهرين ثم ذبح وولى بعده يزيد بن الوليد فمكث فيها ستة أشهر إلا أياما وولى بعده إبراهيم بن الوليد أخوه ومكث في الخلافة شهرين إلا أياما وولى بعده مروان بن محمد بن مروان الأول فمكث في الخلافة خمس سنين وشهرا ثم انقضى حديثه ومَرّوبه انقرضت دولة الأمويين .

ومن غرائب ما يحكى عن معاوية ما ذكره ابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون أنه لما ولى الخلافة واستقرت له كان قد ولى عبد الله بن سلام على العراق وكانت أرينب بنت إسحاق زوجة عبد الله بن سلام وكانت من أجمل نساء وقتها وأحسنهن أدبا وأكثرهن مالا وكان يزيد بن معاوية قد سمع بجمالها وبما هي فيه من الأدب وحسن الخُلُق والخَلْق ففتن بها فلما عيل صبره استراح في ذلك مع أحد خصيان معاوية وكان ذلك الخصى خاصا بمعاوية يدعى برفيف فذكر ذلك لمعاوية وذكر له شغف يزيد بها وأنه ضاق ذرعاً بأمرها فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره فبث له شأنه فقال معاوية: فمهلا يا يزيد فقال: علام تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل قال له معاوية: فأين حجاك ومروءتك قال له يزيد: قد عيل صبري والحجا ولو كان أحد ينتفع به من الهوى لكان أولى الناس بالصبر عليه داود حين ابتلي به قال: اكتم يا بنى أمرك فإن البوح به غير نافعك والله بالغ أمره فيك ولابد مما هو كائن .

وكانت أرينب بنت إسحاق مثلا في أهل زمانها لجمالها وتمام كمالها وشرفها وكثرة مالها فأخذ معاوية في الحيلة حتى يبلغ يزيد رضاه منها فكتب إلى عبد الله بن سلام وكان استعمله على العراق أن أقبل حين تنظر في كتابي لأمر فيه حظك إن شاء الله ولا تتأخر عنه ، وأغذ السير وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله ﷺ ، فلما قدم عليه عبد الله بن سلام أمر معاوية أن ينزل منزلا قد هيأه له وأعد فيه نزله ثم قال لأبى هريرة وأبى الدرداء .

إن الله قسم بين عباده نعما أوجب عليهم شكرها وحتم عليهم حفظها فحباني منها عز وجل بأتم الشرف وأفضل الذكر وأوسع على في رزقه وجعلني راعى خلقه وأمينه في بلاده والحاكم في أمر عباده ليبلوني أأشكر أم أكفر وأول ما ينبغي للمرء أن يتفقده وينظر فيه من استرعاه الله أمره ومن لا غنى به عنه ، وقد بلغت لنا ابنة أريد إنكاحها والنظر في تحلل من يباعلها لعل من يكون بعدي يبدي ويتبع فيه أثري فإنه قد يلي هذا الملك بعدي من يغلب عليه زهو الشيطان وتشرفه إلى تعطيل بناتهم ولا يرون لهن كفؤا ولا نظيرا وقد رضيت لها عبد الله بن سلام القرشي لدينه وشرفه ومروءته

وأدبـه فقـال أبـو هريـرة وأبـو الدرداء: إن أدنى الناس برعاية نعم الله وشكره وطلب مرضـاته فـيما خصه به منها لأنت صاحب رسول الله ﷺ وكاتبه وصهره قال معاوية: فاذكـروا ذلك عنى وقد كنت جعلت لها في نفسها شوري غير أنى أرجو ألا تخرج من رأيـي إن شـاء الله تعـالى فخرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله بن سلام بالذي قـال لهمـا معاويـة ودخل معاوية على ابنته فقال لها: إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريـرة فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وإنكاحي إياك منه وحضاك على المسارعة إلى هـواي فقولـي لهمـا: عـبد الله كـفء كـريم وقريب حميم غير أن تحته أرينب بنت إسـحاق وأنـا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء فأتناول منه ما يسخط الله فـيه فـيعذبني علـيه ولسـت بفاعلـة حـتى يفارقهـا فـلما ذكر ذلك أبو هريرة وأبو الـدرداء وأعـلماه بـالذي أمـرهما معاويـة جذل بذلك وفرح به ثم بعثهما إلى معاوية خاطـبين علـيه فقال لهما معاوية إذ جاآه خاطبين منه: قد تعلمان رضائي به وكنت قد أعلمـتكما بالذي جعلت لها في نفسها من الشورى فادخلا عليها وأعرضا الذي رأيت لهـا فدخـلا علـيها وأعلماها ذلك فقالت لهما كالذي قال لها أبوها فأعلما عبد الله بن سـلام بذلك فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراق أرينب أشهدهما بطلاقها وبعث بهما إليها خاطبين وأعلما معاوية بالذي كان من فراق عبد الله بن سلام زوجته أرينب بنت إسـحاق طالـبا لمـا يرضيها فأظهر معاوية كراهة لفعله فقال: ما استحسنت لـه طلاقها ولا أحببته فانصرفا في عافية ثم تعودان إليها وتأخذان رضاها إن شاء الله تعالى.

وكتـب إلى ابـنه يـزيد يعـلمه بمـا كـان مـن طلاق عبد الله بن سلام لأرينب بنت إسـحاق فـلما عـاد أبـو هريـرة وأبـو الـدرداء إلى معاويـة أمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها هربا من الأمر ونظر إلى العذر وأخذ يقول: لم يكن لي أن أكرهها وقـد جعلـت لهـا الشـورى في نفسـها فدخـلا علـيها وأعلماها بطلاق عبد الله امرأته ليسراها وذكرا لها من فضله وكمال مروءته وكريم مجده فقالت لهما: جف القلم بما هو كـائن وإنه في قريش لرفيع القدر وقد تعلمان أن التزويج جده هزل وهزله جد والأناة في الأمـور أرفـق لمـا يخـاف فـيها من المحذور فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد

الـتأني فـيها كان الأمر بحسن العزاء خليقا وبالصبر عليها حقيقا وإني سائلة عنه حتى أعـرف دخيلة خبره ويصح لي الذي أريد عمله من أمره وإن كنت أعلم أن لا اختيار لأحـد فيما هو كائن ومعلمتكما بالذي يزينه الله في أمره ولا قوة إلا بالله قالا: وفقك الله وخار لك ثم انصرفا عنها فلما أعلماه بقولها أنشأ يقول:

فــإن يــك صــدر هــذا الــيوم ولى ::: فــإن غــدا لــناظره قريــب

وتحدث الناس بالذي كان من طلاق عبد الله بن سلام امرأته وخطبته ابنة معاوية وقـالوا: لِـمَ طلـق قـبل أن يفـرغ مـن طلبته ويوجب الذي كان من بغيته؟ واستحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء فأتياها فقالا لها: اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله فإنـه يهدى من استهداه قالت: أرجو والحمد لله أن يكون الله قد خار فإنه لا يكل إلى غـيره مـن توكـل علـيه فقد استربت أمره وسألت عنه فوجدته غير دائم ولا موافق لما أريد لنفسي مع اختلاف من استشرته فيه فمنهم الناهي عنه والآمر به واختلافهم أول ما كرهت .

فـلما بلغـه كلامها علم أنه مخدوع وقال: ليس لأمر الله راد ولا لما أبرمه صاد فإن المـرء وإن كمـل لــه عـلمه واجتمع لـه عقله واستذرا به وليس بدافع عن نفسه قدرا بـرأي ولا كـيد ولعـل مـا سـولوا به واستخذلوا لا يدوم لهم سروره ولا يصرف عنه محـذوره قال: وذاع أمره وفشى في الناس خبره وقالوا: خدعه معاوية حتى طلق امرأته وإنمـا أرادها لابنه بما صنع فلما بلغ ذلك معاوية قال: لعمري ما خدعته فلما انقضت أقراؤها وجه معاوية أبا الدرداء خاطبا لها على ابنه يزيد فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسـين بـن عـلى رضى الله عنهما فقال أبو الدرداء: أنا قادم العراق وما ينبغي لذي نهـى أن يـبدأ بشـيء ويؤثـره عـلى مهم من أموره قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجـنة إذا دخـل موضـعا هـو فـيه فـإذا أديت حقه والتسليم عليه انقلبت لما جئت إليه فقصد الحسين فلما رآه الحسين قام لـه وصافحه إجلالا لصحبة جده ﷺ ولموضعه من الإسلام وقال لـه: ما أتى بك يا أبا الدرداء؟ قال: وجهني معاوية خاطبا على ابنه يزيد أرينـب بنـت إسـحاق فرأيت عليَّ حقا أن لا أبدأ بشيء قبل السلام عليك فشكر لـه

الحسين ذلك وأثنى عليه وقال: لقد كنت ذكرت نكاحها وأردت الإرسال إليها إذا انقضت أقراؤها فلم يمنعني من ذلك إلا تخير مثلك فقد أتى الله بك فاخطب رحمك الله عليَّ وعليه لتتخير من يختاره الله لها وهى أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها وأعطها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه قال: أفعل إن شاء الله تعالى فلما دخل عليها قال: أيتها المرأة إن الله خلق الأمور بقدرته وكونها بعزته فجعل لكل أمر قدرا ولكل قدر سببا وليس لأحد عن قدر الله مستخلص ولا للخروج عن علمه مناص فكان ما سبق لك وقدر عليك من فراق عبد الله بن سلام إياك ولعل ذلك لا يضرك ويجعل فيه خيرا كثيرا وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن مليكها وولى عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية والحسينُ ابن بنت رسول الله ﷺ وابن أول من آمن به من أمته وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة وقد بلغك ثناءهما وفضلهما وجئتك خاطبا عليهما فاختاري أيهما شئت فسكتت طويلا ثم قالت: يا أبا الدرداء لو أن هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل إليك واتبعت فيه رأيك ولم أقتطعه دونك فأما إذا كنت المرسل فيه فقد فوضت أمري بعد الله إليك وجعلته في يدك فاختر لى أرضاهما إليك والله شاهد عليك فاقض في قصري بالتحري ولا يصدنك عن ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفيا ولا أنت عما طوقتك غبيا .

قال أبو الدرداء: أيتها المرأة إنما أنا عليَّ إعلامك وعليك الاختيار لنفسك قالت: عفا الله عنك إنما أنا بنت أخيك ومن لا غنى به عنك فلا يمنعك رهبة أحد من قول الحق فيما طوقتك فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك والله خير من روعي وخيف إنه بنا خبير لطيف فلما لم يجد بدا من القول والإشارة قال لها: أي بنية ابن بنت رسول الله ﷺ أحب إليَّ لك وأرضى عندي والله أرضى بخيرهما لك ، وقد رأيت رسول الله ﷺ واضعا شفتيه على شفتي الحسين فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله ﷺ شفتيه قالت: قد اخترته ورضيته فتزوجها الحسين بن على رضى الله عنهما وساق لها مهرا عظيما وبلغ معاوية الذي كان من فعل أبى الدرداء في ذلك ونكاح الحسين أرينب فتعاظم ذلك عليه وقال: من يرسل ذا بله وعمى يركب خلاف ما يهوى وكان

عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه بديرات مملوءة دُرًّا وكان ذلك أعظم ماله لديه وأحبه له وكان معاوية أطرحه وقطع عنه جميع روافده لسوء قوله فيه وتهمته أنه خدعه فلم يزل يجفوه حتى عيل صبره وقل ما في يديه ولام نفسه على المقام لديه فرجع إلى العراق وهو يذكر ماله الذي كان استودعه زوجته ولا يدرى كيف يصنع فيه وأنى يتوصل إليه وهو يتوقع جحودها لسوء فعله بها وطلاقه إياها على غير شيء أنكره عليها فلما قدم إلى العراق لقي حسينا فسلم عليه ثم قال: قد علمت ما كان من خبري وخبر أرينب وكنت قبل فراقي إياها قد استودعتها مالا عظيما وكان الذي كان ولم أقبضه ووالله ما أنكرت منها في طول صحبتها فتيلا ولا أظن بها إلا جميلا فذاكرها أمري واحضضها على رد مالي عَلَيَّ فإن الله يحسن عليك ذكرك فسكت عنه ولما انصرف الحسين إلى أهله قال لها:

قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الثناء عليك ويحمل النشر عنك في حسن صحبتك وما آنسه قديما من أمانتك فسرني بذلك وأعجبني وذكر أنه قد استودعك مالا فأدى إليه أمانته وردى عليه ماله فإنه لم يقل إلا صدقا ولم يطلب إلا حقا قالت: صدق استودعني مالا لا أدرى ما وإنه لمطبوع عليه بخاتمه ما حوَّل منه شيئا إلى يومه هذا فادفعه إليه بطابعه فأثنى عليها الحسين خيرا وقال: لأدخله عليك حتى تتبرئي إليه منه كما دفعه إليك ثم لقي عبد الله فقال: ما أنكرت مالك وزعمت أنه كما دفعته إليها بطابعك فادخل عليها واقبض مالكَ، قال عبد الله: أوتأمر من يدفعه إليَّ قال: لا حتى تقبضه منها كما دفعته إليها وتبريها منه إذا أدته إليك فلما دخل عليها قال لها الحسين: هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فأدى إليه أمانته فأخرجت إليه تلك البديرات فوضعتها بين يديه وقالت: هذا مالك فشكر وأثنى عليها وخرج الحسين عنهما وفض عبد الله خواتم بدره وحثا لها من ذلك فقال: خذي فهذا قليل لك منى واستعبرا جميعا حتى علت أصواتهما بالبكاء أسفا على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما للذي سمع منهما فقال: أشهد الله أنها طالق ثلاثا اللهم قد تعلم أنى لم أستنكحها رغبة في مالها ولا جمالها ولكن أردت إحلالها لبعلها فطلقها

ولم يأخذ شيئا مما ساق إليها فأجابته إلى ذلك شكرا لما صنعه بهما فلم يقبله الحسين وقال: الذي أرجو عليه من الثواب خير لي فلما انقضت أقراؤها تزوجها عبد الله بن سلام وبقيا زوجين إلى أن فرق الدهر بينهما وحرّمها الله على يزيد بن معاوية .

ومن المنقول عنه أيضا

ما ذكره ابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون أن معاوية كان في مجلس له بدمشق مرتفع وكان مفتح الأبواب لدخول النسيم من شدة حر ذلك اليوم فلما توسط النهار ولفح الهجير نظر معاوية إلى رجل يمشى مجدا في مشيه حافيا يتلظى من الحر فقال لجلسائه: هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في مثل هذا الوقت؟ فقال له بعضهم: لعل له حاجة عند أمير المؤمنين فقال: والله لئن كان كذلك لا رددته عن طلبته كائنة ما كانت ، يا غلام قف بالباب فإن طلبنى هذا الأعرابي فلا تحجبه وأوصله إليَّ فوافى الأعرابي الباب ينشد معاوية فأوصله الغلام إليه فقال له: ممن الرجل؟ قال: من بنى تميم قال: ما جاء بك في هذا الوقت؟ قال: جئتك مشتكيا وبك مستجيرا قال: ممن؟ قال: من مروان بن الحكم عاملك وأنشأ يقول:

معاوى يا ذا الحلم والجود والفضل ::: ويا ذا الندا والعلم والرشد والنبل
أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي ::: فيا غوث لا تقطع رجائى من العدل
وجد لي بإنصاف من الجائر الذي ::: بلاني بشيء كان في مثله قتلى
سباني سعدي وانبرى لخصومتي ::: وجار ولم يعدل وغاصبنى أهلي
وهم بقتلى غير أن منيتي ::: تناءت ولم أستكمل الرزق من أجلى

فلما سمع معاوية وأن النار تكاد تتقد من فيه قال: مهلا يا أخا العرب هات قصتك وأفصح عن أمرك قال: يا أمير المؤمنين لي زوجة وهى ابنة عمى وأنا لها محب وبها كلف قرير العين طيب العيش وكانت لي صرمة من الإبل أستعين بها على قيام حالي وكفاف أودى فأصابتنا سنة شديدة أذهبت الخفير والظب وبقيت لا أملك شيئا فلما قل ما بيدي وذهب مالي وفسد حالي بقيت مهانا ثقيلا على وجه الأرض قد أبعدني من كان يشتهى القرب مني ومن كان يرغب في زيارتي قد ازْوَرَّ عنى فلما رأى

أبوها ما بي من سوء الحال وقلة المال أخذها مني وطردني وأغلظ عليَّ فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مستصرخا به راجيا نصرته فأحضر أباها وسأله عنى فقال: ما أعرفه قبل اليوم فقلت: أصلح الله الأمير إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل فبعث إليها مروان وأحضرها مجلسه فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب فصار لي خصما وعليَّ منكرا فانتهرني وأظهر لي الغضب وأمر بي إلى السجن فبقيت كأنما خررت من السماء من مكان سحيق ثم قال لأبيها: هل لك أن تزوجني إياها على ألف دينار لها وعشرة آلاف درهم لك وأنا ضامن لك خلاصها من ذلك الأعرابي؟ فرغب أبوها في البذل وأجابه لذلك فلما كان من الغد بعث إليَّ وأخرجني من السجن ونظر إليَّ مغضبا وقال: طلق سعدى قلت: كلا ، فسلط عليَّ جماعة من أعوانه يعذبوني فلم أجد بدا من ذلك ففعلت فأعادني إلى السجن فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها وتزوج بها فأطلقني وقد أتيتك لاجئا بك مستجيرا وأنشأ يقول:

في القلب مني نار	:::	والنار فيها استعار
والجسم مني سقيم	:::	فيه الطبيب يحار
وفي فؤادي جمر	:::	والجمر فيه شرار
والعين تهطل دمعا	:::	ودمعها مدرار
وليس إلا بربي	:::	ثم الأمير انتصار

ثم خر مغشيا عليه يتلوى كالأفعوان فقال له معاوية: لقد تعدى مروان وظلمك وتخطى حدود الدين واجترى على حرم المسلمين وقال: والله يا أعرابى لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب إلى مروان قد بلغنى أنك اعتديت على رعيتك وانتهكت حرمة من حرم المسلمين وتعديت حدود الدين وينبغى لمن كان واليا أن يغض بصره عن محارم الله ثم كتب إليه بعد كلام اختصرناه هذه الأبيات:

وليت ويحك أمراً ليس تدركه	:::	فاستغفر الله من فعل امرئ زانى
وقد أتانا الفتى المسكين منتحبا	:::	يشكو إلينا غراما تلو أحزان
إن أنت خالفتني فيما كتبت به	:::	لأجعلنك لحما بين عقبان

طلــق ســعاد وأرســلها معجلــة ::: مــع الكميــت ومــع نصــر بن ذبيان

وطـوى الكـتاب وطـبعه بخاتمـه واسـتدعى الكميـت ونصـر بـن ذبـيان وكـان يستنهضـهما في مهماتـه فـأخذا الكـتاب وسـارا حـتى قدمـا المدينة فسلما الكتاب إلى مـروان فجعـل يقـرأه ويـبكي وأعـلم سعدى بما جرى وطلقها وجهزها مع الرسولين وكتب إلى معاوية كتابا مطولاً رأينا الاقتصار منه على هذه الأبيات وهي:

لا تعجلــن أمــير المؤمــنين فقــد ::: أوفي بــنذرك في رفــق وإحســان
ومــا أتيــت حــراما حــين أعجــبني ::: فكــيف أدعــى باســم الخــائن الزاني
اعــذر فــإنك لــو أبصرتها شخصت ::: مــنك العــيون إلى تمــثال إنســان
فســوف تأتــيك شمــس لــيس يعدلها ::: عــند الخلــيفة مــن إنــس ولا جان

ودفـع الكـتاب إلـيهما وسلمهما الجارية فلما وردوا دمشق وحضروا عند معاوية قـال: لقـد أحسن مروان الطاعة ثم أمر بإحضار سعدى فلما رآها رأى صورة لم يرها مثـلها حسنا وجمالا وقدا واعتدالا فاستنطقها فوجدها أفصح خلق الله وأعذبهم منطقا فقـال: عليَّ بالأعرابي فدخل عليه وهو على غاية من سوء الحال فقال: يا أعرابي هل لـك عـنها مـن سـلوة وأعوضـك عـنها ثـلاث جـوار أبكار مع كل جارية ألف دينار وأفرض لك في بيت المال ما يكفيك ويعينك على صحبتهن فلما سمع الأعرابي كلام معاويـة شـهق حـتى ظـن موتـه فقال لـه معاوية: ما بالك؟ قال: من بال وأسوأ حال استجرت بعدلك من جور مروان فبمن أستجير من جورك وأنشأ يقول:

لا تجعلــني جعلــت فــداك مــن ملك ::: كالمســتجير مــن الرمضــاء بالــنار
اردد ســعاد عــلى حــيران مكتئــب ::: يمســي ويصــبح في هــم وتذكــار
أطلــق وثــاقي ولا تــبخل عــليَّ بها ::: فــإن فعلــت فــإني غــير كفــار

ثـم قـال: والله يـا أمـير المؤمـنين لـو أعطيتني ما حوته الخلافة ما اعتضت به عن سـعدى فقـال: يـا أعـرابي أنت مقر بأنك طلقتها ومروان قد طلقها ونحن نخيرها فإن اخـتارت سـواك زوجـناها لمـن اختارت وإلا دفعناها لك فهل أنت راض بهذا؟ قال: نعـم قـال معاويـة: يا سعدى ما تقولين أيهما أحب إليك أمير المؤمنين في عزه وشرفه وسلطانه ونصره وما تصيرين إليه عنده أو مروان في عسفه وجوره أوهذا الأعرابي مع

جوعه وفقره فأنشأت تقول:

هـذا وإن كـان في جـوع وإضـرار ::: أعـز عـندي مـن قومي ومن جاري
وصـاحب الـتاج أو مـروان عاملـه ::: وكـل ذي درهـم عـندي وديـنار

ثـم قالـت: والله يـا أمـير المؤمنين ما أنا منحازة عنه لحادث الزمان وغدر الليالي والأيـام وإن لـي معه صحبة قديمة لا تنسى ومحبة لا تبلى وأنا أحق من صبر معه على الضراء كما تنعمت منه في السراء فتعجب معاوية من عقلها ومروءتها وأمر لها بعشرة آلاف درهم وردها إلى الأعرابي بعقد صحيح اهـ.

ومن المنقول عن يزيد بن معاوية

يحكـى عـن بعـض شيوخ المدينة قال: كانت عند عبد الله بن جعفر جارية مغنية يقـال لهـا: عمارة وكان قد شغف بحبها شغفا شديدا فلما وفد عبد الله بن جعفر على معاويـة صحبها معه فاتفق أن يزيد بن معاوية دخل على عبد الله بن جعفر يوما فنظر إلىَّ عمـارة وسمـع غناءها فعلق بها يزيد وأخذت بمجامع قلبه ووقعت في نفسه أعظم موقع وجعل لا يمنعه أن يبوح بما عنده من الوجد إلا خيفة أبيه مع يأسه من الظفر بها فـلم يزل يكتم أمرها إلى أن مات أبوه ودارت الخلافة إليه فاستشار بعض من يثق من أصـحابه وندمائـه في أمـر عمـارة فقـيل لـه: إن عبد الله بن جعفر لا يرام ومنزلته من أبـيك ومنك ما علمت وهو لا يبيعها بشيء أبدا وليس في هذا إلا الحيلة فقال: انظروا إلى رجـلا فصـيح اللسان قوى الجنان فأتوه برجل عراقي عاقل أديب ذي ذكاء وحيلة فلما استنطقه رأى عقله وفهمه فقال: إني دعوتك لأمر إن ظفرت به فهو حظوتك إلى آخـر الأبـد ثـم أخـبره بأمـره فقال: يا أمير المؤمنين ليس يرام مثل عبد الله إلا بالحيلة والخديعة وإن قدر واحد على ذلك فأرجوأن أكون أنا فأعنى بالمال فقال: خذ ما شئت وأحببـت فـأخذ واشـترى مـن طـرائف الشام وثياب مصر ومتاع العراق ومن الرقيق والدواب وغير ذلك ما احتاج إليه ثم توجه إلى المدينة فأناخ بعرصة عبد الله بن جعفر واكـترى مـنزلا بالقـرب مـنه ثم أرسل إليه يقول: يا مولاي أنا رجل من أهل العراق وقدمـت بتجارة وأحببت أن أكون في جوارك وكنفك إلى أن أبيع ما معي فأمر بإكرامه

والإحسان إليه فلما اطمأن العراقي توجه إلى عبد الله وسلم عليه وقدم لـه بغلة فارهة وثيابا من ثياب العراق وطيبا وغير ذلك مما يصلح لـه وسأله بقرابته من رسول الله ﷺ أن يقبلها منه ولا يخجله بردها فقبلها منه عبد الله وأكرمه إكراما جزيلا ثم إن عبد الله صنع طعاما حسنا وأحضر العراقي وأحضر عمارة وأمرها أن تغنى فغنت فلما سمعها كـاد العراقي يغشى عليه فقال لـه عبد الله: أرأيت مثل عمارة فقال: لا والله يا سيدي مـا رأيـت ولا سمعـت مـثل غـنائها ولا تصـلح إلا لك ولا ظننت أن في الدنيا مثلها فقـال: كـم تساوى عندك؟ قال: يا سيدي أنا رجل من السواد أجمع الدراهم والدنانير ولـو وجدتهـا بعشـرة آلاف دينار لأخذتها فقال لـه عبد الله: كنت تأخذ بعشرة آلاف دينار؟ قال: نعم فقال مازحا: أنا أبيعها لك بعشرة آلاف دينار قال: قد قبلت قال: هي لك ثم انصرف إلى منزلـه فلم يشعر إلا بالمال وقد وافاه فرده عبد الله وقال: إنما كنت مازحـا أو مـا علمـت أن مثلي لا يبيع مثلها بما على وجه الأرض فقال: جعلت فداك إن الجد والهزل ليس في البيع واحد فإذا كنت أنت مازحا فإني مجد وقد ملكت الجارية وليست تحل لك بعد .

فقال عبد الله: بئس الضيف أنت ما طرقنا طارق أعظم علينا منك ثم أمر بتجهيز الجارية بما يصلحها من الثياب والطيب وغير ذلك وجهزها بثلاثة آلاف دينار وسلمها بمـا معها وقال: هذه عوض عما أهديت لنا وإن كنت فجعتنا فيها فالله المستعان فسلم العراقي عليه وخرج من المدينة بعد أن ودعها مولاها وتباكيا فقال لها العراقي لما خرج بهـا: يـا عمـارة إنـى لم أشـترك لنفسي ومثلي لا يشتري مثلك بعشرة آلاف دينار وما كنـت أقـدم عـلى ابـن عـم الرسول ﷺ فأسلبه أحب الناس إليه لنفسي فاستتري ولا تريني شيئا من وجهك ثم مضى بها حتى ورد دمشق فتلقى الناس يحملون جنازة يزيد بـن معاويـة وقد استخلف ابنه معاوية فأقام الرجل يتلطف في الدخول عليه حتى أذن لـه فلما مثل بين يدي معاوية بن يزيد شرح لـه القصة فقال لـه معاوية: هي لك وكل مـا معها وارحل من يومك ولا تقم في شيء في الشام فرحل العراقي حتى قدم المدينة فنزل على عبد الله بن جعفر فدخل عليه بعض غلمانه فقال: هذا ضيفك العراقي وقد

أنـزل بـبابك فقـال: لا أهلا ثم أنزلوه فلما نزل استأذن عليه فأذن لـه فلما دخل سلم وقـبل يديه فقربه عبد الله ورحب به فقص عليه العراقي القصة من أولها إلى آخرها ثم قـال: إنها هدية مني إليك والله ما رأيت لها وجها ولا وضعت عليها يدا ثم بعث إليها فجاءت بما معها فـلما رأت مولاهـا وسيدها عبد الله ابن جعفر خرت على رجليه فـأهوى إلـيها عـبد الله وضمها إلى صدره فصاح أهل الدار: عمارة عمارة فجعل عبد الله يقـول ودموعـه تسـيل: ويحكـم أحلم هذا أم يقظة ؛ اللهم تعلم أني تصبرت على فـراقها وآثـرت الوفـاء وسـلمت لأمرك فرددتها عليَّ بمنك فلك الحمد الكثير ، وأقام العراقي عنده أياما ثم باع عبد الله ضيعة لـه بثلاثة آلاف دينار ودفعها إليه بعد أن دفع لـه ثمـن الجاريـة ثم اعتذر إليه وأعلمه أنه لو وصله بكل ما يملك ما بلغ مكافأته ثم رحل العراقي إلى بلده مشكورا موفورا اهـ.

ومن المنقول عن عبد الملك بن مروان

قـال مـالك بن أبي عمارة:كنت زمانا أجالس عبد الملك بن مروان وقبيصة بن مـالك وعـروة بن الزبير في ظل الكعبة أيام الموسم وكانوا يتحدثون مرة في الفقه ومرة في أيـام العـرب وأخـبارها ومـرة في أنسـابها وأشعارها فكنت لا أجد عند أحد منهم ما أجد عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في كل فن والحلاوة إذا تحـدث وحسـن الاسـتماع إذا حـدث ، فـتفرق أصحابنا ذات يوم وبقيت أنا وهو فقلـت: والله إنـي لمسـرور لمـا أراه مـن حسـن حديثك وافتنانك وتصرفك في العلوم وإقـبالك عـلى جليسـك بـالعلوم فقـال لـي: إن تعش قليلا فسترى العيون إليَّ طامحة والأكـف إلى ممتدة فإذا كان كذلك فلا عليك أن تعمد إليَّ بركابك فلما أفضت الخلافة إليه أتيته فكان أول ما وقعت عيناه عليَّ وهو عند الناس فعبس في وجهي فقلت: كأنه لم يعـرفني أو عرفني فأظهر لي إنكارا فلم أبرح حتى قضى مجلسه ودخل إلى قصره فلم ألبث أن خرج إليَّ حاجبه وقال: أين مالك بن أبي عمارة؟ فقلت: وما تريد منه؟ قال: طلـبك أمـير المؤمـنين فلما دخلت عليه مد يده إليَّ فقبلها فقال: تراءيت لي في موضع لم يجز فيه إلا ما رأيت من الإعراض والانقباض ، فالآن مرحبا بك وأهلا فكيف كنت

بعدى وكيف مصيرك؟ فقلت: كما يحب أمير المؤمنين فقال: أتذكر ما قلت لك؟ قلت: أجل وهو الذي أنهضني إليك قال: والله ما هو ميراث ورثناه ولكنى حدثتك عن نفسي بشيء تنموت به إلى موضعي هذا بأني ما جادلت ذا وُدّ ولا قرابة قط ولا شَمَتُّ بمصيبة عدو قط ولا أعرضت عن محدث حتى يشتهى هو ولا قصدت لكبيرة من محارم الله تعالى لذاتها وكنت من عبد مناف في بيتها ومن بيتها في وسط القلادة وكنت أرجو أن يرفعني الله بهذه الأحوال ثم قد فعل فله الحمد ثم قال: يا غلام أنزله منزلا من منازلي فأخذ الغلام بيدي وأفضى بي إلى أرحب منزل وأوطأ رحل وأخفض عيش وأحسن حال بحيث يسمع كلامي وأسمع كلامه فإذا حضر غداؤه وقعد عليه مع بطانته جاء رسوله فقال لي: إن أمير المؤمنين جالس في بطانته فإذا شئت فانهض إليه بلا رداء فإذا رآني رفع منزلي وأقبل عليَّ يحدثني ويسألني عن الحجاز وعن العراق فلم أزل كذلك حتى مضى له عشرين يوما فتغديت في آخرها يوما عنده فلما أقام من مكان طعامه نهضت فقال: على رسلك أيها الرجل فجلست فقال: أي الأمرين أحب إليك المقام هنا ولك النصفة في المعاشرة أم الشخوص ولك الحب والكرامة؟ فقلت: جئت من عند أهلي على أنى زائر أمير المؤمنين وعائد إليهم فإن أمرني أمير المؤمنين بالمقام اخترت فناءه على الأهل والولد قال: لا بل أرى لك الرجوع إلى أهلك فإنهم يتطلعون إلى قدومك فتجدد بهم عهدا ويجددون بك مثله والخيار في زيارتنا والمقام معهم إليك وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار وكسوناك وحملناك أترى أنى ملأت يديك يا أبا فهر؟ فضحكت وقلت: أراك يا أمير المؤمنين تذكر ما كنت وعدت به قال: أجل ولا خير فيمن لا يذكر إذا وعد ولا يفي إذا عهد فودع إذا شئت صحبتك السلامة وزودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك حيث ما توجهت فودعته وانصرفت بما أمر لي وكان آخر العهد به .

ومن المنقول عن الوليد بن عبد الملك

قال أبو الفرج الأصبهانى في الأغاني: أخبرني على بن سليمان الأخفش في كتاب المتعالين قال: حدثنا أبو سعيد السكرى قال: حدثنا محمد بن حبيب عن ابن الكلبي

قال: عشقت أم البنين وضاحا فكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها فإذا خافت وارته في صندوق عندها وأقفلت عليه فأهدى للوليد جوهر له قيمة فأعجبه واستحسنه فدعا خادما له فبعث طعمة به إلى أم البنين وقال: قل لها: إن الجوهر أعجبني فآثرتك به فدخل الخادم عليها مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى فأدى إليها رسالة الوليد ودفع إليها الجوهر ثم قال لها: يا مولاتى هبي لي منه حجرا فقالت: لا يا بن اللخناء ولا كرامة فرجع إلى الوليد فأخبره فقال: كذبت يا ابن اللخناء وأمر به فوجئت عنقه ثم لبس نعليه ودخل على أم البنين وهى جالسة في ذلك البيت تمتشط وقد وصف له الخادم الصندوق الذي أدخلته فيه فجاء فجلس عليه ثم قال لها: يا أم البنين ما أحب إليك هذا البيت من بين بيوتك كلها فلم تختارينه؟ فقالت: أجلس فيه واختاره لأنه يجمع حوائجي كلها فأتناولها منه كما أريد من قرب فقال لها: هبى لي صندوقا من هذه الصناديق قالت: كلها لك يا أمير المؤمنين قال: ما أريدها كلها إنما أريد منها واحدا قالت: خذ أيما شئت قال: هذا الذي جلست عليه قالت: خذ غيره فإن لي فيه أشياء أحتاج لها قال: ما أريد غيره قالت: خذه يا أمير المؤمنين فدعا بالخدم وأمرهم يحملوه فحملوه حتى انتهى به إلى مجلسه فوضعه فيه ثم دعا عبيدا له عجما فأمرهم بحفر بئر في المجلس عميقة فنحى البساط وحفرت إلى الماء ثم دعا بالصندوق فوضعه إلى شفير البئر ودنا منه وقال: يا صاحب الصندوق إنه بلغنا شيء إن كان حقا فقد كفيناك ودفناك ودفنا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر وإن كان باطلا فإنما دفنا الخشب وما أهون ذلك ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض ورد البساط إلى حاله وجلس الوليد عليه ثم ما رأى بعد ذلك اليوم لوضاح أثر في الدنيا إلى هذا اليوم قال: وما رأت أم البنين لذلك أثرا في وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما انتهى .

ومن المنقول عن سليمان بن عبد الملك

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك خرج ذات يوم للصيد وكان كثير التطير فبينما هو في بعض الطريق إذ لقيه رجل أعور فقال: أوثقوه ومر مروان على بئر خربة فقال:

ألقـوه في هـذا البـئر فإن صدنا يومنا هذا أطلقناه وإلا قتلناه لتعرضه لنا مع ما قد علم مـن شـدة تطيرنـا فـألقوه في ذلك البئر فما رأى سليمان في عمره أكثر صيدا من ذلك الـيوم فـلما رجعـوا ومـروا عـلى الشـيخ أمـر بإخـراجه فلما وقف بين يديه قال لـه: يـا شـيخ مـا رأيـنا أسر ولا أبر من طلعتك عليَّ فقال: وأنا ما رأيت شرا من طلعتك على فضحك سليمان وأمر بإطلاقه وأحسن إليه . اهـ .

ومن المنقول عن هشام بن عبد الملك

قــيل: بيـنما هشام بن عبد الملك ذات يوم في منتزه إذ نظر إلى صبي تبعه الكلاب وأحالته الكلاب إلى صبي أعرابي يرعى غنما لـه فقال لـه هشام: يا أعرابى دونك هذا الصـبي فأتنى به قال: فرفع الأعرابى طرفه إليه وقال لـه: يا جاهلا بقدر الأخبار ، لقد نظـرت إلى باستصـغار ، وكلمتـنى باحتقار ، فكلامك كلام جبار ، وفعلك فعل حمار ، فقـال لــه هشـام: ويحك ما تعرفني؟ قال: قد عرفني بك سوء أدبك إذ بدأتني بكلامك قـبل سـلامك فقـال: ويلك أنا هشام بن عبد الملك فقال الأعرابي: لا قرب الله دارك ولا حـيا مزارك ما أكثر كلامك وأقل إكرامك قال: فما استتم كلامه حتى أحدقت به الخـيل والجـيوش مـن كـل جانـب كل منهم يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين قال هشـام: أقصـروا عـن السـلام واحتفظوا بالغلام فقبضوا عليه ورجع هشام إلى قصره وجلـس في مجلسـه فقـال: عـليَّ بـالغلام الأعـرابي فـأتى بـه فـلما رأى كثرة الغلمان والحجـاب والـوزراء والكـتاب وأبـناء الدولـة لم يكترث الغلام منهم ولم يسأل عنهم وحـين أقـبل الغلام أولا جعل ذقنه في صدره لينظر حيث يقع قدماه إلى أن وصل إلى هشام فوقف بين يديه ونكس رأسه إلى الأرض وسكت عن الكلام فقال بعض الخدم: يـا كلـب العـرب مـا مـنعك أن لا تسلم على أمير المؤمنين فالتفت إليه الصبي مغضبا وقـال: يـا بـردعة الحمار منعني من ذلك طول الطريق ، ونهر الدرجة والتعويق ، فقال لـه هشام: وقد تزايد ما به من الغضب يا صبي لقد حضرت في يوم حضر فيه أجلك ، وخـاب فيه أملك ، وانصرم فيه عمرك ، وضاق فيه أمرك ، فقال الصبي: والله يا هشام لـئن كـان في المـدة تأخير ولم يكن في الأجل تقصير لا ضرني من كلامك لا قليل ولا

كثير، فقال الحاجب: بلغ من فعلك يا أخس العرب أن تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة فقال له مسرعا: بفيك الجندل، ولا ملك الويل والهبل، أما سمعت ما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ فمن هو هشام حتى لا يخاطب خطابا؟ قال: فعند ذلك قام هشام واغتاظ عليه وقال: يا سياف عليَّ برأس هذا الغلام، فقد أكثر من الكلام، فيما لا يخطر على الأوهام، قال: فأخذ الصبي، ونزل به في نطع الدم وسل سيف النقمة على رأسه وقال السياف: يا أمير المؤمنين عبدك المذل بنفسه المتقلب في رمسه أضرب عنقه وأنا بريء من دمه قال: نعم فاستأذن ثانية فأذن له ثم استأذنه ثالثة فهمَّ أن يأذن له فضحك الغلام حتى بدت نواجذه فازداد تعجبا هشام منه وقال: يا صبي أظنك معتوها أترى أنك مفارق الدنيا ومزايل الحياة وأنت تضحك هزؤا بنفسك فقال: يا أمير المؤمنين أبيات شعر حضرت الساعة فاسمعها وقتلى لا يفوت فقال هات وأوجز فهذا أول أوقاتك من الآخرة وآخره من الدنيا فأنشأ يقول:

أنبئت أن الباز علق مرة ::: عصفور بر ساقه المقدور
فتكلم العصفور في أظفاره ::: والباز منهمك عليه يطير
ما فيَّ ما يغني لمثلك شبعة ::: ولئن أكلت فإنني لحقير
فتكلم الباز المدل بنفسه ::: عجبا وأفلت ذلك العصفور

فتبسم هشام وقال: وقرابتي من رسول الله ﷺ لو تلفظ الغلام بهذا اللفظ في أول وقت من أوقاته وطلب ما دون الخلافة لأعطيته: يا خادم احش فاه درا وجواهرا وأحسن جائزته ومضى إلى حال سبيله.

ومن المنقول عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك

قال حماد الراوية: كنت منقطعا في جنب هشام بن عبد الملك فلما توفى وولى بعده الوليد بن يزيد خفته على نفسي فخرجت من الشام إلى العراق فأقمت مستخفيا عند أهلي فلما كان ذات يوم وأنا قاعد في المسجد إذ أحاط بي الغلمان من كل جانب وقالوا: أجب الأمير يوسف بن عمرو الثقفي فخرجت معهم وما أملك نفسي حتى

دخلت عليه فسلمت فرد السلام عليَّ ثم قال: سكن جأشك أيها الرجل ثم أوقفني على كتاب فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله الوليد بن يزيد أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمرو الثقفي أما بعد فإذا وقفت على كتابي هذا فانفذ إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مذعور ولا مفزع وادفع إليه خمسمائة دينار يخلفها لعياله واحمله على طوالع الإبل لتوافيني به دمشق قال حماد الراوية: فسرت إلى دمشق ودخلت عليه وهو في مجلس ناهيك به مجلسا قد فرش بالديباج والحرير وعليه ثوبان ممسكان من زعفران وفروة قد رجلها مضمخة بالمسك وعلى رأسه جاريتان لم ير أحسن منهما صورة ولا أحسن من ظرفيهما على إحداهما قباء ديباج أبيض وعلى الأخرى قباء ديباج أحمر مفصل بدر أبيض وبيدها كأس أبيض فيه شراب أحمر فقال: يا حماد هل علمت لماذا أرسلت إليك؟ قلت: الله أعلم وأمير المؤمنين قال: هو بيت: ثم نادوه للصبوح فقامت فقلت: يا أمير المؤمنين هذا من قصيدة لعدى بن يزيد العبادى بكر العاذلون في وضح الليل، فقال: أتعرفها؟ فقلت: نعم قال: أسمعنيها فأنشدت القصيدة المذكورة:

بكر العاذلون في وضح الليل ::: يقولون لي ألا تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبد ::: الله والقلب عندكم موثوق
لست أدرى إذا كثر العذل فيها ::: أعدو يلومني أم صديق
زانها وافر الغدائر جثي ::: وأثيث سلت الجبين أنيق
وثنايا مفلجات حسان ::: لا قصار جدا ولا هن روق
باكرتهن قرقف كدم الزق ::: تزيين الغداة كميت رحيق
زانها التاجر اليهودي حولين ::: وأذكى من ريحها التعبيق
ثم فض الختام من جانب الدن ::: وحانت من اليهودي سوق
فاستباها منه أشم كريم ::: أريحي غذاه عيش رقيق
ثم نادوه للصبوح فقامت ::: ذات حسن وجيدها أفريق
قد دعته على عقار كعين الديك ::: صفين سلافها الراووق
ثم كان المزاج ماء سحاب ::: صفقته من الشمال صفوق

ثم قال الوليد: أحسنت والله يا حماد هل لك في شرابنا؟ قلت: إن شاء أمير المؤمنين ثم قال: يا جارية أسقيه فسقتنى كأسا أحسست بذهاب ثلث عقلي ثم قال: يا حماد أعد الشعر فأعدته ثم قال: هل لك في الازدياد؟ قلت: إن شاء أمير المؤمنين ثم قال: يا جارية اسقيه فأسقتنى كأسا أحسست بذهاب ثلث عقلى ثم قال: يا حماد أعد الشعر فأعدته ثم قال: هل لك في الازدياد؟ قلت: يا أمير المؤمنين قد ذهب ثلثا عقلي قال: فاسأل حاجتك قبل شرابك الثالث قلت: وما أتعاظم؟ قال: لا تتعاظم قلت: إحدى الجاريتين قال: فضحك حتى استلقى على قفاه ثم قال: هما لك وما عليهما من الحلي والحلل بارك الله لك فيهما ثم سقتني الثالث فما علمت أين وقعت من الأرض حتى انتبهت من الغداة وإذا أنا بدار غير الدار التي كنت فيها وإذا الجاريتين عندي وعشرة آلاف درهم لقضاء حوائجي فأقمت أغدو إليه وأروح شهرا وأنا في خلال ذلك أحادثه بأحاديث الملوك وأخبار العرب في الإسلام والجاهلية فلما أردت الانصراف استأذنت فأذن لي وأمر لي بجائزة حسنة وكسوة فاخرة فكان الذي وصل إليَّ مائة ألف درهم فلما جئت لوداعه قال: يا حماد أكرم الجاريتين فإني آثرتك بهما على نفسي وكان آخر العهد به . . . . قيل: كان حماد من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ثم إن الوليد بن يزيد قال لحماد في أثناء مقامه عنده: بما استحقيت هذا اللقب فقيل لك حماد الراوية ؛ قال: لأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ثم أنى أروى لأكثرهم ممن أعرف أنك لا تعرفه ولم تسمع به ولا ينشدنى أحد شعرا قديما ولا محدثا إلا ميزت بين القديم والمحدث قال: فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: لا أعلم ولكن أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام قال: سأمتحنك في هذا وأمره بالإنشاد فأنشد حتى ضجر الوليد ثم وكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة وأخبر الوليد بذلك فأجازه إجازة سنية وأخباره ونوادره كثيرة .

ومن المنقول عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

حكـــى عن يونس الكاتب قال: خرجت من الشام في خلافة هشام بن عبد الملك ومعي جاريتي عاتكة وكنت قد علمتها وهذبتها وأنا أريد فيها ما أستغنى به فلما قربنا من دمشق نزلت القافلة على غدير ماء ونزلت ناحية منها فأصبت من طعام كان معي وأخرجت ركـوة مـن فاضل نبيذ كان معي فشربت منها فبينما أنا في تلك الحال وإذا فـتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقر ومعه خادمان وعليه ثياب وستر مذهبة فما أدرى أوجهـه أحسـن أو ثـيابه أو دابـته فسلم عليَّ وقال: تقبل ضيفا فقمت وأخذت بـركابه وأنزلـته وعلمـت أنـه مـن أهـل بيت الخلافة ودخلتني منه هيبة وإجلالا قال: فاسقنا من شرابك فسقيته فقال: إن سهل عليك أن تغنين أصواتا فغنيته شعرا:

ليـــت شـــعري أول الهـــرج هـــذا ::: أو زمـــان مـــن فتـــية غـــير هـــرج

فطرب ثم استعاده ثم قال: قل لجاريتك تغنى لنا صوتا فأمرها فغنت:

أفــاطم إن الــبعد يشــفى ذوى النهى ::: وإن بعـــادي زادني بكـــم وجـــدا

فطـرب وشـرب حـتى اسـتعاده مرارا حتى صليت العشاء الأخيرة فقال لي: من أقدمـك علينـا هـذه اللـيلة بهـذا البلد؟ قلت: أردت بيع جاريتى هذه قال: بكم وكم قدرت فيها من الثمن؟ قلت: ما أقضى به دينى وأصلح به حالى قال: أفيقنعك ثلاثون ألفـا؟ قلـت: مـا أحوجني إلى فضل الله والمزيد منه قال: أربعون ألفا قلت: فيها قضاء ديـني وأبقـى مجـردا قـال: قـد أخذتهـا بخمسين ألف درهم ولك جائزة وكسوة ونفقة طـريقك فقلت: قد بعتكها قال: أفتثق بي أن أحمل ذلك إليك غدا وأحمل الجارية معي أوتكـون عـندك فحملـني السكر وهيبته والخشية منه على أن قلت: نعم قد وثقت بك خذهـا بـارك الله لـك فـيها فقـال لأحـد خدمـته: احملها على دابتك وارتدف وراءها وركـب فرسـه وودعـني فمـا هو إلا أن غاب عنى حتى عرفت موضع غلطي وقلت: مـاذا صـنعت بنفسـي وجنيت عليها؟ أسلم جاريتي لرجل لا أعرفه ولا أدرى من هو ولا اسمـه ولا نسـبه ولا مـن أي الـبلاد هـو وهـبني عرفـته من أين لي أن أصل إليه وجلسـت مـتفكرا لـيلتي حـتى أصبحت وصليت وجلست موضعي ورحل أصحابي

ودخلوا دمشق وضربتني الشمس وشاورت نفسي بين المقام والدخول وقلت: إن دخلت لم آمن أن يجيء الرسول من عند الرجل يطلبني فلا يجدني ولا يعرف موضعي فأكون قد جنيت على نفسي جناية ثانية فأقمت وأنفذت رحلي مع بعض أهل المدينة وجلست في ظل جدار هناك فلما ضحى النهار وإذا أحد الخادمين اللذين كانا بالأمس مع الرجل قد أقبل إليَّ فما أذكر أنى سررت بشيء بقدر سروري بالنظر إليه فقال لي: يا سيدي أنا منذ الصباح أدور برفقتك لأجل طلبك فقبل أن أسأله عن شيء قلت: من صاحبي قال ولى العهد الوليد وهو يطلبك فسكنت نفسي وقال: قم فاركب فإذا معه دابة مجنبة فقمت وركبت فلما وصلنا إليه فإذا الجارية قد انفرد بها بحجرة وهى فيها فأدخلني إليها فلما رأتني قامت فسلمت فسلمت عليَّ فقلت: ما كان منك فقالت: دخل داره وأنزلت هاهنا وتفقدت بما أحتاج إليه فأنا كما ترى بثياب سفرى فجلست عندها وإذا الخادم قد أقبل فقال: قم فقمت وأدخلني إلى صاحبي بالأمس وهو جالس على سريره فسلمت عليه فقال: من تكون؟ قلت: يونس الكاتب فقال: مرحبا بك وقد كنت والله إليك مشتاقا وكنت أسمع بخبرك فكيف كان مبيتك في ليلتك فقلت: بخير أعز الله الأمير قال: فما ندمت على ما كان منك البارحة؟ وقلت: دفعت جاريتي إلى رجل لا أعرفه فقلت: أيها الأمير معاذ الله أن أندم على ذلك وهب أنى أهديتها إلى الأمير فما قدر هذه الجارية فقال: لكنى ندمت على أخذها منك وقلت: رجل غريب لا يعرفني وقد طرقته الليلة وغممته وسفهت رأيي في استعجالي في أخذها فتذكر ما كان بيننا قلت: نعم قد بعتها بخمسين ألف درهم قال: نعم هات يا غلام المال فجاء به الغلمان يحملونه ووضعوه بين يديه قال: هات يا غلام ألف دينار مفردة فجاء بها في كيس فوضعه وقال: هات خمسمائة دينار أخرى فجاء بها فوضعها أيضا ثم قال: هذا ثمن جاريتك ضمه إليك وهذه ألف دينار لحسن ظنك بنا وهذه خمسمائة دينار لنفقة طريقك وما تبتاعه لأهلك أرضيت؟ فقبلت يده ورجله وقلت: والله لقد ملأت عيني ثم قال: يا غلام قدم إليه دابة بسرجها ولجامها لركوبه وبغلا لنقله ثم قال: إذا بلغك أن هذا الأمر أفضى إليَّ من ربى فوالله لأملأن يديك ولأغنينك ما حييت

فخرجت من عنده وتوجهت إلى بلدي فلما أفضت الخلافة إليه سرت إليه فوفى لي بوعده وزاد وكنت معه في أسر حال وأسنى منزلة وقد اتسعت أحوالي من الأموال والضياع ما أعيش فيه من الآن ومن هو بعدى ولم أزل معه حتى قتل .

ومن المنقول عن الحجاج بن يوسف

ذكروا أنه كان جالسا في قبته الخضراء وعنده وجوه أهل العراق إذ أتى بصبي من الخوارج في عمره عشر سنين له ذؤابة طويلة تبلغ إلى خصره فدخل ولم يسلم بل نظر إلى القبة يمينا وشمالا وقال: ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** ﴾ [الشعراء: ١٢٨: ١٣٠] وكان الحجاج متكئا فاستوى جالسا وقال: يا غلام إني لأرى لك عقلا وذهنا أفحفظت القرآن؟ قال: أو خفت على القرآن الضياع حتى أحفظه؟ قال: أفجمعته؟ قال: أو كان مفرقا حتى أجمعه؟ قال: فأحكمت القرآن؟ قال: أوليس الله أنزله محكما؟ قال: أفاستظهرت القرآن؟ قال: معاذ الله أن أجعل القرآن من وراء ظهري فقال له: ويحك ماذا أقول؟ قال: الويل لك قل: أوعيت القرآن في صدرك؟ قال الحجاج: فاقرأ شيئا من القرآن فاستفتح الغلام أعوذ بالله منك ومن الشيطان الرجيم: ﴿ **إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يخرجون فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا** ﴾ قال الحجاج: ويلك إنهم يدخلون قال الغلام: كانوا وأما اليوم فقد صاروا يخرجون قال: ولم؟ ويلك ، قال: لسوء فعلك بهم قال: ويلك هل عرفت المخاطب لك؟ قال: نعم شيطان ثقيف فقال له: ويلك فمن أبوك؟ قال: الذي ولدنى قال: فمن أمك؟ قال: التي ولدتني قال: وأين ولدت؟ قال: في بعض الفلوات قال: وأين نشأت؟ قال: في بعض البراري قال: ويلك أمجنون أنت فأعالجك؟ قال: لو كنت مجنونا لما وصلت إليك ووقفت بين يديك لأني ممن يرجو فضلك أو يخاف عقابك قال: فما تقول في أمير المؤمنين؟ قال: رحم الله أبا الحسن قال: إنما أعنى عبد الملك بن مروان قال: على الفاسق الفاجر لعنه الله قال: ويلك بم استحق اللعنة؟ قال: أما والله ما أنكر حقه غير أنه أخطأ خطيئة ملأت السماوات والأرض قال: وما هي؟ قال: باستعماله إياك على رعيته تستبيح أموالهم وتستحل

دمـاءهم فالتفـت الحجـاج إلى أصـحابه وقـال: مـا تشيرون في أمر هذا الغلام؟ قالوا: اسفك دمه فقد خلع الطاعة وفارق الجماعة فقال الغلام: يا حجاج جلساء أخيك خير من جلسائك قال: أخي محمد بن يوسف؟ قال: على الفاسق الفاجر لعنه الله إنما أعنى أخاك فرعون قال لجلسائه: ماذا تأمرون في موسى؟ قالوا: أرجه وأخاه وهؤلاء أمروك بقتلى إذا والله تقوم عليك الحجة غدا بين يدي الله ملك الجبارين ومذل المتكبرين قال الحجـاج: يـا غـلام قـيد ألفاظك واقصر كلامك فإني أخاف عليك بادرة الأمراء وقد أمـرت لـك بأربعـة آلاف درهـم تسـتعين بها فقال الغلام: لا حاجة لي في هذا المبلغ بـيض الله وجهـك وأعلى كعبك فالتفت إلى أصحابه وقال: قد علمتم ما أراد بقولـه: بـيض الله وجهـك وأعلى كعبك أراد التعليق والصلب ثم التفت إلى الغلام فقال: ما تقول فيما قلته؟ قال: قاتلك الله من منافق ما أفهمك فقال الحجاج: يا حرسي اضرب عنقه فقال رجل من القوم يقال لـه الرقاشي: هبه لي أصلح الله الأمير قال: هو لك لا بـارك الله لـك فـيه فقـال الغـلام: لا أدرى أيكمـا أحمـق الواهـب أجـلا قد حضر أم المسـتوهب أجـلا لم يحضـر قال الرقاشي: استنقذتك من القتل وتكافئني بهذا الكلام؟ فقـال الغـلام: هنيـئا للشـهادة إن أدركتـنى السـعادة يـا عجـباً جئت من بلاد الضنك والضـيق وأرجـع إلى أهلي صفرا بلا شيء القتل أحب إليَّ قال الحجاج: قد أمرنا لك بمائـة ألـف درهـم وقـد عفونـا عنك لحداثة سنك وصفاء ذهنك وإياك والجراءة على أرباب الأمر فتقع مع من لا يعفو عنك فقال الغلام: العفو بيد الله لا بيدك والشكر لله لا لـك لا جمـع الله بيني وبينك أو يلتقي السامرى وموسى ثم خرج فابتدر الخدم على أثـره فقـال: دعـوه فما رأيت أشجع منه قلبا ولا أفصح منه لسانا فلا والله ما وجدت مثله وعسى أن لا يجد مثلى قط انتهى والله أعلم .

* * * * *

الباب السادس

في الخلفاء العباسيين

وكانت مدة خلافتهم بالعراق ومصر سبعمائة سنة وخمس وأربعين سنة بعد خلافة الأمويين وكان الخلفاء منهم بالعراق سبعة وثلاثون أولهم (أبو العباس السفاح) وآخرهم (محمد المعتصم بن المنتصر) .

فأما (أبوالعباس السفاح) فهو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو أول من أقام دولة بنى العباس بويع له رابع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة وبقى في الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر وتوفى في المحرم وولى بعده أخوه (أبوجعفر المنصور) مكث في الخلافة اثنتين وعشرين سنة وهو الذي بنى بغداد وكان مولده بالجهمية بأرض البلقاء وولى بعده ابنه (محمد المهدى) مكث في الخلافة عشر سنين وشهراً ويوما وتوفى عن اثنتين وأربعين سنة ونصف سنة ، وولى بعده ابنه (موسى الهادي) مكث في الخلافة سنة وشهرا وتوفى عن أربع وعشرين سنة وولى بعده (هارون الرشيد) مكث في الخلافة ثلاثا وعشرين سنة وتسعة عشر يوما وتوفى عن خمس وأربعين سنة وكان مولده بالرَىّ وولى بعده ابنه (محمد الأمين) مكث في الخلافة أربع سنين وسبعة أشهر ومات قتيلا عن تسع وعشرين سنة وكان مولده برصافة بغداد وولى بعده أخوه (عبد الله المأمون) مكث في الخلافة ستا وعشرين سنة وخمسة أشهر وتوفى بأرض الروم عن ثمان وأربعين سنة وكان مولده في ليلة استخلف الرشيد وولى بعده أخوه (محمد المعتصم) مكث في الخلافة ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ومات عن ثمانية وأربعين سنة ، وولى بعده ابنه (هارون الواثق) مكث في الخلافة خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام وولى بعده أخوه (جعفر المتوكل) مكث في الخلافة أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام وقتله ولده (محمد المنتصر بالله) مكث في الخلافة بعده ستة أشهر وقتل وولى بعده عمه (أحمد المستعين بالله) ابن المعتصم مكث في الخلافة ثلاث سنين وثمانية أشهر وثمانية

وعشرين يوما ومات مقتولا وله من العمر إحدى وثلاثون سنة وولى بعده ابن أخيه (محمد المعتز بالله) ابن المتوكل مكث في الخلافة ثلاث سنين وستة أشهر وواحد وعشرين يوما وولى بعده (محمد المهتدى بالله) بن الواثق مكث في الخلافة سنة كاملة وولى بعده (أحمد المعتمد على الله) بن المتوكل مكث في الخلافة اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما وولى بعده (أحمد بن طلحة المعتضد بالله) أبوالعباس بن ولى العهد ابن أحمد الموفق بالله بن المتوكل مكث في الخلافة تسع سنين وتسعة أشهر وأياما وولى بعده أخوه (على المكتفى بالله) بن المعتضد ومكث في الخلافة تسع سنوات وولى بعده أخوه (جعفر المقتدر بالله) أبو الفضل بن المنتصر مكث في الخلافة أربعا وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام وبقيت الخلافة فيهم واحدا بعد واحد إلى أن تولى المعتصم بن المنتصر فأقام سبع عشرة سنة وبقتله خربت بغداد وانقضت الخلافة وكان ذلك بدخول التتار واستيلائهم عليها .

(وأما باقي العباسيين) الذين استخلفوا بمصر فثلاثة عشر رجلا الأول (الحاكم ابن أحمد) الأمير حسين الراشد العباسي حضر إلى مصر وأثبت نسبه وولى الخلافة بها وذلك بعد وصول المستنصر الثانى إلى القاهرة ومبايعة الناس له بالخلافة وسفره وصحبه الملك الظاهر إلى الشام ومفارقته له لتوجهه إلى العراق لحرب التتار فقتله التتار واستقل الأمر بمصر للحاكم (أحمد) أربعين سنة وولى بعده ابنه (المستكفى) وبعده ابنه (الحاكم) الثاني أحمد وبعده أخوه (المعتضد) وبعده ابنه (المتوكل) وخلع وولى (المعتصم) عمرو بن الواثق بن المستمسك بن الحاكم أحمد وولى بعده (المعتصم) زكريا بن الواثق وخلع ثم عاد المتوكل بن المعتضد ثانيا وأقام سبع عشرة سنة وخلف عشرة أولاد ذكور تولى بعده منهم خمسة وكان خامسهم المستنجد بالله أبو المحاسن يوسف آخر دولة العباسيين بمصر .

فمن المنقول عن أبى العباس السفاح

ما رواه ابن الجوزي في كتاب الأذكياء عن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: أول خطبة خطبها أمير المؤمنين السفاح في قرية يقال لها: العباسية فلما صار إلى موضع

الشهادة من الخطبة قام رجل من آل بنى طالب في عنقه مصحف فقال: أذكرك الله الذي ذكرته ألا أنصفتني من خصمي وحكمت بيني وبينه بما في هذا المصحف فقال له: ومن ظالمك؟ قال: أبو بكر الذي منع فاطمة فدكا قال: وهل كان بعده أمير؟ قال: نعم قال: من؟ قال: عمر قال: أفأقام على ظلمك؟ قال: نعم قال: وهل كان بعده؟ أحد قال: نعم قال: من؟ قال: عثمان قال: وأقام على ظلمك؟ قال: نعم قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: فسكت الرجل وجعل يلتفت إلى ورائه يطلب مخلصا فقال له: والله الذي لا إله إلا هو لولا أنه أول مقام قمته ثم لم أكن تقدمت إليك في هذا قبل لأخذت الذي فيه عيناك اقعد وأقبل على الخطبة .

ومن المنقول عن أبى جعفر المنصور

قيل: دخل ابن هرمة على أبى جعفر فأنشده فقال: سل حاجتك فقال: تكتب إلى عاملك بالمدينة متى وجدني سكرانا لا يحدني فقال: هذا حد ولا سبيل إلى إبطاله قال: ما لي حاجة غير ذلك قال: أكتب إلى عاملنا بالمدينة من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده ثمانين واجلد الذي جاء به مائة قال: وكان الشرطة يمرون به وهو سكران فيقولون: من يشترى ثمانين بمائة فيمرون ويتركونه .

ومن المنقول عنه أيضا

قال يعقوب بن جعفر: مما يعرف ويؤثر من ذكاء المنصور أنه دخل المدينة فقال للربيع: اطلب لي رجلا يعرفني دور الناس فإني أحب أن أعرف ذلك فجاءه رجل يعرفه إلا أنه لا يبتديه حتى يسأله المنصور فلما فارقه أمر له بألف درهم فطالب به الرجل الربيع فقال ما قال لي: فأنا أهب لك ألفا من عندي وسيركب فذكره فركب معه وجعل يعرفه الدور ولا يرى موضعا للكلام فلما أراد المنصور أن يفارقه فقال له الرجل مبتدئا: وهذه يا أمير المؤمنين دار عاتكة التي يقول فيها الأحوص:

يا دار عاتكة التي أتغزل ::: حذر العدى وبه الفؤاد موكل

فأنكر المنصور ابتداءه بهذا فأمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعـــل مـــا تقـــول وبعضـــهم ::: مـــذق اللســـان يقـــول مـــا لا يفعل

فعـلم أنـه أراد الاقتضـاء فضـحك وقال: يا ربيع أعطه الألف درهم التى وعدته وألف أخرى .

ومن المنقول عنه أيضا

روى عـن المنصـور أنـه جلس في إحدى قباب مدينته فرأى رجلا ملهوفا مهموما يجـوز في الطرقات فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة فأفـاد مالا وأنه رجع بالمال إلى منزلـه فدفعه إلى أهله فذكرت امرأته أن المال سرق من بيـتها ولم يـر نقبا ولا تسـلقا فقـال لـه المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة قال أفبكرا تزوجتها؟ قال: لا قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا قال: فشابة هي أم مسنة؟ قال: بل حدثة فدعي لـه المنصور بقارورة فيها طيب كان يتخذ لـه حاد الرائحة غريب الـنوع فدفعهـا إلـيه وقال: تطيب من هذا الطيب فإنه يذهب همك فلما خرج الرجل مـن عند المنصور قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم فمن مر به رجل منكم فشم منه رائحة هذا الطيب وأشمهم منه فليأتني به وخـرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين فلما شمته به بعثت إلى رجـل كانـت تحـبه وقـد كانـت دفعت المال إليه فقالت لـه: تطيب من هذا الطيـب فـإن أمـير المؤمـنين وهبه لزوجي فتطيب منه الرجل ومر مجتازا ببعض أبواب المديـنة نشم الموكل بالباب رائحة الطيب منه فأخذه فأتى به إليه فقال لـه المنصور: من أيـن اسـتفدت هـذا الطيب ، فإن رائحته غريبة معجبة؟ قال: اشتريته قال: أخبرنا ممن اشـتريته فلجـلج الرجل واختلط كلامه فدعا المنصور صاحب شرطته وقال: خذ هذا الـرجل إلـيك فـإن أحضـر كـذا وكـذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء وإن امتنع فاضـربه ألـف سـوط من غير مؤامرة فلما خرجا من عنده دعا صاحب شرطته فقال: هـول علـيه وجـرده ولا تصـل إلى الضرب حتى تؤامرنى فخرج صاحب شرطته فلما جرده وسجنه أذعن برد الدنانير وأحضرها كهيئتها فأعلم المنصور بذلك فدعا صاحب

الدنانير فقال له: أرأيتك إن رددت عليك الدنانير بأعيانها أتحكمني في امرأتك؟ قال: نعم قال: فهذه دنانيرك وقد طلقت امرأتك عليك وخبره خبرها .

ومن المنقول عنه أيضا

ذكروا أن أبا جعفر المنصور ذكروا له أن أبا دلامة لا يصلى في مسجد قط وإنما همته الشرب والخمر قال: فبعث إليه رسولا يقول: يا عدو الله وعدو نفسه لئن بلغني أنك فاتتك صلاة من الصلوات الخمس لأوجعنك ضربا ثم حبسه في مسجد عند قصره قال: ففعل ذلك أياما يسيرة ثم مل العبادة وكتب إلى أبى جعفر المنصور بأبيات يقول فيها:

ألم تريا هذا الأمير يغمنى ::: بمسجده ما لى هديت وللقصر
يكلفنى الأولى جميعا وعصرها ::: فويل من الأولى وويل من العصر
ويحبسنى عن مجلس أستلذه ::: أعلل فيه بالسماع وبالخمر
وقد كان له فيها مجالس جمة ::: ولكنها وقر لدينا من الوقر
وما ضره والله يصلح شأنه ::: لو أن خطايا المسلمين على ظهرى

قال: فعفا عنه وخلى سبيله ثم إن أبا دلامة جاءت أمه تشكوه إلى أبى جعفر المنصور وقالت: والله يا سيدى قد أوحشنى وأفقرنى وإنما همته الخمر والشرب قال: فبعث إليه خادما يأتيه به فلما جاءه امتنع من المسير مع كونه سكرانا فجذبه الخادم فخرق عليه ساجا كان عليه ثم مضى به مكرها حتى أوقفه بين يدى المنصور فخاطبه فإذا هو سكران لا يعقل فأمر بسجنه في بيت الدجاج فلما أصبح وأفاق سمع ديكا يصيح فوق رأسه ودجاجات يصدحن عنده فقال للسجان: ويحك أين ترانى؟ فقال: أمير المؤمنين أمر بسجنك في هذا المكان فقال له: احتل لي في دواة وقرطاس فأتاه بذلك فكتب إلى المنصور هذه الأبيات:

أمن صهباء صافية المزاج ::: كأن شعاعها لهب السراج
تهش لها النفوس وتشتهيها ::: إذا برزت ترقرق في الزجاج
وقد طبخت بنار الله حتى ::: لقد أضحت من النطف النضاج
أمير المؤمنين فدتك نفسى ::: علام حبستني وخرقت ساجى

أقاد إلى السجون بغير جرم ::: كأني بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لكان خيرا ::: ولكني حبست مع الدجاج
دجاجات يطيف بهن ديك ::: ينادى بالصباح إذا أناجى
وقد كانت تخبرني ذنوبي ::: بأني من عقابك غير ناجى
على أني وإن لقيت سوء ::: لخيرك بعد ذاك الشر راجى

قال: فلما وقف عليها الخليفة أمر بإحضاره فلما مثل بين يديه قال له: أين بت الليلة يا أبا دلامة: قال: مع الدجاج قال: فماذا تصنع؟ قال: أتوفى بينهن فضحك منه وأطلقه وأمر له بصلة، ثم إن أمه أتت تشكوه مرة أخرى فأمر أبوجعفر المنصور بإحضاره فقال: أما ترعوى وتسمع كلام أمك يا أبا دلامة فقال: سليطة ردية كثيرة الأذى ولكن اسمع منى:

إن الخليط أجدوا البين فانصدعوا ::: يوم الوداع فما جاعوا وما رتعوا
والله يعلم أن كادت لبينهم ::: أم الدلام حصاة البين تنصدع
وقد عجبت لصبياني وأمهم ::: أم الدلامة تلحاني وهم هجعوا
تقول ابتع لنا نخلا ومزدرعا ::: كما لجيراننا نخل ومزدرع
لا والذي يا أمير المؤمنين قضى ::: لك الخلافة في أسبابها الرفع
ما زلت أكسبها مالا وتأكله ::: دوني ودون عيالى ثم تضطجع
ناشدتها بكتاب الله خالقنا ::: فلم تكن لكتاب الله ترتدع

قال: فضحك المنصور وأمر له بنقطة فيها نخل ومزدرع وكسا أمه وانصرفا شاكرين.

ومن المنقول عنه أيضا

روى عن الربيع أنه قال: ما رأيت رجلا أرجل ولا أربط جأشا من رجل رفع خبره إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية فأمرنى بإحضاره فأحضرته ودخلت به إليه فقال له المنصور: قد رفع إلينا أمر الودائع والأموال التى لبنى أمية فأخرج لنا منها فقال له: يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبنى أمية؟ قال: لا قال: أفوصى؟ قال: لا، قال: فما سؤالك عما في يدى؟ فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال: إن بنى أمية ظلموا المسلمين وأنا وكيل المسلمين في حقهم فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت مالهم، فقال: يا أمير المؤمنين تحتاج في ذلك إلى إقامة

البيـنة العادلة على أن الذي في يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسـلمين فـإن بـنى أمـية كان لهم أموال غير أموال المسلمين فأطرق المنصور ساعة ثم رفـع رأسـه إليَّ وقال: صدق الرجل يا ربيع ما وجب على الرجل عندنا شيء ثم بش في وجهـه وقـال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين حاجتى أن تنفذ كتابى عـلى البريد إلى أهلى ليسكنوا إلى سلامتى فقد راعهم إشخاصى وقد بقيت لي حاجة أخـرى يـا أمير المؤمنين قال: ما هى؟ قال: تجمع بينى وبين من سعى بى إليك والله ما لبنى أمية عندى ولا في يدى مال ولا وديعة ولكنى لما مثلت بين يديك وسألتنى رأيت مـا قلـته أسرع إلى الخلاص والنجاة فقال المنصور: يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعـت بينهما فقال: هذا غلامى ضرب على ثلاثة آلاف من مالى وأبق منى وكذب عـليَّ خوفا من الوقوع في يدى فقال: يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه وأبرأت ذمته مـن المـال وأعطيـته ثلاثـة آلاف أخـرى فقـال لـه المنصور: ما على ما فعلت مزيد في الكرم وانصرف وكان المنصور يتعجب منه ويقول: ما رأيت مثل هذا الرجل .

ومن المنقول عنه أيضا

روى المنصور أنه كان يدخل البصرة في أيام بنى أمية مستترا فجلس في حلقة أزهر السـمان المحـدث ، فـلما أفضـت الخلافة إليه قدم عليه أزهر السمان الكوفة فرحب به وقرب منزلـه وقال: ما الذي أقدمك علينا؟ قال: جئتك مهنئا بالخلافة فشكر لـه ذلك وأمـر لــه بعشـرة آلاف درهم فأخذها وانصرف ثم عاد إليه من قابل ، فلما رآه قال: مـا الـذي جـاء بـك؟ قـال: جئت طالبا فأمر لـه بعشرة آلاف درهم وقال: لا تأتنا لا مهنـئا ولا طالـبا فأخذهـا وانصـرف فلما كان في العام القابل عاد إليه فقال: ما الذي أقدمـك؟ قـال: وافـد فأمـر لــه بعشرة آلاف درهم وقال: لا تأتنا مهنئا ولا طالبا ولا وافـدا فأخذهـا وانصـرف ثـم عـاد مـن قـابل قال لـه: ما الذي جاء بك؟ قال: دعاء سمعتـه مـن أمـير المؤمنين جئت لأكتبه فضحك المنصور وقال: إنه غير مستجاب إنى دعـوت الله به أن لا يرينى وجهك فلم يستجب لي وأمر لـه بعشرة آلاف درهم وقال لـه: تعال متى شئت فقد أعيتنا فيك الحيل .

ومن المنقول عنه أيضا

روى أن المنصور أقبل يوما والفرج بن فضالة جالس على بابه ومعه جماعة فقام الناس وهو لم يقم فرآه المنصور فاشتد غضبه ودعا به فقال: ما منعك عن القيام مع الناس؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى: لم فعلت؟ ويسألك: لم رضيت؟ وقد كرهه ﷺ فسكن غضب المنصور وانشرح .

ومن المنقول عن ولده محمد المهدى

روى ابن الجوزى في كتاب الأذكياء عن سعيد بن عبد الرحمن أنه وافى إلى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدى فقال: استأذن لي على أمير المؤمنين فقال له: من أنت وما حاجتك؟ قال: أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين رؤيا صالحة وقد أحببت أن تذكرنى له فقال له الربيع: يا هذا إن القوم لا يصدقون فيما يرونه لأنفسهم فكيف ما يراه لهم غيرهم فاحتل بحيلة هى أرد عليك من هذه فقال له: إن لم تخبره بمكانى سألت من يوصلنى إليه وأخبرته أنى سألتك الإذن عليه فلم تفعل فدخل الربيع على المهدى فقال له: يا أمير المؤمنين إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم فقد احتلوا لكم بكل ضرب فقال له المهدى: هكذا صنع الملوك فماذا؟ قال: رجل بالباب يزعم أنه قد رأى لأمير المؤمنين رؤيا حسنة وقد أحب أن يقصها عليك فقال المهدى: ويحك يا ربيع إنى والله أرى الرؤيا لنفسى فلا تصح فكيف إذا ادعاها لي من لعله قد افتعلها قال: قد والله قلت له مثل هذا فلم يقبل قال: هات الرجل فأدخل عليه سعيد ابن عبد الرحمن وكان له رؤية وجمال ومروءة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان فقال له المهدى: هات بارك الله فيك ماذا رأيت؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين آتيا أتانى في منامى فقال: خبر أمير المؤمنين المهدى أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة وآية ذلك أنه يرى في ليلته هذه في منامه كأنه يقلب يواقيت ثم يعدها فيجدها ثلاثين ياقوتة كأنها قد وهبت له فقال له المهدى: ما أحسن ما رأيت ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة عما أخبرتنا به فإن كان الأمر على ما ذكرته أعطيناك ما تريد وإن كان بخلاف ذلك لم

نعاقبك لعلمنا أن الرؤيا ربما صدقت وربما اختلفت قال له سعيد: يا أمير المؤمنين فماذا أصنع أنا الساعة إذا صرت إلى منزلي وعيالى فأخبرتهم أنى كنت عند أمير المؤمنين ثم رجعت صفرا قال له المهدى: فكيف نعمل؟ قال: يعجل لي أمير المؤمنين بما أحب وأحلف له بالطلاق أنى قد صدقت فأمر له بعشرة آلاف درهم وأمر أن يؤخذ منه كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم فقبض المال وقيل: من يكفل بك؟ فمر عينيه إلى خادم فرآه حسن الوجه والزى فقال: هذا يكفل بى فقال له المهدى: أتكفل به؟ فاحمر وخجل وقال: أكفله وانصرف فلما كان في تلك الليلة رأى المهدى ما ذكر له سعيد حرفا حرفا وأصبح سعيد فوافى الباب واستأذن فأذن له فلما وقعت عين المهدى عليه قال: أين مصداق ما قلت لنا؟ قال له: وما رأى أمير المؤمنين شيئا فتوقف في جوابه فقال له سعيد: امرأتى طالقٌ إن لم تكن رأيت شيئا قال له: ويحك ما أجرأك على الحلف بالطلاق قال: لأنى أحلف على صدق قال له المهدى: فقد والله رأيت ذلك مبينا فقال له سعيد: الله أكبر فأنجز لي يا أمير المؤمنين ما وعدتنى فقال له: حبا وكرامة ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت ثياب وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة فأخذ ذلك وانصرف فلحق به الخادم الذي كان تكفل به وقال له: سألتك بالله هل لهذه الرؤيا التى ذكرتها من أصل؟ قال له سعيد: لا والله قال له الخادم: كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له قال: هذه من الخوارق الكبار التى لا ينبه لها أمثالكم وذلك أنى لما ألقيت إليه هذا الكلام خطر بباله وحدث به نفسه واشتغل به فكره فساعة نام خيل له ما حل في قلبه وما كان شغل به فكره في المنام قال له الخادم: قد حلفت بالطلاق قال: طلقة واحدة وبقيت هى على ثنتين فأزيد في مهرها عشرة دراهم وأتخلص فأحصل عشرة آلاف درهم وثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت من أصناف الثياب وثلاثة مراكب قال: فبهت الخادم في وجهه وتعجب من ذلك فقال له سعيد: قد صدقتك وقد جعلت صدقى لك مكافأة على كفالتك فاستر عليَّ ذلك ففعل ثم طلبه المهدى لمنادمته فنادمه وحظى عنده وقلده القضاء على عسكر المهدى فلم يزل كذلك حتى مات المهدى .

ومن المنقول عنه أيضا

قال ابن صالح: كنت عند المهدى ودخل عليه شريك بن عبد الله القاضى فأراد أن يبخره فقال لخادم على رأسه: هات عود القاضى فجاء الخادم بالعود الذي يلهى به فوضعه في حجر شريك فقال: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أخذه صاحب العسس البارحة فأحببت أن يكون كسره على يد القاضى فقال: جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين فكسره ثم أفاضوا في حديث حتى نسوا الأمر ثم قال المهدى لشريك: ما تقول في رجل أمر وكيلا له أن يأتى بشيء بعينه فأتى بغيره فتلف ذلك الشيء فقال: يضمن يا أمير المؤمنين قال للخادم: اضمن ما تلف بقضيته .

ومن المنقول عنه أيضا

روى عن حسن الوصيف قال: قعد المهدى قعودا عاما للناس فدخل رجل وفى يده نعل في منديل فقال: يا أمير المؤمنين هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك قال: هاتها فدفعها إليه فقبل باطنها ووضعها على عينه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه: أترون أنى لم أعلم أن رسول الله لم يرها فضلا عن أن يكون لبسها ولو كذبناه لقال للناس: أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله فردها علىَّ وكان من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره إذ كان من شأن العامة الميل إلى أشكالها والنصرة للضعيف على القوى وإن كان ظالما فاشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدقنا قوله ورأينا الذي فعلناه أنجح وأرجح .

ومن المنقول عنه أيضا

قيل: دخل المهدى إلى بعض الحجر فرأى جارية تغتسل فلما رأته غطت فرجها بيدها فقال:

نظرت في القصر عينى

وارتج عليه وسأل من بالباب من الشعراء؟ فقيل: بشار فأمر بإدخاله وسأله الإجازة فقال:

نظرت في القصر عيني ::: نظرا وافق حيني
سترت لما رأتني ::: دونه بالراحتين
فضلت منه فضول ::: تحت طي العكنتين
ليتني كنت عليه ::: ساعة أوساعتين

فضحك المهدى وقال: قبحك الله أكنت ثالثنا؟ قال: يا أمير المؤمنين إنى أتوب من قولى ساعة أوساعتين قال: فما تقول ويحك قال: سنة أو سنتين قال: اخرج لا أم لك وأمر له بجارية حسنة .

ومن المنقول عنه أيضا

حكى عن أبى دلامة أنه دخل على المهدى فأنشده قصيدة فقال: سلنى حاجتك فقال: يا أمير المؤمنين هب لي كلبا فغضب المهدى وقال: أقول لك: سلني حاجتك فتقول: هب لي كلبا فقال: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك؟ قال: بل لك قال: فإنى أسألك أن تهب لي كلب صيد فأمر له بكلب فقال: يا أمير المؤمنين هبنى خرجت إلى الصيد أعدو على رجلى فأمر له بدابة فقال له: يا أمير المؤمنين من يقوم بها فأمر له بغلام فقال له: يا أمير المؤمنين فهبنى قد صدت صيدا وأتيت المنزل فمن يطبخه فأمر له بجارية فقال: يا أمير المؤمنين أين يبيتون؟ فأمر له بدار فقال: يا أمير المؤمنين ، قد صيرت في عنقى كفا من عيال فما يقوت هؤلاء قال: فضحك منه وأرضاه .

ومن المنقول عن موسى الهادى

حكى عن على بن يقطين قال: كنت عند موسى الهادى ذات ليلة مع جماعة من أصحابه إذ أتاه خادم فساره بشيء فنهض سريعا فقال: لا تبرحوا فمضى وأبطأ ثم جاء وهو يتنفس ساعة حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقا مغطى بمنديل فقام بين يديه فأقبل يدعو فعجبنا من ذلك ثم جلس وقال للخادم: ضع ما معك فوضع الطبق وقال له: ارفع المنديل فرفعه فإذا على الطبق رأس جاريتين لم أر والله أحسن من وجههما ولا من شعورهما وإذا على رأسهما الجوهر منظوم على الشعر وإذا رائحة طيبة تفوح فأعظمنا ذلك فقال: ما تدرون من شأنهما؟ قلنا: لا قال: بلغنى أنهما تحابا

فوكلت هذا الخادم بهما ليرفع إليَّ أخبارهما فجاءنى وأخبرنى أنهما قد اجتمعا فجئت فوجدتهما كذلك في لحاف واحد فقتلتهما ثم قال: يا غلام ارفع ورجع في حديثه كأنه لم يصنع شيئا . اهـ .

ومن المنقول عن أخيه هارون الرشيد بن المهدى

روى أن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك كان قد بلغ من هارون الرشيد ما لم يبلغه وزير من خليفة قبله حتى كان يدخل معه في حلة واحدة قد اتخذ لها جيبين على ما ذكر بعض المخبرين ، وكان بلغ عنده إلى أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده فمن ذلك ما روى عن إبراهيم بن المهدى أنه قال: قال لي جعفر يوما: إذا كان غدا فبكر إليَّ فلما كان غد مشيت إليه باكرا فجلسنا نتحدث فلما ارتفع النهار أحضر حجاما فحجمنا ثم قدم لنا الطعام فطعمنا ثم خلع علينا ثياب المنادمة وقال جعفر لحاجبه: لا يدخل علينا أحد إلا عبد الملك القهرمان فنسى الحاجب ما قال له فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمى وكان رجلا من بنى هاشم ذا ملاحة وفصاحة وحلم وعلم وجلالة قدر وفخامة ذكر وصيانة فدخل في نفس الحاجب أنه الذي أمر بإدخاله فأدخله عليه فلما رآه جعفر تغير لونه فقال عبد الملك لما رآهم على تلك الحال وظهر له أنه تغير وأراد أن يرفع خجلهم وخجله بمشاركته لهم في فعلهم فقال: اصنعوا بنا ما صنعتموه بأنفسكم فجاء الخادم فطرح عليه ثياب المنادمة ثم جلس يشرب فلما بلغ ثلاثا قال: ليخفف عنى فإنه شيء والله ما شربته قط فتهلل وجه جعفر فقال له: هل لك من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لما صنعت؟ قال: بلى إن أمير المؤمنين علىَّ غاضب فأسأله الرضى عنى قال: قد رضى عنك أمير المؤمنين قال: وعلىَّ أربعة آلاف دينار قال: هى حاضرة من مال أمير المؤمنين قال: وابني إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين قال: قد زوجه أمير المؤمنين ابنته عائشة قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال: نعم ولاه أمير المؤمنين مصر قال إبراهيم فانصرف عبد الملك وأنا أعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان أمير المؤمنين فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر فلم

يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضي ومحمد بن واسع وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وكتب سجل إبراهيم على مصر وخرج جعفر فأشار إليَّ فلما صار إلى منزل نزل فنزلت بنزوله فالتفت إليَّ وقال: قلبك معلق بطلب تأول أمر عبد الملك بن صالح فأحببت معرفة خبره وذلك أني لما دخلت على أمير المؤمنين تمثلت بين يديه وابتدأت القصة من أولها إلى آخرها فجعل يقول: أحسن والله ثم قال: ما صنعت فأخبرته بما سأل وبما أجبته فجعل يقول في ذلك كله: أحسنت أحسنت وخرج إبراهيم واليا على مصر من يومه وكان الرشيد يحبه حبا شديدا حتى كان لا يفارقه وكانت العباسة أخت الرشيد عند الرشيد من أحب نسائه إليه وكان أيضا لا يريد أن يفارقها وكان متى غاب عنه جعفر لم يتم سروره أيضا فقال: يا جعفر إنه لا يتم لي سرور إلا بك وبالعباسة ولكني أزوجها منك ليحل لكما الاجتماع معا وإياكما أن تجتمعا وأنا دونكما فتزوجها على هذا الشرط فبقيا على تلك الحال ما شاء الله أن يبقيا حتى عشقت العباسة جعفرا فراودته فأبى وخاف على نفسه فلما أعيتهما الحيلة في نفسه أي في أمره علمت أن النساء أقرب إلى الخديعة فبعثت إلى أمه عتابة وكانت عتابة أم جعفر ترسل لابنها في كل جمعة بكرا عذراء وكان جعفر لا يطأ تلك الجارية حتى يأخذ شيئا من النبيذ فقالت العباسة لأم جعفر: أرسليني لجعفر كأني جارية من جواريك اللواتي ترسلين إليه فأبت عليها أم جعفر فقالت لها العباسة: إن لم تفعلي في قلت للرشيد: إن أم جعفر كلمتني في كيت وكيت وإن أنت فعلت ذلك واشتملت منه على ولد زاد في شرف ابنك وما عسى أن يفعل أخي لو قد علم أني قد اشتملت على ولد من ولدك فطمعت أم جعفر في ذلك فجعلت تعده بأنها ترسل إليه جارية عذراء من هيأتها وصفتها وجعلت تماطله في ذلك وجعفر يطلبها المرة بعد المرة فلما علمت أن نفسه قد اشتاقت إلى تلك الجارية التي ذكرت له قالت للعباسة: تهيئي في هذه الليلة ففعلت العباسة وأدخلت على جعفر وكان لا يثبت صورتها لأنه إنما كان يجلس معها والرشيد حاضر فكان لا يرفع طرفه إليها مخافة الرشيد فلما دخلت عليه وقضى وطره منها قالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك؟ قال: وأي

بنت ملك أنت؟ قالت له: مولاتك العباسة فطار السكر من رأسه وذهب إلى أمه وقال لها: والله يا أماه بعتيني رخيصا فاشتملت العباسة من تلك الليلة على ولد فلما ولدته وكلت به غلاما يقال له: رياش وحاضنة يقال لها: برة فلما خافت ظهور الأمر بعثتهم إلى مكة وكان يحيى بن خالد ينظر على قصر الرشيد وعلى حرمه وخدمه وكان يغلق أبواب القصر بالليل وينصرف بالمفاتيح معه ففعل ذلك حتى ضيق على حرم الرشيد فشكت زبيدة أم الأمين أمره فقال له الرشيد: يا أبت ما بال زبيدة تشكوك قال: يا أمير المؤمنين أمتهم أنا في حرمك وخدمك قال: لا قال: فلا تقبل قولها فازداد يحيي لها منعا وعليها غلظة فدخلت زبيدة على الرشيد فقالت: ما يحمل يحيى على ما يفعل بى من منع خدمى ووضعى في غير موضعى قال لها الرشيد: إن يحيى غير متهم في حرمى قالت: لو كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه قال لها: وما ذلك؟ فأخبرته بخبر العباسة قال: وهل على هذا دليل قالت: وأى دليل أدل من الولد قال: وأين هو؟ قالت: كان هاهنا فلما خاف ظهوره وجهت به إلى مكة قال: ويعلم هذا سواك؟ قالت: ما في قصرى جارية إلا وقد عرفت ما أخبرتك به قال: فسكت عنها وأظهر أنه يريد الحج فخرج وخرج معه جعفر فكتبت العباسة إلى الخادم والداية أن يخرجا بالصبى نحو اليمن فلما وصل الرشيد إلى مكة وكل من يثق به بالبحث عن أمر الصبى والداية والخادم فوجد الأمر صحيحا فأضمر في البرامكة من أجل ذلك إزالة نعمتهم ثم دعا السندى بن شاهك وهو أحد قواده فأمره بالمضى إلى بغداد والتوكل بالبرامكة ودور كتابهم وقراباتهم وأن يجعل ذلك سرا من حيث لا يعلمه أحد حتى يصل إلى بغداد ثم يفضى بذلك إلى دور من يستبقيه من أهله وأعوانه ففعل ذلك السندى وكان الرشيد بالأنبار بموضع يقال له: العمر وكان معه فيه جعفر فانصرف جعفر إلى موضعه ودعا بأبى زكار الأعمى الطنبورى ومدت الستارة وجلست جواريه خلفها يضربن ويغنين وأبو زكار يغنيه:

ما يريد الناس منا ::: ما ينام الناس عنا
إنما همتهم أن ::: يظهروا ما قد دفنا

ودعا الرشيد من ساعته بياسر غلام من غلمانه فقال له: يا ياسر إنى دعوتك لأمر لم أر له محمدا ولا عبد الله ولا القاسم أهلا ورأيتك ناهضا به فحقق عنى واحذر أن تخالفه فيكون سقوط منزلتك عندى قال: يا أمير المؤمنين لو أمرتنى أن أقتل نفسى لفعلت قال: اذهب إلى جعفر بن يحيى وجئنى برأسه الساعة على أى حال كان فوقف ياسر حائرا قال: يا ياسر ألم أتقدم إليك إن خالفت أمرى؟ قال: بلى ولكن الأمر عظيم ووددت أنى مت قبل هذا قال: امض لما أمرتك فمضى حتى دخل على جعفر وأبو زكار يغنيه:

فلا تبعد فكل فتى سيأتى ::: عليه الموت يطرق أو يغادى
ولو فديت من حدث الليالى ::: فديتك بالطريف وبالتلاد
وكل ذخيرة لابد يوما ::: وإن بقيت تصير إلى نفاد

فقال جعفر: يا ياسر سررتنى بإقبالك وسؤتنى بدخولك بغير إذن قال: الأمر أكبر من ذلك إن أمير المؤمنين أمرنى فيك بكذا وكذا فأقبل جعفر يقبل قدمى ياسر ويقول له: دعنى أدخل أوصي قال: لا سبيل إلى ذلك قال: إن لي عندك حقا ولن تجد مكافأتى إلا في هذه الساعة قال: تجدنى سريعا إلا فيما خالف أمير المؤمنين قال: فارجع إليه فأعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به فإن أصبح نادما فذاك وكانت حياتى على يديك وكانت تلك عندى نعمة وإن أصبح على مثل مذهبه نفذت ما أمرك به قال: ولا هذا لست أفعله قال: فأسير معك إلى مضرب أمير المؤمنين بحيث أسمع كلامه ومراجعتك إياه فإذا أبليت عذرا ولم يقنع إلا بمصيرك برأسى فعلت قال: أما هذا فنعم فسارا جميعا إلى مضرب الرشيد فلما سمع حسه قال: يا ياسر ما وراءك فعرفه ما قال جعفر فقال: والله لئن راجعتنى لأقدمنك قبله فرجع فقتله وجاء برأسه فلما وضعه بين يديه أقبل عليها مليا ثم قال: يا ياسر جئنى بفلان وفلان فلما أتاه بهما قال: اضربا عنق ياسر فإنى لا أقدر أن أرى قاتل جعفر .

وروى عن المغيرة بن محمد المهلبى قال: حدثنى الأصمعى قال: وجه إلىَّ الرشيد بعد قتله جعفرا فجئت فقال: أبيات أردت أن تسمعها قلت: إذا شاء أمير المؤمنين

فأنشدني:

لـو أن جعفـر خـاف أسباب الردى ::: لـنجا بـه مـنها طمـر مـلجم
ولكـان مـن حـذر المنـية حيث لا ::: يـرجو الـلحاق بـه العقاب القشعم
لكـنه لمـا أتـاه يومـه ::: لم يـرجع الحدثـان عـنه مـنجم

فعلمـت أنهـا لـه فقلـت: هـذه أحسـن أبيات في معناها فقال: الحق الآن بأهلك يا ابن قريب ويقال: إن علية بنت المهدى قالت للرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة: ما رأيت لك يا سيدى سرورا منذ قتلت جعفرا فلأى شيء قتلته؟ فقال لها: يا حياتى لو علمت أن قميصى يعلم السبب لمزقته ثم قبض على يحيى وعلى الفضل فسجنا حتى ماتا في السجن وكـان موت يحيى بعد قتل جعفر بثلاث سنين ومات الفضل بعد والده يحيى في السجن بسنتين ويقال: إنه صار إلى الرشيد من أموال البرامكة وأثاثهم وضياعهم قيمة خمسة عشر ألف ألف دينار.

وكتب يحيى إلى الرشيد مـن السـجن لأمـير المؤمـنين، وإمـام المسلمين وخلف المهديـين، وخلـيفة رب العـالمين، مـن عـبد أسـلمته ذنوبـه، وأوثقته عيوبه، وخذله شـقيقه، ورفضه صديقه، وذل به الزمان، وأناخ عليه الحدثان، فصار إلى الضيق بعد السـعة، وعـالج الـبؤس بعد الدعة، وافترش السخط بعد الرضى، واكتحل السهر، وافـتقد الهجـوع فسـاعته شـهر وليلته دهر، قد عاين الموت، وشارف الفوت، جزعا يا أمير المؤمنين حجب الله عنى فقدك، لما أصبت به بعدك، لا لمصيبتى بالحال والمال، فـإن ذلـك كـان بـك ولـك عارية ولا بأس أن تسترد العوارى، فأما المحنة في جعفر، فـبجرمه أخذتـه، وبجريرته عاقبته، وما أخاف عليك زلة في أمره، ولا مجاوزة به فوق مـا يسـتحقه، فاذكـر يـا أمـير المؤمـنين خدمتى وارحم ضعفى وشيبتى ووهن قوتى، وهـب لـي رضى عنى فمن مثلى الزلل، ومنك الإقالة، ولست أعذره ولك أفى وقد رجوت أن يظهر عند الرضى وضوح عذرى وصدق نيتى وظاهر طاعتى وفلج حجتى ما يكتفى به أمير المؤمنين ويرى الجلية فيه ويبلغ المراد منه إن شاء الله تعالى وكتب إليه بهذه الأبيات:

قل للخليفة ذى الصنا ::: ئع والعطايا الفاشيه
وابن الخلائف من قريـ ::: ش والملوك الهاديه
رأس الأمور وخير من ::: ساس الأمور الماضيه
إن البرامكة الذيـ ::: ن رموا إليك بداهيه
عمتهم لك سخطة ::: لم تبق منهم باقيه
فكأنهم مما بهم ::: أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهم ::: خلع المذلة باديه
مستضعفون مطردو ::: ن بكل أرض قاصيه
من دون ما يلقون من ::: عتب يشيب الناصيه
أضحوا وجل مناهم ::: منك الرضى والعافيه
بعد الوزارة والإما ::: رة والأمور العاليه
انظر إلى الشيخ الكبـ ::: ير فنفسه لك راجيه
أو ما سمعت مقالتى ::: ياذا الفروع الزاكيه
ما زلت أرجو راحة ::: فاليوم زال رجائيه
واليوم قد سلب الزما ::: ن كرامتى وبهائيه
ألقى الزمان جرانه ::: مستشعبا بفنائيه
ورمى سوادي مقلتى ::: فأصاب حين رمانيه
يا من يود لي الردى ::: يكفيك ويحك ما بيه
يكفينى أنى مستبا ::: ح معشرى ونسائيه
يكفيك ما أبصرت من ::: ذلى وذل مكانيه
وذهاب مالى كله ::: وفدى الخليفة ماليه
إن كان لا يكفيك إلا ::: أن أذوق حماميه
فلقد رأيت الموت من ::: قبل الممات علانيه
وفجعت أعظم فجعة ::: وفنيت قبل فنائيه
وهويت في قعر السجو ::: ن على رفيع بنائيه
انظر بعينيك هل ترى ::: إلا قصورا خاليه
وذخائرا موروثة ::: فسمن قبل مماتيه
ومصارعا وفجائعا ::: ومصائبا متواليه
ونوادبا يدعوننى ::: تحت الدجا بكنائيه
أأبا على البرمكى ::: فما أجبت الداعيه

وندائهـــن وقـــد سمعـــــ ::: ت مقلقــــــلا أحشـــــائيه
أخلـــيفة الله الرضـــــى ::: لا تشـــمتن أعدائـــــيه
واذكـــر مقاســـاتى الأمـــو ::: ر وخدمـــتى وعنائـــــيه
ارحـــم جعلـــت لـــك الفـــدى ::: كـــربى وشـــدة حالــــيه
ارحـــم أخـــاك الفضـــل و ::: الـــباقين مـــن أولاديـــه
أخلـــيفة الـــرحمان أنـــــ ::: ك لورأيـــت بناتــــيه
وبكـــاء فاطمـــة الكـــبيرة ::: والمدامـــع جاريـــه
ومقالهـــا بـــتوجع ::: يـــا شـــقوتى وشـــقائيه
مـــن لى وقـــد غضـــب الإمـــام ::: عـــلى جمـــيع رجالــــيه
وعدمـــت طيـــب معيشـــتى ::: وتغـــيرت حالاتــــيه
يـــا نعمـــة الملـــك الرضـــى ::: عـــودى علـــينا ثانـــيه

ويروى أن الرشيد لما وقف على هذه الأبيات وقع بخطه تحت الشعر قولـه هذا:

أجـــرى القضـــاء علـــيكم ::: مـــا جئـــتموه علانـــيه
مـــن تـــرك نصـــح إمـــامكم ::: عـــند الأمـــور الـــباديه
يـــا آل بـــرمك إنمـــا ::: كنـــتم ملوكـــا عاتـــيه
فكفـــرتم وعصـــيتم ::: وحجـــرتم نعمائـــيه
هـــذى عقوبـــة مـــن عصـــى ::: مـــولاه ثم عصـــانيه

وكتب تحته ﴿ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ .

وحكى أنه كتب قبل موته يخاطب الرشيد بأبيات وهى:

ســـتعلم في الحســـاب إذا التقيـــنا ::: غـــدا عـــند الإلـــه مـــن الظلـــوم
ســـينقطع الـــتلذذ عـــن أنـــاس ::: أرادوه وتـــنقطع الهمـــوم
ألا يـــا بائعـــا ديـــنا بدنـــيا ::: غـــرور لا يـــدوم لهـــا نعـــيم
تخـــل مـــن الذنـــوب فأنـــت مـــنها ::: عـــلى أن لســـت ذا ســـقم ســـقيم
تـــنام ولم تـــنم عـــنك المـــنايا ::: تنـــبه للمنـــية يـــا نـــؤوم
تـــروم الخلـــد في دار الـــتفانى ::: وكـــم قـــد رام قـــبلك مـــا تـــروم
إلى ديـــان يـــوم الديـــن نمضـــى ::: وعـــند الله تجـــتمع الخصـــوم

ومن المنقول عن الرشيد أيضا

قال منارة: رفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلا من بنى أمية عظيم المال والجاه وكثير الجند والحفدة يخشى على المملكة منه وكان الرشيد يومئذ بالكوفة فاستدعانى الرشيد وقال: اركب الساعة وخذ معك مائة غلام وائتنى بفلان الأموى وهذا كتابى إلى العامل لا توصله إلا إذا امتنع عليك فإذا أجاب قيده بعد أن تحصى جميع ما تراه وما يتكلم به واذكر لي حالك وحاله وقد أجلتك لذهابك ستا ولمجيئك ستا ولإقامتك يوما أفهمت؟ قلت: نعم قال: فسر على بركة الله تعالى .

فخرجت أطوى المنازل ليلا ونهارا لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت في السابع بباب دمشق فلما فتح الباب دخلت قاصدا نحو دار الأموى فإذا هى دار عظيمة هائلة ونعمة طائلة ومساطب متسعة وغلمان عليها جلوس فهجمت الدار بغير إذن فبهتوا وسألوا عنى فقيل لهم: رسول أمير المؤمنين فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواما محتشمين ظننت أن المطلوب فيهم فسألت عنه فقيل: هو بالحمام فأكرمونى وأجلسونى وأمروا بمن معى ومن صحبنى إلى مكان آخر وأنا أتفقد الدار وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرون كهول وشبان وحفدة فسلم خفيا وسألنى عن أمير المؤمنين فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى ثم أحضرت أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة فتأملت كثيرا إذ لم يكننى فقلت: لا آكل فلم يعاودنى ورأيت ما لم أره في الخلافة ثم لما قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيبا ولا أعظم رائحة ولا أكثر منه فقال: تقدم يا منارة فكل فقلت: ليس لي به بحاجة فلم يعاودنى ونظرت إلى أصحابى فلم أر أحدا منهم عندى فجزعت لكثرة حفدته وعدم من عندى فلما غسل يديه أحضر البخور فتبخر ثم قام: فصلى الظهر فأتم الركوع والسجود وأكثر الركوع بعدها فلما فرغ استقبلنى وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فناولته كتاب أمير ا[illegible]ـنين فقبله ووضعه على رأسه ثم قرأه فلما فرغ استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وسائر غلمانه حتى ضاقت الدار بهم على سعتها فطار عقلى وما [illegible]ككت إلا أنه يريد القبض عليَّ ثم قال لأهله وحشمه الطلاق يلزمه والحج والعتق

والصدقة وسائر الأيمان لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى يكشف أمرى ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلنى وقدم رجليه وقال: هات قيودك يا منارة فدعوت الحداد فقيده وحمله حتى وضعه في المحمل وركبت معه وسرنا فلما وصلنا ظاهر دمشق ابتدأ يحدثنى بانبساط وقال: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الأثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصد منها كل سنة كذا وكذا فقلت: يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذنى خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب إلى ما تقدم عليه وقد أخرجتك من بيتك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدا فريدا وأنت تحدثنى حديثا غير مفيد ولا نافع لك؟ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون لقد أخطأت فراستى فيك يا منارة وما ظننت يا منارة أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا وقد وفر عقلك وإذا أنت جاهل عامى لا تصلح لمخاطبة الخلفاء.

أما خروجى على ما ذكرت فإنى على ثقة من ربى الذي بيده ناصية أمير المؤمنين فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة ربه فإن كان قد قضى عليَّ بشيء فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه وإن لم يكن قدر الله بشيء فلو اجتمع مع أمير المؤمنين سائر ما على وجه الأرض على أن يضرونى لم يستطيعوا ذلك وما لى ذنب فأخاف وإنما هو واشٍ وشى عند أمير المؤمنين ببهتان وأمير المؤمنين كامل العقل فإذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل صرورتى وعليَّ عهد لا أكلمنك بعدها إلا جوابا ثم أعرض عنى وأقبل على التلاوة وما زال كذلك حتى وافيت الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر وإذا النجب أقبلت من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض وقال: هات يا منارة أخبرنى من خروجك عنى إلى يوم قدومك فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه بدمشق وضيق الدار بهم وتفقدى أصحابى فلم أجد أحدا اسود وجهه فلما قلت: إنه مدَّ رجليه انتشر واستبشر فلما أخبرته بحديثى معه بضياعه وبساتينه وما قلت له ما قال لي قال: هذا رجل محسود على نعمته ومكذوب عليه وقد أزعجناه وروعناه وشوشنا على أولاده اخرج إليه

وانزع قيوده وأدخله علىَّ مكرما ففعل فلما أدخل قبل الأرض ورحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر إليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين: سل حاجتك؟ قال: سرعة رجوعى إلى بلدى وجمع شملى بأهلى وولدى قال: هذا كائن سل غيره قال: عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجنى إلى سؤال قال: فخلع عليه أمير المؤمنين ثم قال: يا منارة اركب الساعة حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه ثم في حفظ الله ولا تقطع أخبارك ولا حوائجك عنا .

ومن المنقول عنه أيضا

قال الأصمعى: خرجت من الكوفة إلى المسجد الجامع بالبصرة في أيام الرشيد فإذا أنا برجل يدور بين الصفوف ببنتين له إحداهما عن يمينه والأخرى عن شماله وهو يقول:

يا ابنتى صابرا أباكما ::: أبكيتما أعين من يراكما
وهو الذي بفضله يرعاكما ::: ولو يشأ بفضله أغناكما

فلم يبق أحد في المسجد إلا بكى رحمة له وأومأ إليه بالجلوس حتى انصرف الناس من الصلاة وبسطوا له ثوبا وطرحوا عليه فضة وذهبا حتى امتلأ الثوب فاشتروا له منزلا وأقام بالبصرة وكان سريع الخاطر جيد البديهة في الشعر والنثر وكان يكنى بأبى فرعون فبلغ خبره هارون الرشيد فأمر بإشخاصه إلى بغداد فلما وقف بين يديه قال له: أنت أبو فرعون؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين قال: ألك حاجة؟ قال: لا حاجة لي في غير مدحكم يا أمير المؤمنين فقال الرشيد له: لا حاجة لنا في مدحك بل أقسمت عليك بحقى إلا ما هجوتنا والمجلس يومئذ غاص بأهله من أمير ووزير وحاجب وكاتب منهم جعفر بن يحيى وأبوه يحيى وأخوه الفضل والفضل بن الربيع وسعيد بن مسلم الباهلى وهلال النديمى وأحمد بن عمران الكاتب ومسرور الحاجب وهارون الصاحب فقال: بمن أبدأ يا أمير المؤمنين؟ فقال: بمن شئت فالتفت يمينا وشمالا وقال: من هذا؟ قالوا: سعيد بن مسلم الباهلى فأنشأ يقول:

هيهات أضرب في حديد بارد ::: إن كنت أطمع في نداك سعيد

أ نـت تملـك حيـن تملـك دجلة ::: وبحورهـا وتصيـر حيـث تـريد
و نـت تملـك نـيل مصـر جميعه ::: أو حيـث يـنقص مـاؤه ويـزيد
وأ ـاك مسـلم بـادرا بإنائـه ::: يـبغى الوضـوء لقلـت ذاك صـعيد

قام سعيد مغضبا يجر سيفه ويسحب ذيله فقال الرشيد والجماعة: اجلس وأرضه فإنـ شاعر فجلس وأرضاه ثم التفت إلى الفضل بن الربيع وسأل عن اسمه وأنشأ يقول:

لسـانك أحـلى من جنى النحل موعدا ::: وصـدرك بالمعـروف أضـيق من قفل
تمـنى الـذي يأتـيك حـتى إذا انتهى ::: إلى أمـل ناولـته طـرف الحـبل

فقام الفضل مغضبا يجر سيفه ويسحب ذيله فقال الرشيد والجماعة: اجلس وأرضه فإنه شاعر فجلس وأرضاه ثم التفت إلى أحمد بن عمران الكاتب وسأل عن اسمه وأنشأ يقول:

لـنا كاتـب مولـع بـالخلاف ::: كـثير الخطـاء قلـيل الصـواب
ألج لجاجـا مـن الخنفسـا ::: ء وأزهـى إذ مـا مشـى مـن غراب

فقام أحمد بن عمران مغضبا يجر سيفه ويسحب ذيله فقال الرشيد والجماعة: اقعد وأرضه فإنه شاعر فجلس وأرضاه ثم التفت إلى هارون الصاحب وسأل عن اسمه وقال:

وصـاحب السـوء كالداء العضال إذا ::: مـا ارفـض في الجلد يجرى هاهنا وهنا
يجـرى ويظهـر مـن عورات صاحبه ::: ومـا رأى عـنده مـن صـالح دفـنا
إن يحـى ذاك فكـن مـنه عـلى حذر ::: أو مـات ذاك فـلا تشـهد لـه كفنا

فقام هارون مغضبا يجر سيفه ويسحب ذيله فقال الخليفة والجماعة: اقعد وأرضه فإنه شاعر فجلس وأرضاه ثم التفت إلى هلال النديمي وسأل عن اسمه وأنشأ يقول:

ألا مـن يشـترى مـنى هـلالا ::: بـبرذون ويفديـه بفلـس
وأشـرط للـذى يشـريه مـنى ::: ليعـلم مـن خصـال فـيه خمـس
فمـنهن الـبغاء عـلى المكـارى ::: وآثـار الجـراح وكـل حلـس
ويصـطاد الذبـاب بمشـفريه ::: ولوكـان الذبـاب بـرأس جعـص

فقام هلال مغضبا يجر سيفه ويسحب ذيله فقال الخليفة والجماعة: اجلس وأرضه

فإنه شاعر فجلس وأرضاه ثم التفت إلى مسرور الحاجب فقال: من هذا؟ فقيل: مسرور الحاجب فأنشأ يقول:

وحاجب السوء مذموم خليقته ::: يمشي على مثل معوج العراجين
وما دعوت عليه قط ألعنه ::: إلا وآخر يتلوني بآمين
فليته كان أرض الروم مسكنه ::: أوكان أقصى بلاد الله بالصين

فقام مسرور مغضبا يجر سيفه ويسحب ذيله وهم به فزجره الرشيد عنه وقال: اقعد وأرضه فإنه شاعر فقعد وأرضاه ثم التفت إلى جماعة البرامكة وكانوا قريبا من أمير المؤمنين فقال: من هؤلاء؟ فقيل: جماعة البرامكة فأنشأ يقول:

إذا ذكر الشرك في مجلس ::: أنارت وجوه بني برمك
وإن تليت بينهم آية ::: أتوا بالأحاديث عن مروك
فمسلمهم كافر مشرك ::: على دين شمعلة المشرك

فقام كل منهم مغضبا يجر سيفه ويسحب ذيله والرشيد قد كثر تعجبه وعلا بالضحك صوته فقال لهم: اجلسوا وأرضوه فإنه شاعر فأطاعوا الأمير ولم يبق إلا الخليفة فاحتشم وسكت فقال له: يا أبا فرعون ألحقنى بأصحابى فقال: بل أمتدحك يا أمير المؤمنين فإن الهجاء لا يليق بك فقال: لا حاجة لي في مدحك وقد أقسمت عليك بحياتي إلا ما ألحقتنى بأصحابى فأنشأ يقول:

يا عين سحى الدمع واستعبرى ::: قد بايع الناس لهارون
خليفة ليس من فعله ::: لا يعرف البقل من التين
لابد للأحمق من دولة ::: أف لهذا الدين من دين

فقام الرشيد مغضبا يجر سيفه ويسحب ذيله وقال له: يا ابن الخناء بلغ بك الهجاء إلى هاهنا؟ فقالوا له: الجماعة يا أمير المؤمنين اقعد وأرضه فإنه شاعر والهجاء لا يكون معجبا حتى يكون مغضبا فامتثل كلامهم وأمر له بجائزة سنية .

ومن المنقول عنه أيضا

ذكر الفضل بن الربيع أن الرشيد جلس يوما على الشراب فقال لأصحابه: أريد شاعراً ظريفاً حسن الصوت جميل الوجه فقالوا بأجمعهم: ما نعرف ببغداد أحدا على

هـذه الصـفة غـير أبـى الـنواس فإنه أجملهم وجها وأفصحهم لسانا ، وأقربهم جوابا ، وأعذبهـم شـعرا ، وأحسـنهم صـوتا فأمر بإحضاره فلما صار بين يديه قال لـه: يا أبا الـنواس أنشدني من أشعارك فقال: أنشدك مما قلته أو مما أقولـه في الساعة قال: لا بل ممـا قلـته قديمـا فقال: يا أمير المؤمنين مررت يوما في شارع من شوارع البلد فملت إلى دار أسـتقى مـاء إذا أنـا بجاريـة ممشـوقة القـد ، صـبيحة الخد ، كثيرة المجانة ، عليها أثر الـرعانة ، تصـلح أمـيرا لأهـل الحانة ، وكأنى بها سكرانة ، فكلمتنى وكلمتها ، فقلت فيما كان بينى وبينها من المحاورة شعرا ، وقلته والجارية تسمع فقال الرشيد: وما هو يا أبا الحسن فأنشأ يقول:

يـا نظـرة قدحـت في القلـب نيرانا ::: ويـا هـوى زادني شـوقا وأحـزانا
هـيفا مهفهفـة أهـدت غضـارها ::: إليّ مـع طـرف الـريحان ألوانـا
قـد كنـت أغـنى جميع الناس كلهم ::: عـن شـرب مـائكم إذ كان ما كان
قالـت فلم قلت أخشى طول هجركم ::: قالـت فـلا تخشى طول الدهر هجرانا
أشـاعر أنـت يـا هـذا فقلـت لها ::: مـن أحسـن الـناس كل الناس ألحانا
قالـت فغـن لـنا صـوتا فقلـت لها ::: حلفـت أن لا أغـنى الدهـر مجانـا
قالـت فقـل ثم لا تشـطط فقلت لها ::: لا شـيء أكـثر مـن لقـياك أحـيانا
قالـت فغـن عـلى اسم الله قلت لها ::: أتفهمـى سـكنا صـوتا لدهمانـا
إن العـيون الـتى في طـرفها حـور ::: قتلتـنا ثم لا يحـيين قـتلانا
يصـرعن ذا اللـب حتى لا حراك لـه ::: وهـن أضـعف خلـق الله أركانـا
فمدمـن الخمـر يصـحو بعد سكرته ::: وصـاحب العشـق حتى الموت سكرانا
قالـت فغـن سـوى هـذا لقائلـه ::: واجعلـه نحـوى إذا غنيـت أشـجانا
قلـت اسمعـي ثانـيا ثم انتقيـت لهـا ::: شـعرا يوافـق في الـتمريض معـنانا
ثم اندفعـت أغنـيها عـلى طـرب ::: بـأن الخلـيط ولـو طاوعـت ما بانا
واستضـحكت ثم قالـت هات لي خبرا ::: مـا كـان بـين عـلى وابـن عفانا
فقلـت هـذا حديـث لا يوافقـنى ::: لاكـن حديـث جمـيل وابـن غيلانا
قالـت فعـبر لـنا رؤيـا فقلـت لها ::: مـاذا رأيـت أراك الله إحسـانا
قالـت رأيـت فـتى في الـنوم ناولنى ::: مـن نـرجس رطـب غـض وريحانا
فقلـت الفـتى هـو أنا والغض ودكم ::: وذاك يـا سـاكنى تـأويل رؤيانـا

فقال الرشيد: أشهد أنك إمام الظرفاء، وسيد الأدباء، ورأس المجان وأجازه ثلاثة بدرات فوضعت بين يدي أبى نواس ففرق بين بدرتين على من حضر في ذلك الوقت من المغنيين ورفع له بدرة إلى منزله فصرفها على من زاره من الشعراء وإخوانه من الأدب، فبلغ الرشيد ذلك فأعطاه ألف درهم وجارية جميلة.

ومن المنقول عنه أيضا

ذكروا أن هارون الرشيد خرج ذات ليلة يطوف في قصره فلقيته جارية من جواريه وكان يجد بها وجدا شديدا وكانت تأبى عليه أن ينال مراده منها تعززا عليه لحسنها فراودها فأبت وكانت سكرى فانحل إزارها وسقط خمارها فقالت: أمهلنى الليلة وغدا أصير إليك فتركها ومضت فلما كان من الغد أرسل إليها رسولا يطلب منها تمام الموعد فقالت للرسول: ارجع وقل له كلام الليل يمحوه النهار فقال الرشيد: من بالباب من الشعراء؟ فقيل: الرقاشي ومصعب وأبو نواس فلما حضروا قال لهم: من قال لي شعرا يضمن آخره كلام الليل يمحوه النهار فله ألف دينار فقال الرقاشي:

متى تصحو وقلبك مستطار ::: وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صبا مستهاما ::: فتاه لا تزور ولا تزار
إذا وعدتك صدت ثم قالت ::: كلام الليل يمحوه النهار

فوهب له ألف دينار وقال لم تصب ما في خاطرى ثم قال مصعب:

أما وأبيك لو تجدين وجدى ::: لأذهب بالكرى عنك النهار
وكيف وقد تركت العين عبرى ::: وفى الأحشاء من ذكراك نار
تهلل وجهها عجبا وقالت ::: كلام الليل يمحوه النهار

فوهب له ألف دينار وقال لم تصب ما أردته ثم قال أبو نواس:

وخود أقبلت في القصر سكرى ::: ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح أردافا ثقالا ::: وصدر فيه رمان صغار
وقد سقط الردا عن منكبيها ::: من التكريه وانحل الإزار
فقلت لها عديني منك وعدا ::: فقالت في غد منك المزار
فقلت الوعد سيدتى فقالت ::: كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد: يا غلام سيف ونطع فقلت: يا أمير المؤمنين المال لأصحابى والسيف والنطع لي هل أخطأت فيما قلت؟ فقال: ما أظنك البارحة إلا كنت ثالثنا أو مطلع علينا فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بت إلا في دارى وإنما استدللت بالهوى على خاطرك كما قال الله تعالى: ﴿ **وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ** ﴾ فقبل الأمر منه وأمر له ببدرة فيها ثلاثون ألف درهم.

ومن المنقول عنه أيضا

حكى عن إبراهيم الموصلى أنه قال: قال لي الرشيد: بكر يا إبراهيم قلت: نعم يا أمير المؤمنين فبكرت إليه فوجدته قد تأهب للصبوح وبين يديه جارية وفى حجرها عود ما رأيت أجمل منها فقال لها: غنى فاندفعت تقول:

يقولون سائر بالهوى لا تبح به ::: فكيف ودمعى بالهوى يتكلم
شكوت إليها حبها فتبسمت ::: ولم أدر بدرا قبلها يتبسم
فقلت لها جودى فأبدت تهجما ::: لتقتلنى يا حسنها حين تهجم

فقال: والله لقد كدت أفتضح من حسن غنائها وملاحة وجهها ورقة طبعها ثم قال: غن يا إبراهيم فغنيت في معنى غنائها أقول:

إذا ما كتمت الحب نمت عيوننا ::: علينا وأبدته العيون السواكب
وإن نحن أخفينا ضمائر حبنا ::: أشارت بتسليم علينا الحواجب

ثم فاض دمعى فلم أجد إلى حبسه سبيلا وظننت أن أمير المؤمنين فطن بى فقال: غنى فغنت:

إن كتمت الهوى تزايد سقمى ::: وأخاف العيون حين أبوح
لأبوحن بالذى في ضميرى ::: من هواه لعلنى أستريح

فلما فرغت أمرها بالقيام فتنغص عيشى وكاد يذهب عقلى ولم أمتلك كتمان ما في ضميرى فظهر للرشيد ما أنا فيه من الوجد فأذن لي في الانصراف فانصرفت فلما كان بعد يومين دخل عليَّ الغلام فقال: بالباب خادم يلتمس الوصول إليك فقلت:

ائـذن لـه فدخـل فقـال: حبيبة المسكينة تسلم عليك وهذه رقعتها قلت: ومن حبيبة؟ قـال: الـتى سمعـتها بين يدي أمير المؤمنين يوم كذا وهى من العشق على حال الموت ففتحت الرقعة فإذا فيها:

قـد تخوفـت أن أمـوت مـن الوجـ ::: د ولم يـدر مـن هويـت بمـا بى
إن كفـا إلـيك قـد كتبـتنى ::: في شـقاء وجسـمها في عـذاب
فـإذا مـا قـرأتموه فـرقوا ::: وارحمـوا عـبرتى وردوا جـوابى

فرجعـت إلى عقـلى ولم أشـك أنه دسيسة من الرشيد لما رأى منى فقلت للخادم: والله يـا عـبد السوء لولا خوف الله للقيت الله بدمك ثم رميت الكتاب وقلت: امض لعـنك الله ومـن كتب هذا الكتاب وجعلت أهدده فمضى مبادرا يتضاحك فلم ألبث إلا أن جـاءنى رسـول الرشـيد فجئت إليه فقال لي: ما أبطأك؟ فقلت: خبر من أعظم الأخـبار فقـال: مـا هـو؟ قلـت: أتـانى رسول جارية لا أعرفها ولا بينى وبينها شيء فضـحك وقال: ما فعلت قلت كذا وكذا فازداد ضحكا ورمى إليَّ بخلع وقال: أنا والله أرسـلته دسيسة إليك والشعر لي وقد كنت أتهمك بما رأيت منك وظهر عليك وخلع عـلى الخادم ومر لنا أطيب يوم وأحسنه ثم لما أردت الانصراف قال لي: قد أمرنا لك بالجاريـة بمـا لهـا جـزاء لتعففك فما وصلت إلى البيت إلا والخدم قد أقبلوا بها ومعها شيء ضاقت عنه بيوتنا .

ومن المنقول عنه أيضا

قال الأصمعي: بعـث إليَّ الرشيد فدخلت فإذا صبية فقال: من هذه الصبية؟ قلت: لا أدرى قـال: هـذه مواسـة بنت أمير المؤمنين فدعوت لها ولـه فقال: قم فقبل رأسها فقلت: إن أنـا أطعـته أدركـته الغـيرة فقتلـنى وإن أنـا عصـيته قتلنى بمعصيته فوضعت كمى على رأسها فقبلت كمى فقال: والله يا أصمعى لو أخطأتها لقتلتك أعطوه عشرة آلاف درهم .

ومن المنقول عنه أيضا

حكـى عـن الرشـيد أنه طرب إلى الغناء فخرج مبكرا ومعه خادمه مسرور حتى انـتهى إلى باب إسحاق بن إبراهيم الموصلى فقال: يا مسرور اقرع الباب فقرعه فخرج

إسحاق فلما رأى الخليفة أكب على رجليه فقبلهما ثم قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يدخل منزل عبده فنزل الرشيد فرأى أثر الدعوة فقال: يا إسحاق إني أرى موضع الشراب من كان عندك؟ قال: ما كان عندي يا أمير المؤمنين سوى جاريتين لي كنت أطارحهما قال: أفهما حاضرتان؟ قلت: نعم قال: فأحضرهما فدعى الجاريتين فخرجتا ومع إحداهن عود حتى جلستا فأمر الرشيد صاحبة العود أن تغنى فغنت:

بنى الحب على الجور فلو ::: أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن في وصف الهوى ::: عاشق يكثر تأليف الحجج
فقليل الحب صرف خالص ::: هو خير من كثير قد مزج

فقال الرشيد: يا إسحاق لمن الشعر والغناء؟ قال: لا علم لي يا أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ينكث في الأرض ثم رفع رأسه وأخذ العود من حجر هذه ووضعه في حجر الأخرى ثم قال لها غنى فغنت:

أن يمس حبلك بعد طول تواصل ::: خلقا وأصبح بينكم مهجورا
فلقد أراني والجديد إلى بلى ::: زمنا بوصلك راضيا مسرورا
كنت الهوى وأعز من وطئ الحصا ::: عندى وكنت بذاك منك جديرا

فقال: يا إسحاق لمن الشعر والغناء فيه؟ فقال: لا علم لي يا سيدى فرد المسألة على الجارية فقالت: لستى قال: ومن ستك؟ قالت: علية أخت أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ثم وثب وقال لمسرور خادمه: امض بنا إلى منزل علية فلما وقف بالباب قال: استأذن يا مسرور فخرجت جارية فلما رأت الخليفة رجعت تبادر تعلم ستها فخرجت تستقبله فقال: يا علية هل عندك ما نأكل؟ قالت: نعم فدخل وجلس فقدمت إليه الطعام ووضع الشراب والطيب وأنواع الرياحين ودعت جواريها وكان عندها ثلاثون جارية يغنين فألبستهن الثياب ووضعتهن في الإيوان وتناول الرشيد الشراب وأمر الجوارى أن يغنين ثم سقى أخته حتى أخذ الشراب منها واحمرت وجنتاها وفترت أجفانها وكانت أجمل نساء الخلفاء فضرب الرشيد إلى حجر بعض الجوارى فأخذ العود وقال: يا علية بحياتي غنى: بنى الحب على الجور فلو إلى آخر الأبيات الثلاثة فعلمت أنها داهية فبكت فصاح الرشيد فخرج الجوارى وبقى هو

وهى فدفعها وأخذ وسادة فجعلها على وجهها وجلس عليها فاضطربت اضطرابا شديدا ثم بردت فنحي الوسادة عنها وقد قضت نحبها فخرج وقال للخادم: إذا كان غدا فادخل وعز وركب متوجها إلى قصره فلما كان الغد عزاه مسرور فبكى وقال:

قـــبر عزيـــز عليـــنا ::: لـــو أن مـــن فـــيه يفـــدى
أســـكنت قـــرة عـــيني ::: ومهجـــة الـــنفس لحـــدا
مـــا إن أرى لي علـــيها ::: مـــن الـــتوجع بـــدا

ومن المنقول عنه أيضا

حكى أن الرشيد أكل يوما مع ابنه عبد الله المأمون فأقبلت جارية تصب الماء على يد الرشيد فنظر إليها أومأ إليها بقبلة فأنكرت عليه بعينها وأوجب ذلك أنها أبطأت على الرشيد بصب الماء فقال الرشيد: ما هذا وتوعدها بالقتل إن لم تصدقه فقالت: إن المأمون أشار إليَّ بقبلة فأنكرت عليه بحاجبى فنظر الرشيد إليه وقد كاد يموت جزعا فقال له: يا حبيبى أتحب هذه الجارية؟ وضمه إلى صدره ليسكن لهفه فقال: نعم يا أمير المؤمنين فقال: هى لك فادخل بها إلى تلك القبة ففعل فلما خرج فقال له: يا عبد الله هل قلت في ذلك شيئا قال: نعم وأنشأ:

ظـــبى كتبـــت بطـــرفى ::: مـــن الضـــمير إلـــيه
بقـــبلة مـــن بعـــيد ::: فاعـــتل مـــن شـــفتيه
ورد أخبـــــــث رد ::: بالكســـر مـــن حاجبـــيه
فمـــا برحـــت مكـــانى ::: حـــتى قـــدرت علـــيه

ومن المنقول عن محمد الأمين بن هارون الرشيد

ذكر القاضى الرشيد بن الزبير في كتابه العجائب والظرف قال الفضل بن الربيع: لما ولى الأمين الخلافة في سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرنى أن أحصى ما في الخزائن من الكسوة والفرش والآنية والآلة فاجتمعت كتاب الخزانة وأقاموا يحصون فأشرفت على ما لم أتهم أن خزائن الخلافة تحويه ثم أمرهم أن يعملوا كل صنف من جملة فكان في خزائن الكسوة أربعة آلاف جبة وشيء وأربعة آلاف منسوجة بالذهب وعشرة آلاف

قميص وعشرة آلاف خف وألفا سروال من أصناف الثياب وأربعة آلاف عمامة وألف طيلسان وألف رداء من أصناف الثياب وخمسة آلاف منديل وخمسمائة قطعة خز ومائة ألف وسادة ومخدة خز وألف بساط طبرستانى وألف وسادة خز مرقوم وألف ستر خزساذج وثلاثمائة ستر مرقوم وخمسمائة بساط طبرى وألف وسادة طبرى وألف مرقعة وألف مخدة طبرى ومن الآنية ألف طست ذهب وألف إبريق ذهب وثلاثمائة كانون فضة وألف توذ شمع مذهب وألف قطعة نحاس من سائر الأصناف وألف منطق ذهب انتهى كلامه .

ويحكى عنه أنه كان من أهل الشدة والبطش روى أنه اصطبح ذات يوم فدخلوا عليه بأسد في قفص فقال: ارفعوا باب القفص فقيل له: يا أمير المؤمنين إنه أسد أسود هائل ذو شعر عظيم مثل الثور فقال: خلوا عنه ففتحوا باب القفص وخرج الأسد وزأر وضرب بذنبه الأرض فتهارب الناس وغلقت الأبواب في وجهه وبقى الأمين وحده جالسا في موضعه غير مكترث بالأسد فقصده الأسد حتى دنا منه فمد الأمين يده إلى مرفقة أرمنية كانت بقربه فامتنع بها منه فمد الأسد يده إليه فجذب الأمين يده وقبض على أصول أذنيه وهزه ثم رجع به خلف فوقع الأسد على قفاه ميتا وتبادر الناس للأمين فإذا مفاصل يديه قد زالت عن مواضعها فأتى بمجبر فردها وجلس وكأنه لم يصنع شيئا فشق عن جوف الأسد فوجدوا مرارته قد انفطرت في جوفه . انتهى .

ومن المنقول عنه أيضا

روى حماد عن أبيه إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال: قال إبراهيم بن المهدى جاءني بعض الدلالين فوصف لي جارية أديبة فائقة الجمال بارعة الحسن موصوفة بكل معنى من معانى الجد والهزل محسنة في الغناء فقلت له: اعرضها عليَّ فقال: ليست تحمل إلى مكان ولكن إذا عزمت على اعتراضها عرفنى لأعد أربابها لوقت حضورك فأعرفك لتركب إليهم قلت: أفعل ومضى ووعدنى ليوم بعينه ثم جاء في ذلك اليوم فركبت معه قصدا لا اعترضا ومررت بأم جعفر زبيدة وكان طريقى عليها فسألتنى الخبر فعرفتها خبر الجارية ووافيت فاستعرضتها واستقرأتها واستنشدتها

واقترحت عليها فوجدتها من الكمال في كل معنى لائق مع حسن الخلقة وعذوبة اللسان على أضعاف تلك الصورة التى وصفوها فساومت بها مولاها فأبى أن يبيعها بأقل من عشرة آلاف دينار فاشتريتها من ساعتى بما استام علىَّ وحملتها وسرت بها إلى زبيدة وعرفتها خبرها فأمرت بدخولها عليها فلما رأتها واعتبرتها واختبرتها في كل فن ومعنى فوجدتها زائدة على كل وصف فقالت لي زبيدة: أنا أربحك فيها ربحا ترضاه فقد وقعت منى أحسن موقع ودعت بعشرة آلاف دينار وقالت: هذه ما وزنت ثم دعت بعشرة مثلها وقالت: هذه دلالتك ثم دعت بمثلها وقالت: هذه ربحك وأمرت بالمال فحمل إلى دارى وركبت من عندها وسرت إلى أمير المؤمنين محمد الأمين فعرفته الخبر كله ولم أخرم منه حرفا واحدا فقال: والله لقد شوقتنى إلى رؤية هذه الجارية فقلت: لي البشرى فإنها الساعة والله توافيك فما قمت من عنده حتى حضرت الجارية فلما اعترضها ونظر إلى كمالها في كل معنى أعجب بها جدا وقال: هذه والله فوق ما وصفت، ثم دعا بعشرة آلاف دينار وقال: هذه بشارتك فلما رأت الجارية محلها من الأمين وأنه أعطانى حق بشارتها عشرة آلاف دينار انبسطت وجعلت تتكلم بكل معنى مليح وكان بجرى الخادم يتعشقه الأمين وهو حاضر فعبث بها وعبثت به وكايدها وكايدته بحسن أدبها ومعرفتها وبراعتها وفهمها حتى أبكته فنظر إليه الأمين وهو يبكى فقال: ما يبكيك؟ قال: خير قال: لابد من الصدق قال: أسرفت هذه الجارية علىَّ في القول فداخله الغضب ثم قال: يا غلمان اطرحوها للسبع الساعة وكلم فيها فأبى وحلف ليفعلن فطرحت والله للسبع فلم يزل يفصلها عضوا عضوا حتى لم يبق منها شيء.

ومن المنقول عنه أيضا

روى عن أبى نواس أنه كان قد غلب على قلب محمد الأمين والتهتك فيه والغرام به حتى قال فيه:

عـذب قلـبى ولا أقـول بمـن ::: أخـاف مـن لا يخـاف مـن أحـد
إذا تفكـرت في هـواى لـه ::: لمست رأسى هل طار عن جسدى

واتصلت هذه الأبيات بالمأمون فقال: من يقال فيه مثل هذا يصلح أن يكون خليفة للمسلمين فبلغ ذلك الأمين فأمر بقتل أبي نواس فشفع فيه فأمر بحبسه فلما حبس لم يتمكن من ورقة ولا من دواة فحلق رأس مملوك له وكتب فيه بالفحم هذه الأبيات:

بـك أستجير من الردى ::: متعوذا من سوء بأسك
وحياة رأسك لا أعود ::: لمثلها وحياة رأسك
من ذا يكون أبا نواس ::: إذا قتلت أبا نواسك

وكتب تحت الأبيات إذا قرأ أمير المؤمنين الرقعة يخرقها ثم قال للغلام: سر إلى دار الخلافة فإذا جئتها فناد نصيحة لأمير المؤمنين فإذا دخلت على الخليفة اكشف رأسك ليرى ما فيها مكتوبا ففعل الغلام ما أوصاه به فلما قرأ الأمين الأبيات ضحك وقال: ما أظرفه وألطفه وأمر بإطلاقه . انتهى .

ومن المنقول عن عبد الله المأمون بن هارون الرشيد

روى ابن عبد ربه في العقد الفريد عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال: بينا أنا ذات يوم عند المأمون وقد خلا وجهه وطابت نفسه إذ قال لي: يا إسحاق هذا يوم خلوة وطيب فقلت: طيب الله عيش أمير المؤمنين وأدام سروره فقال: يا غلمان خذوا علينا الباب وأحضروا الشراب قال: ثم أخذ بيدى وأدخلني في مجالس غير المجالس التي كنا فيها وإذ قد نصبت الموائد وأصلح ما كان يحتاج إليه حتى كأنه شيء قد كان تقدم فيه قال: فأكلنا وأخذنا في الشراب فأقبلت الستارات بكل ناحية بضروب الغناء وصنوف من اللهو فلم نزل كذلك إلى آخر أوقات النهار قال: فلما غربت الشمس قال لي: يا إسحاق خير أيام الفتى أيام الطرب قلت: هو والله ذاك يا أمير المؤمنين قال: فإنى فكرت في شيء فهل لك فيه؟ قلت: ترى إنى أتأخر عن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قال: لعلنا نباكر الصبوح في غدوتنا هذه وقد عزمت على دخلة إلى دار الحرم فكن بمكانك ولا ترم فإنى أوافيك عن قريب فقلت: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين ثم نهض إلى دار الحرم فما عرف له خبر إلى أن ذهب من الليل عامته قال إسحاق:

وكان المأمون من أشغف خلق الله بالنساء وأشدهم ميلا إليهن واستهتارا بهن وعلمت أن النبيذ قد غلب عليه وأنهن قد أنسينه أمري وما كان تقدم به إليَّ ووعدنى من رجوعه فقلت في نفسى: هو أعزه الله في لذته وأنا هاهنا في غير شيء وفىَّ بقية وعندى صبية كنت أشتريها وكانت نفسى مطلعة إلى افتضاضها فقمت مسرعا عند ذكرها فقال الخدم: على أى شيء عزمت وأين تريد؟ قلت: أريد الانصراف قالوا: فإن طلبك أمير المؤمنين قلت: إنه أدام الله سروره قد شغله الطرب ولذة ما هو فيه عن طلبى وقد كان بينى وبينه موعد قد جاز وقته لا وجه لجلوسى.

قال إسحاق: وكنت مقدم الأمر في دار المأمون مقبول القول لا أعارض في الشيء إذا أومأت فخرجت مبادرا إلى باب الدار وأصحاب النوبة فقالوا: يا سيدنا إن غلمانك قد انصرفوا قلت: لا ضير وأنا أتمشى إلى البيت وحدى قالوا: نحضر لك دابة من دواب النوبة قلت: لا حاجة لي في ذلك قالوا فنمضى بين يديك بمشعل قلت: لا وأقبلت نحو البيت حتى إذا صرت ببعض الطريق أحسست بحركة البول فعدلت إلى بعض الأزقة لئلا يجوز أحد من العوام فيرانى أبول على الطريق فبلت حتى إذا قمت للمسح ببعض الحيطان فإذا بشيء معلق من تلك الدور إلى الزقاق فما تمالكت أن تمسحت ثم دنوت إلى ذلك الشيء لأعرف ما هو فإذا بزنبيل معلقٍ كبير بأربعة مقانص وإذا هو ملبس ديباجا وفيه أربعة حبال حرير فلما نظرت إليه وتبينته قلت: والله إن لهذا لسببا وإن له لأمرا فأقبلت ساعة أروى في أمرى وأفكر فيه حتى إذا طال ذلك بى قلت: والله لأتجاسرن ولأجلسن فيه كائنا في ذلك ما كان فلما أحس من كان على رأس الحائط بثقله جذبوه إليهن حتى انتهوا به إلى رأس الحائط فإذا بأربع جوار أبكار وإذا هن يقلن: انزل بالرحب والسعة أصديق أم جديد فقلت: لا بل جديد فقلن: ائت يا جارية بالشمعة فأقبلت إحداهن بشمعة وأقبلت بين يدي حتى نزلت إلى دار نظيفة فيها من الحسن والسرور والنظافة ما حرت له ثم أدخلتنى إلى مجالس مفروشة ومناصب موضوعة بصنوف من الفرش الذي لم أر مثله إلا في دار ملك أو خليفة فجلست في أدنى مجلس من تلك المجالس فما شعرت بعد ساعة إلا بضجة وجلبة

وستور قد رفعت في ناحية من نواحى الدار فإذا بوصائف يتسابقن في أيدى بعضهن الشمع وبعضهن المجامر يشجون فيها العود والند وإذا بينهن جارية كأنها تمثال عاج تتهادى بينهن كالبدر الطالع بقد يزرى على الغصن فما تمالكت عند رؤيتها أن نهضت فقالت: مرحبا من زائر أتى وليست تلك عادته وجلست ورفعت مجلسى عن الموضع الذي كنت فيه فقالت: كيف ذا قال؟ قلت: انصرفت من عند بعض إخواني وظننت أنى على وقت فخرجت في وقت ضيق وحركنى البول في بعض الطريق فعدلت إلى هذا الزقاق فوجدت زنبيلا معلقا فحملنى النبيذ على أن جلست فيه فإن كان خطأ فالنبيذ السبب وإن كان صوابا فالله ألهمنيه .

قالت: لا ضير إن شاء الله وأرجو أن تحمد عواقب أمرك فما صناعتك؟ قلت: بزاز قالت: وأين مولدك؟ قلت: ببغداد قالت: ومن أى الناس أنت؟ قلت: من أغنيائهم وأوسطهم قالت: حياك الله وقرب دارك فهل رويت من الأشعار شيئا قلت: شيئا ضعيفا فقالت: ذاكرنا بشيء مما حفظت قلت: جعلت فداك إن للداخل دهشة وبي انقباض ولكن تبدئين بذكر شيء من ذلك فالشيء بالمذاكرة يأتى قالت: لعمرى لقد صدقت فهل تحفظ لفلان قصيدته التي يقول فيها كذا وكذا ثم أنشدتنى لجماعة من الشعراء القدماء والمحدثين من أحسن أشعارهم وأجود أقاويلهم وأنا مستمع أنظر من أى أحوالها أعجب أمن ضبطها أم من حسن لفظها أم من حسن أدبها أم من حسن جودة ضبطها للغريب أم من اقتدارها على النحو ومعرفة وزن الشعر ثم قالت أرجو أن يكون قد ذهب عنك بعض ما كان بك من الحصر والانقباض والحشمة .

فقلت: إن شاء الله لقد كان ذلك قالت: فإن رأيت أن تنشدنا من بعض ما تحفظ فافعل قال: فاندفعت أنشد لجماعة من الشعراء فاستحسنت نشيدى وأقبلت تسألنى عن أشياء من شعرى كالمختبرة لي وأنا أجيبها بما أعرف في ذلك وهى مصغية إليَّ مستحسنة لما آتى به حتى أتيت على ما فيه مقنع قالت: والله ما قصرت ولا توهمت بك في عوام التجار وأبناء السوقة مثل ما معك فكيف معرفتك بالأخبار وأيام الناس قلت: قد نظرت أيضا في شيء من ذلك فقالت: يا جارية أحضرى لنا ما عندك فما

غابت عنا حينا حتى قدمت إلينا مائدة لطيفة نظيفة حسنة قد جمع عليها غرائب الطعام فقالت: إن المعالجة أول الرضاع فتقدمت فأقبلت أعتذر بعض الاعتذار وهى معى تحثنى وتقطع وتضع بين يدي وإنى لمقسم القلب لما أرى من ظرفها وكثرة أدبها حتى رفعت المائدة وأحضرت آنية النبيذ فوضعت بين يدي صينية وقنينية وقدح وبين يديها مثل ذلك وفى وسط المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لم أره اجتمع لولي عهد أو سلطان وقد عبي أحسن تعبية وهى بأجمل هيئة قال إسحاق: فتثاقلت عن الشراب لتكون هى البدية قالت: ما لى أراك متوقفا عن الشراب؟ قلت: انتظارا لك جعلت فداك فسكبت قدحا فشربت ثم قدحا آخر فشربت ثم قالت: هذا وأين المذاكرة بالأخبار وذكر أيام الناس؟ قلت: لعمرى إن هذا لمن أوقاته فاندفعت فقلت: بلغنى أنه كذا وكذا وكان رجلا من الملوك يقال له: فلان ابن فلان وكان من قصته كذا وكذا حتى مررت بعدة من أخبار حسان ومن أخبار الملوك ولا يتحدث به إلا عند ملك أو خليفة فسرت بذلك سرورا شديدا ثم قالت: والله لو حدثتنى بأحاديث حسان لقد كثر تعجبى من أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا وإنما هى من أحاديث الملوك وما لا يتحدث به إلا عند ملك أو خليفة .

فقلت: جعلت فداك إنه كان جار لي ينادم بعض الملوك وكان حسن المعرفة كثير الحفظ فكان ربما تعطل عن نوبته التي كان يذهب إلى دار صاحبه لشغل يمنع عن ذلك أو لأمر يقطع فأمضى إليه وأعزم عليه وأصيره إلى منزلى فربما أخبرنى بشيء من هذه الأحاديث إلى أن صرت من خاصة إخوانه وممن كان لا يفارقه فما سمعت منى فمنه أخذته وعنه استندته فقالت: يجب أن يكون هذا كذا ولعمرى لقد حفظت فأحسنت الحفظ وما هذا إلا لقريحة جيدة وطبع كريم .

قال إسحاق: وأخذنا في الشرب والمذاكرة أبتدئ الحديث فإذا فرغت منه ابتدأت هى في آخره حتى قطعنا بذلك عامة الليل والند وفائق البخور يجدد ويسجر وأنا في حالة لو توهمها المأمون أو تأملها لاستطار سرورا وفرحا ثم قالت لي: يا فلان وكنت قد غيرت عليها اسمى وكنيتى والله إنى لأراك كاملا وإنك في الرجال لفاضل وأنك

لوضيء الوجه مليح الشكل بارع الأدب وما كان بقى عليك إلا شيء واحد حتى تكون قد برعت وبرزت فقلت: وما هو دفع الله السوء عنك؟ قالت: لو كنت تحرك بعض الملاهى أو تتم ببعض الأشعار فقلت: والله لقديما أشتهيه وطال ما كلفت به وحرصت عليه فلم أرزقه فلما طال عنائى به وكلما تقدمت في طلبه كنت منه أبعد وعنه أذهب تركته وأعرضت عنه وإن في قلبى من ذلك لحرقة وإنى لمستهتر به مائل إليه وما أكره أن أسمع في مجلسى هذا من جيده شيئا لتكمل ليلتى ويطيب عيشى قالت: كأنك عرضت بنا قلت: لا والله ما هو تعريض ولا هو إلا تصريح وقد بدأت بالفضل وأنت حرية باستتمام ما تبدأت به فقالت: يا جارية عودا فأحضرت العود فأخذته فما هى إلا أن جسته حتى ظننت أن الدار قد سارت بى وبمن فيها واندفعت تغنى به مع صحة أداء وجودة صوت فقلت: والله لقد أكمل فيك خلال الفضل الرائع والعقل الزاهر والأخلاق الرضية والأفعال السنية فقالت: أما تعرف لمن هذا الصوت ومن غنى به؟ قلت: لا والله قالت: الغنى لإسحاق والشعر لفلان وكان سببه كذا وكذا فقلت: هذا والله أحسن من الغناء فلم تزل تلك حالها في كل صوت تغنيه وهى مع ذلك تشرب وأشرب حتى إذا كان عند انشقاق الفجر جاءت عجوز كأنها داية لها فقالت: أى بنية إن الوقت قد حضر فإذا شئت قال: فلما سمعت مقالها .

نهضت فقالت: عزمت قلت: أى والله فقالت: مصاحبا عليك بستر ما كنت فيه فإن المجالس بالأمانة فقلت: جعلت فداك أفأحتاج إلى وصية في ذلك فودعتها وودعتنى وقالت: يا جارية تقدمى بين يديه فأتت بى إلى باب في ناحية الدار ففتح وخرجت منه إلى طريق مختصرة وبادرت البيت فصليت ووضعت رأسى فنمت فلما انتهيت وإذا برسل الخليفة على الباب فقمت وقد أسرج لي فركبت إلى الدار فلما مثلت بين يدي المأمون قال لي: يا إسحاق جفوناك بما كنا ضمناه لك وتشاغلنا عنك قلت: يا سيدى ليس شيء آثر عندى وأسر إلى قلبى من سرور يدخل على أمير المؤمنين فإذا كمل سروره وطاب عيشه فعيشنا يطيب وسرورنا بسروره متصل ثم قال: فما كان حالك قلت: يا سيدى كنت اشتريت من السوق صبية وكنت متعلق القلب بها فلما تشاغل

أمير المؤمنين عنى وقد كانت فيَّ بقية طالبتنى نفسى بها فمضيت مسرعا وأحضرتها وأحضرت نبيذا فسقيتها وشربت معها وغلب عليَّ السكر فقطعت عما أردت وذهب بى النوم إلى أن أصبحت فقال لي: ما أكثر ما يتهيأ على الناس من هذا فهل لك في مثل ما كنا فيه أمس فقلت: يا أمير المؤمنين وأحد يمتنع من ذلك؟ قال: فإذا شئت فنهض ونهضت فصرنا إلى المجلس الذي كنا فيه بالأمس على مثل حالنا تلك وأفضل حتى إذا كان الوقت وثب فقال: يا إسحاق لا تعزم فإنى أجيئك وقد عزمت على الصبوح فما هو إلا أن توارى عنى وغاب حتى تصور لي وتأملت ما كنت فيه فإذا شيء لا يصبر عنه إلا جاهل ولو بزوال نعمته قال: فنهضت وقال لي الغلمان: الله الله فإنه قد أنكر علينا تخليتك وطالبنا بك وقال: لم تركتموه ولا نحسبك تحب الإيقاع بنا فقلت: والله لا نال أحدكم بسببي مكروه أبدا ولكن أبادر لحاجة والله لا كان لي حبس وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه إذا دخل أبطأ وأنا موافيكم قبل خروجه إن شاء الله قال: فنهضت فما دريت أن صرت إلى الزقاق فوافيت الزنبيل على ما كان عليه فقعدت فيه وأصعدت وصرت إلى الموضع الذي أعرف فلم ألبث إلا هنيهة فإذا بها قد طلعت فقالت: ضيفنا؟ فقلت: أى والله فقالت: أوقد عاودت فقلت: ولا أظن أننى ثقلت فقالت: مادح نفسه يقرئك السلام قلت: هفوة فمنى بالصفح قالت: فعلنا ولا تعد إن شاء الله قال: ثم جلست وأخذنا فيما كنا فيه من المذاكرة والإنشاد وأحضرنا النبيذ ولم تزل على مثل تلك الحال وأفضل وأنست وانبسطت بعض الانبساط وهى مع ذلك لا تزال تقول: لو كنت الآن مع ما أنت عليه أحكمْت من تلك الصنعة شيئا لقد تهيأت وبرعت فأقول: والله لقد حرصت على ذلك وجهدت فيه فما رزقته ولا قدرت عليه ثم أقول: جعلت فداءك ما كان من فضلك البارحة فلا تخلينا منه الليلة فتأخذ في الأغانى وكلما مر صوت حسن طيب جيد بالغ قالت: يا فتى أتدرى لمن هذا؟ فأقول: لا فتقول:لإسحاق فأقول: فإسحاق هكذا جعلت فداءك في الحذق فتقول: بخ إسحاق هذا البيت في بديع الصوت وعتيق الغناء فأقول: سبحان الله لقد أعطى إسحاق هذا ما لم يعطه أحد فتقول: ولو سمعت هذا منه لكنت له أشد

استحسانا وبه أشد كلفا حتى إذا كان في ذلك الوقت وجاءت العجوز فنهضت وودعتها وبادرت إلى المنزل وتوضأت للصلاة وصليت الصبح ووضعت رأسى ونمت فما انتبهت إلا برسل الخليفة فقمت وقد أسرج لي فركبت إلى الدار فما هو إلا أن مثلت بين يدي المأمون حتى قال: يا إسحاق أبيت إلا مكافأة لنا ومعاملة بمثل ما استعلمناه معك قلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما إلى ذلك ذهبت ولا له قصدت ولكننى ظننت أن يكون أمير المؤمنين قد تشاغل بلذته وأغفل أمرى وجال بى الشيطان فأذكرنى أمر تلك الملعونة فبادرت إلى البيت قال: وكان من أمرك ماذا؟ .

قلت: قضيت الحاجة وفرغت من الأمر قال: فقد انقضى ما كان بقلبك منها وواحدة بواحدة والبادى أظلم فقلت: بل أنا يا أمير المؤمنين ألوم وأظلم وإليك المعذرة فقال: لا تثريب عليك هل لك في مثل حالنا؟ قلت: بلى والله قال: فانهض بنا وقام وقمت حتى صرنا إلى الموضع الذي كنا فيه وأخذنا في لذتنا وشرابنا حتى إذا كان الوقت قال لي: يا إسحاق ما عزمت قلت: لا عزم لي يا أمير المؤمنين قال: فعزمت عليك لتجلس حتى أخرج إليك فإنى عازم على الصبوح وقد نغصت عليَّ ذلك منذ يومين فقلت: والله إن شاء الله فطرحت الستارات ودخل إلى الحرم فما هو إلا أن توارى عنى حتى قمت وقعدت وجالت وساوسى وأقبلت أتأمل مجلسى معها ومكانها ومحادثتها والنظر إليها والخروج عن طاعة أمير المؤمنين وما يلحقنى في ذلك سخطه فيسهل كل صعب إذا فكرت في أمرها فوثبت مبادرا .

فاجتمع عليَّ جند الدار وقالوا: إلى أين تريد؟ فقلت: الله الله إن لي قصة وأنا معلق القلب ببعض ما في منزلى وأحتاج إلى مطالعتهم في بعض الأمر فقالوا: ليس إلى تركك من حيلة فلم أزل أرفق بهذا وأقبل رأس هذا ووهبت خاتمى وردائى لآخر حتى تركونى فلما خرجت عن جملتهم لم أرتد عنها حاسرا حتى وافيت الزنبيل فجلست فيه فأصعدت وصرت إلى الموضع وأقبلت على مثل حالها فلما رأتنى قالت: ضيفنا؟ قلت: إى والله قالت: جعلتها دار مقام؟ قلت: جعلت فداءك حق الضيافة ثلاثة ثم إن رجعت فأنت في حل من دمى قالت: والله لقد أتيت بحجة ثم جلسنا

وأخذنا في مثل حالنا من الشرب والإنشاد والمذاكرة والمحادثة حتى إذا علمت أن الوقت قد قارب فكرت في قصتى وأن المأمون لا يفارقنى على هذا وأنى لا أتخلص منه إلا بأن أشرح لـه قصتى وأكشف لـه عن حالى وعلمت أنى إن قلت لـه ذلك طالبنى بمعرفة الموضع والمسير إليه مع ما كان غلب عليه من الميل إلى النساء والاستتار بهن فقلت لها: أتأذنين في ذكر شيء خطر ببالى؟ فقالت: قل ما بدا لك فقلت: جعلت فداءك أراك ممن يقول بالغناء ويعجب به وبالأدب ولى ابن عم هو أحسن منى وجها وأظرف قدا وأكثر أدبا ومعرفة وإنما أنا تلميذ من تلاميذه وحسنة من حسناته ثم هو أعرف خلق الله بغناء إسحاق وأحفظهم لـه قالت: طفيلى ومقترح لم ترض أن لك بيننا ثلاثة أيام حتى احتجت أن تأتى معك بآخر فقلت لها: جعلت فداءك ذكرته لك لتكونى أنت المحكمة إن أذنت وأردت ذلك وإلا فلا أذكره قالت: إن كان ابن عمك هذا على ما ذكرته فلا بأس بأن نعرفه ونشاهده قال: قلت: هو والله أكثر مما وصفت قالت: فإذا شئت فأتينى به في الليلة الآتية ثم حضر الوقت فنهضت وصرت إلى البيت فما وصلت حينا حتى وافيت منزلى قد هجم عليه وإذا برسل الخليفة وأصحاب الشرطة وقد ركبوا إليَّ فلما بصروا بى سحبت بجبل على حالتى تلك حتى انتهوا بى إلى الخليفة فإذا الخليفة المأمون جالس في وسط الدار على كرسى وإذا هو مغتاظ، فقال: يا إسحاق أخروجا عن الطاعة؟! قلت: لا والله يا أمير المؤمنين إنه كانت لي قصة أحتاج فيها إلى الخلوة فأومأ إلى من كان واقفا بين يديه فتنحوا حتى إذا خلونا قلت: كان من خبرى كيت وكيت وفعلت وصنعت ورأيت كذا وكذا فوالله ما فرغت من حديثها حتى قال لي: يا إسحاق أتدرى ما تقول؟ قلت: أى والله إنى لأدرى قال: ويحك كيف لي بمشاهدة ما شاهدت قلت: ما إلى ذلك من سبيل قال: لا والله لابد أن تتلطف لي وتوصلنى إليها فهذا ما لا صبر لعاقل عنه قلت: والله إنى قد تفكرت في قصتى وفيما قدمت عليه من عصيانك وعلمت أنه لا ينجينى إلا الصدق وكشف الحال وقلت: سيطالبنى بذلك أشد مطالبة وقدمت إليه وعدا من ذلك وقلت لها كذا وكذا ووعدتنى في أمرك بكيت وكيت وقالت لي كذا وكذا.

قـال: قد والله أحسنت ولولا ذلك لنالك منى كل مكروه فقلت: الحمد لله الذي سلمنى ثم نهض ونهضت حتى صرنا إلى مجلسنا فأخذنا في لذتنا وشربنا وهو مع ذلك يقول: يا إسحاق حدثنى عنها وصف لي حالها واشرح لي أمرها فوالله ما قطعنا يومنا ذلك إلا بذكرها وما وصلنا آخر النهار والمأمون يصدق من شدة تعلقه بها وما قررت عـنده مـن حالهـا قـال: حتى إذا كان بعد هذه من الليل وهو يقول بعد ساعة: ما جاء الوقـت وأنـا أقـول: بقـى قلـيل والقلق غالب عليه وجاء الوقت ونهضنا فخرجنا من بعـض أبواب القصر ومعنا غلام وأنا على حمار وهو على حمار فلما صرنا بالقرب من منزلها نزلنا ثم قلنا للغلام: انصرف فإذا كان عند انشقاق الفجر فكن هاهنا بالحمارين وأقبلـنا نمشـى مسـتنكرين فقلـت: يجب أن تظهر بريئاً بحضرتها وإكرامى وتدعنى من نخـوة الخلافة وتجبر الملك وكن كأنك تبع لي وهو يقول: نعم أو يحتاج أن توصينى ثم قـال: ويحـك يا إسحاق فإن قالت لي: غن فكيف أصنع؟ قال: قلت: أنا أدفعها عنك وأصدها برفق وحسن مس قال: ثم صرنا إلى الزقاق فإذا بزنبيلين معلقين بثمانية أحبل فقعـد في واحـد وقعـدت في آخر ثم جذب الجوارى فإذا نحن في السطح وبادرن بين أيديـنا حـتى انـتهين بنا إلى المجلس فأقبل المأمون يتأمل الفرش والدار والزى ويتعجب بذلـك إعجابـا شديدا وقعدت في موضعى الذي كنت أقعد فيه وقعد المأمون دونى في الرتبة .

ثم أقبلت فسلمت فما تمالك أن نظر إليها فبهت من حسنها وجمالها وقالت: حياك الله ضـيفنا والله مـا أنصـفت ابـن عمـك إلا رفعـت مجلسه: فقلت ذلك إليك جعلت فداك فقالت: ارتفع فديتك فأنت جديد وهذا قد صار من أهل البيت ولكل جديد لذة فنهض المأمون حتى قعد في صدر المجلس ثم أقبلت عليه تذاكره وتناشده وتمازحه وهو يـأخذ معها في كل فن ويعجبها قال: فالتفتت إليَّ وقالت: وفيت بوعدك وصدقت في قولك ووجب شكرك على صنيعك .

قـال: ثـم أحضـرت نبيذا وأخذنا في الشرب وهى مع ذلك مقبلة عليه وهو مقبل علـيها ومسـرورة بـه ومسـرور بها قال: فالتفتت إليَّ فقالت: ابن عمك هذا من أولاد

التجار؟ قلت لها: فديتك نحن لا نعرف إلا التجارة قالت: وإنكما فيها لغريبان ثم قالت: موعدك فقلت: لعمرى إنه لمجيب ولكن حتى نسمع شيئا قالت: ذلك لك فأخذت العود وغنت صوتا فشربنا عليه رطلا وغنت آخر فشربنا عليه رطلا ثم غنت بصوت كان المأمون يقترحه عليَّ فشربنا عليه رطلا فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال وغلب عليه الفرح وتداخله السرور وارتاح وفرح قال: يا إسحاق ووالله لقد رأيته ينظر إليَّ نظر الأسد إلى فريسته فنهضت فقلت: لبيك يا أمير المؤمنين قال: غنني بهذا الصوت فلما رأتنى قد أخذت العود ووقفت بين يديه علمت أنه الخليفة وأنى إسحاق فنهضت وقال: هاهنا وأومأ إلى مكان قريب منه ثم فرغت من ذلك الصوت وشربنا رطلا ثم قال لي: يا إسحاق ويحك انظر إلى هذه الدار من ربها فخرجت وأقبلت تلك العجوز فقلت لها: ويحك من صاحب هذه الدار ومن مولاكم؟ قالت: الحسن بن سهل قلت: ومن هذه؟ قالت: ابنته بوران فرجعت وأعلمته فقال: عليَّ به الساعة قال: فقلت لها: امضى فأحضريه وأعلميه أن أمير المؤمنين يطلبه قال: فغابت عنا هنيهة ثم جاءت وهو في إثرها فوقف بين يديه فقال: ألك بنت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين قال: فزوجتها؟ قال: لا والله قال: وما اسمها؟ قال: بوران قال: فإني أخطبها منك قال: يا أمير المؤمنين هى أمتك وأمرها إليك قال: فإنى قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفا نحملها إليك في صبيحة يومنا هذا فإذا قبضت المال فاحملها إلينا قال: نعم يا أمير المؤمنين قال: ثم نهض وفتح لنا الباب وخرجنا ثم صرنا إلى الدار قال: يا إسحاق لا يقفن أحد على ما وقفت عليه فإن المجالس بالأمانات .

قلت: يا أمير المؤمنين ومثلى يحتاج إلى وصية بمثل هذا الأمر قال إسحاق: فما أصبحنا حتى أمر بحمل المال ونقلت إليه من يومها وكانت أحظى نسائه عنده وآثرهن وكنت أستر هذا الحديث إلى أن مات المأمون فما اجتمع لأحد ما اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام أنى كنت أنصرف من مجلس المأمون في خلافته إلى منزلها ووالله ما رأيت من الرجال في ملوكهم ولا خلفائهم ولا شرفائهم أحدا أتقى من المأمون ولا شاهدت من النساء امرأة تقارنها فهما وعقلا وحلاوة وشكلا .

وأما معرفتها وأدبها فما أظن أن في الأرض من كان يتهيأ له أن يقف من العلوم على مثل ما وقفت عليه ولقد سألت بعض من كان يتولى خدمتها من عجائزها فقلت: وما حملها على ما أرى؟ فقالت: والله إنها لتفعل هذا منذ كذا وكذا سنة ولقد عاشرت الظرفاء والأدباء أكثر من أن يقع عليه إحصاء ما جرى بينها وبين أحد من الناس مكروه ولا خنى ولا لفظة قبيحة ولا كان مذهبها في ذلك إلا حب الأدب والمذاكرة ومعاشرة أهل المروءة والأقدار لا لريبة ولا لحالة تنكر قلت: فوالله لقد تضاعف قدرها عندي وعظم خطرها في نفسي وعرفت شرف همتها وفضلها، وهذا خبر بوران صحيحا على الحقيقة والسبب الذي تزوجها المأمون به. انتهى.

ومن المنقول عنه أيضا

روى أن المأمون بلغه خبر عشر زنادقة بالبصرة فأمر بحملهم إليه بعد أن سموا له واحدا بعد واحد فلما جمعهم الرسول نظر إليهم طفيلي فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع جيد فدخل بينهم ومضى معهم وهو لا يعرف شأنهم حتى سار بهم الموكلون إلى البحر ثم أتى بزورق فقال الطفيلي: لا شك أن هذه وليمة وركب معهم في الزورق فما أسرع من أن جيء بالقيود فقيد معهم فقال الطفيلي: بلغ في تطفلي إلى القيد إنا لله وإنا إليه راجعون ثم سير بهم إلى بغداد فوقفوا بين يدي المأمون وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا واحدًا ثم يضرب عنقه حتى إذا بلغ إلى الطفيلي لم يكن اسمه مرموقا فقال للموكلين بهم: من هذا؟ قالوا: والله يا أمير المؤمنين ما نعلم غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال له المأمون: ما خبرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين امرأته طالق ثلاثا إن كان يعرف من قصتهم شيئا وإنما أنا رجل طفيلي رأيتهم مجتمعين فظننته صنيعا يدعون إليه فضحك المأمون وقال: اضربوا عنقه لئلا يغتر غيره وكان إبراهيم بن المهدى قائما على رأس المأمون فقال: يا أمير المؤمنين هبني دمه وأحدثك بحديث غريب في التطفل عن نفسي.

قال المأمون: قد وهبته لك فحدثني قال: يا أمير المؤمنين خرجت من عندك يوما فطفت في سكك بغداد متنزها حتى أتيت إلى موضع فشممت أبازير قد فاح طيبها

فتاقت نفسي إليها وإلى طيب ريحها فوقفت على خياط فقلت: لمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من تجار البزازين قلت: فما اسمه؟ قال: فلان ابن فلان فرميت بطرفي إلى الدار فإذا بشباك فيها مطل فنظرت إلى كف ومعصم قد خرجا من الشباك فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة الطيب وبقيت باهتا ساعة ثم أدركني ذهني فقلت للخياط: أهو ممن يشرب النبيذ قال: نعم وأحسب أن عنده اليوم دعوة وليس ينادم إلا تجارا مثله مستورين فبينما أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب فقال لي الخياط: هذان ندماه فقلت له: ما اسمهما؟ قال لي: فلان وفلان فحركت دابتي وقلت: جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان أعزه الله وسايرتهما حتى بلغا الباب فأجلاني وأدخلاني ودخلا خلفي فلما رآني معهما صاحب المنزل لم يشك أني منهما بسبيل لأنهم قد أدخلوني وأجلوني فرحب بي وأجلسني في أفضل المواضع فجيء يا أمير المؤمنين بالمائدة عليها خبز لطيف وأتينا بتلك الألوان فكان طعمها أطيب من ريحها فقلت في نفسي: هذه الألوان قد أكلتها وبقي الكف والمعصم كيف أصل إلى صاحبتهما ثم رفع الطعام وجيء بالشراب ثم صرنا إلى مجلس المنادمة فجعل صاحب المنزل يلطف بي ويميل إلى الحديث وجعلوا يظنون أن ذلك بي عن معرفة قديمة حتى إذا شربنا أقداحا خرجت علينا جارية كأنها قمر تتثنى كالخيزران فأقبلت وسلمت غير خجلة وثنيت لها وسادة فجلست وأتى بالعود فوضع في حجرها وجسته في جسة العود لحذقها وجعلت تغني:

توهمها فكري فأصبح خدها ::: وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها كفي فآلم كفها ::: فمن لمس كفي في أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلابلي فطربت لحسن شعرها وحذقها ثم اندفعت تغني:

أشرت إليها هل عرفت مودتي ::: فردت بطرف العين أني على العهد
فحادت عن الإظهار عمدا بسرها ::: وحدت عن الإظهار أيضا على عمد

فجاءني يا أمير المؤمنين من الطرب ما لم أمسك به نفسي ثم اندفعت تغني:

أليس عجيبا أن بيتا يضمني ::: وإياك لا نخلو ولا نتكلم

سوى أعين تشكو الهوى بجفونها ::: وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب ::: وتكسير أجفان وكف تسلم

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء وإصابتها معنى الشعر وأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأت منه فقلت: بقى عليك يا جارية فضربت بعودها الأرض وقالت: متى كنتم تحضرون البغضاء؟ فندمت ورأيت القوم قد تغيروا علىَّ فقلت: أما عندكم عود غير هذا؟ قالوا: بلى فأتيت بعود فأصلحت شأنه ثم غنيت شعرا:

ما للمنازل لا يجبن حزينا ::: أصممن أم بعد المدى فبلينا
راحوا العشية روحة مذكورة ::: إن متن متنا وإن حيين حيينا

فما استتمته يا أمير المؤمنين حتى قامت الجارية فانكبت على رجلى تقبلها وقالت: معذرة يا سيدى فوالله ما سمعت أحدا يغنى هذا الصوت مثل غناك وطرب القوم واستحسنوا الشراب فشربوا ثم اندفعت أغنى:

أبالحق أن أمسى ولا تذكرونى ::: وقد سجمت عيناى من ذكرك الدما
إلى الله أشكو بخلها وسماحتى ::: لها عسل منى وتبذل علقما
فردى مصاب القلب أنت قتلته ::: ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما

فطرب القوم يا أمير المؤمنين ثم خرجوا من عقولهم فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعت إليهم عقولهم ثم غنيت شعرا:

هذا محبك مطوى على كمده ::: فاضت مدامعه فيضا على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته ::: مما به ويد أخرى على كبده
يا من رأى عاشقا مستهترا دنفا ::: كانت منيته في عينه ويده

فجعلت الجارية تصيح وتقول: هذا والله يا سيدى العيش لا ما كنا فيه منذ الليلة وسكر القوم وكان صاحب المنزل حسن الشراب صحيح العقل فأمر الغلمان أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم وخلوت معه فلما شربنا أقداحا قال: يا سيدى ذهب ما مضى من أيامى ضياعا إذ كنت لا أعرفك فمن أنت يا مولاى؟ ولم يزل يلح علىَّ حتى أخبرته الخبر وقصصت له قصتى حتى بلغت إلى صاحبة الكف والمعصم فقال

للجارية: قومى فقولى لفلانة تنزل فلم يزل ينزل جارية بعد أخرى فأنظر إلى كفها ومعصمها فأقول: ليس هى حتى قال: ما بقى والله غير أختى وأمى والله لأنزلنهم إليك فعجبت من كرمه وسعة صدره.

فقلت: جعلت فداك ابدأ بالأخت قبل الأم فعسى أن تكون هى فبرزت فلما رأيت كفها ومعصمها قلت: هذه هى فأمر غلمانه فساروا إلى عشرة مشايخ من أجلة جيرانه فأقبلوا بهم وأمروا ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم ثم قال للمشايخ: هذه أختى فلانة أشهدكم أنى قد زوجتها من هذا الرجل وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم فرضيت فقال: قد قبلت النكاح فدفع إليها بدرة وفرق الأخرى على المشايخ وقال لهم: انصرفوا وقال لي: يا سيدى أمهد لك في بعض البيوت مع أهلك فقلت: بل أحملها إلى منزلى فوالله يا أمير المؤمنين لقد تبعها من آلة البيت والفرش ما ضاقت عنها البيوت وأخبرتها أنى إبراهيم بعد ذلك فدخل عليها من السرور ما ليس له حد وولد لي منها هذا الغلام القائم على رأسك يا أمير المؤمنين فتعجب المأمون من كرم الرجل وأطلق الطفيلى .اهـ.

ومن المنقول عنه أيضا

روى عن إبراهيم بن المهدى أنه كان قد ادعى الخلافة لنفسه بالرى فأقام مالكا لها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة أحسنها ما حكاه عن نفسه قال: لما دخل المأمون الرى طلبنى أشد الطلب وجعل لمن أتاه بى مائة ألف درهم فخشيت على نفسى وتحيرت في أمرى وخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى أين أتوجه فمررت على وجهى فوقعت في زقاق لا ينفذ فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون إن عدت على أثرى يرتاب بى فرأيت في الدرب عبدا أسوداً قائما على باب داره فتقدمت إليه وقلت: أعندك موضع أقيم فيه ساعة من النهار فقال: نعم وفتح الباب وقد خلا إلىَّ بيتا نظيفا فيه حصر ومخاد ثم أغلق الباب علىَّ ومضى فتوهمته قد سمع الجعالة فيَّ وأنه قد خرج ليدل علىَّ فبقيت على النار قلقا فبينما أنا كذلك إذ أقبل ومعه حمال معه كل ما يحتاج إليه من خبز وقدر جديد وآلاتها وكيزان

جدد فحط عنه ثم التفت إليَّ وقال: جعلنى الله فداك أنا رجل حجام وأنا أعلم أنك تنفر منى لما أتولى من صنعتى فشأنك بما لم تقع عليه يدي وكان لي حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت فورا فما أذكر أنى أكلت قط مثلها فلما قضيت حاجتى من الطعام قال لي: فهل لك في الشراب فإنه يسلى الهم ويطيب العيش ويدفع عن النفس الغم؟ قلت: ما أكره ذلك رغبة في أن أؤانسه فأتى بقطر ميز جديد لم تمسه يد وجاءنى بشراب وقال لي: روق يا مولاى لنفسك فروقت وأحضر لي قدحا جديدا وفاكهة وأنقالا مختلفة في طشوت من فخار ثم قال لي بعد ذلك: تأذن لي - جعلت فداك - أن أقعد ناحية منك وآتى بنبيذ أشرب منه سرورا بك فقلت له: افعل فأحضر وشرب وشربت ودخل إلى بيت له فأخرج عودا مصلحا ثم قال: يا سيدى ليس عن قدرى أن أسألك أن تغنى ولكن قد وجب عليَّ من ذلك حرمتى فإن رأيت أن تشرف عبدك بأن تغنى لنفسك فافعل فقلت: ومن أين لك إنى أحسن الغناء؟ فقال معجبا: يا سبحان الله أنت أشهر من ذلك أنت إبراهيم بن المهدى خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن دل عليك مائة ألف درهم فلما قال لي ذلك عظمت هيبته ومروءته عندى وعلمت أن نخوته أجلُّ مما يدلِ عليَّ فتناولت العود وأصلحته ومر على خاطرى فراق أهلى وولدى فغنيت:

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله ::: وأعزه في السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا ويجمع شملنا ::: والله رب العالمين قدير

فقال: يا سيدى أتجعل الذي تغنيه مما أقترحه عليك؟ قلت: نعم فقال: غن يا سيدى:

إن الذي عقد الذي انعقدت به ::: عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فإن الله يعقب راحة ::: فلعلها أن تنجلى ولعلها

فغنيته فشرب وشربت ثم قال: غن يا سيدى:

فلا تجزع وإن أعسرت يوما ::: فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر ::: لعل الله يغنى عن قليل
ولا تظنن بربك غير خير ::: فإن الله أولى بالجميل

فغنيته وشرب وشربت فقال: لله على نذر إذا آنستنى بقربك وما كنت أحسب أن

الزمان يسمح بكونك في منزلي فإن رأيت جعلت فداك أن تغنى فغن:

وإذا تنازعني أقول لها اصبري ::: موت يريحك أو علو المنبر
ما قد مضى يا نفس فاصطبري له ::: ولك الأمان من الذي لم يقدر

فغنيته وحسن في نفسى اقتضاؤه واستظرفته ثم قال لي: يا سيدى أتأذن لي أن أغنى وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة؟ فقلت: هذا زيادة في أدبك ومروءتك فأحسن العود واندفع يغنى:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ::: فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ::: سراعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليل المضر بذى الهوى ::: جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما ::: نلاقى لكانوا في المضاجع مثلنا

فوالله لقد استحسنت الغناء وسرني وذهب عنى ما كان عندى من الهلع وأنسته وسألته أن يغنى فغنى شعرا:

تعيرنا أنا قليل عدادنا ::: فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ::: عزيز وجار إلا كثيرين ذليل
وإنا لقوم لا نرى الموت سبة ::: إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا ::: وتكرهه آجالهم فتطول

فداخلنى من الطرب ما لا مزيد عليه وعاجلنى السكر وإياه فلم نستيقظ إلا بعد المغرب فعاودنى فكرى ونفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرافته وكيف اقتضانى من الغناء ما أراد به أن يسلينى وغنائي ما فيه إشارة التسلى فقمت وغسلت وجهي وأيقظته وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير كثيرة فرميت بها إليه وقلت له: أستودعك الله فإني ماض من عندك وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك ولك عندي المزيد إن أمنت من خوفي فأعادها إليَّ متنكرا وقال لي: يا سيدي إن الصعلوك منا لا قدر له عند ذوي الرياسات وتظن به الظنون الردية آخذ على ما وهبنيه الزمان من قربك وحلولك عندي ثمنا فألححت عليه فأومأ إلى موسى كانت عنده وقال: والله لئن راجعتنى في شيء لأقتلن نفسي فخشيت عليه وأخذت الخريطة

وأعدتها كما هى إلى كمي وقد أثقلنى حملها فلما انتهيت إلى باب داره معولا على الانصراف عنه قال لي: يا سيدى هذا الموضع أخفى لك من غيره وليس في مؤنتك ثقل فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن يكون منفقا من الخريطة فلم يفعل وكان كل يوم يفعل مثل ما فعله في اليوم الأول فأقمت أياما في ألذ عيش وتكرهت من الإقامة في مؤنته واحتشمت من التثقيل عليه فتركته وقد مضى يجدد لنا حالنا فقمت وتزينت بزى النساء وخرجت فلما صرت في وسط الطريق داخلنى خوف شديد وجئت لأعبر الجسر وقد رش وصار زلقا فنظرنى جندى ممن كان يخدمنى فعرفنى وقال: هذه حاجة أمير المؤمنين فتعلق بى فمن حلاوة الروح دفعته وفرسه فرميت بهما في ذلك الزلق فصار عبرة للناس والناس يلعنونه فأسرعت في المشى حتى قطعت الجسر فدخلت زقاقا فوجدت باب دار وامرأة في دهليز الدار فقلت: يا سيدة النساء أخفينى يومى فإنى رجل خائف فقالت: على الرحب وأطلعتنى إلى غرفة وفرشت لي حصير وأحضرت لي طعاما وقالت لي: هدئ من روعك فما يعلم بك مخلوق عندى ولو أقمت سنة فبينما هى معى في ذلك الحديث وإذا بالباب يدق دقا عنيفا فخرجت وفتحت الباب وإذا بصاحبى الذي دفعته على الجسر وهو مشدود الرأس ودمه يجرى على ثيابه وليس معه فرس فقالت له: يا هذا ما دهاك؟ فقال لها: إن حديثى عجيب ظفرت بالغنا وأفلت منى قالت: وكيف ذلك: قال: لقيت إبراهيم بن المهدى فتعلقت به فدفعنى فأصابنى ما ترين وانفلت منى ولو كان وقع في يدي وحملته إلى المأمون لتعجلت بمائة ألف درهم قال: فأخرجت له خرقا وعصبت رأسه وفرشت له ونام عليلا وطلعت إلىَّ وقالت: أظنك صاحب القضية فقلت: نعم فقالت: لا بأس عليك ثم جددت الكرامة فأقمت عندها ثلاثا ثم قالت: إنى خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على شيء من أمرك فينم بك فاخرج بنفسك فسألتها إمهالى إلى الليل فأجابت فلما دخل الليل لبست زى النساء وخرجت من عندها فأتيت بيت مولاة لي فلما رأتنى بكت وتوجعت لي وحمدت الله على سلامتى وخرجت كأنها تريد السوق والاهتمام بالضيافة فظننت خيرا فما شعرت إلا بإبراهيم الموصلى

بنفسه في خيله ورجله والمولاة معه حتى سلمني إليه فرأيت الموت عيانا وحملت بزى النساء إلى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلني إليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال: لا سلمك الله ولا حياك ولا رعاك فقلت: على رسلك يا أمير المؤمنين إن ولى الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب إلى التقوى وما تناولته يد الاغترار بما أعد لها من أسباب الرجا لا تأمن من دعابة الدهر وقد جعلك الله فوق كل عفو كما جعل كل ذنب دون عفوك فإن تأخذ فبحقك وإن تعف فبفضلك ثم أنشدت:

ذنبي إليك عظيم ::: وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا ::: فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن في فعالى ::: من الكرام فكنه

فرفع رأسه إلى فبدرته وقلت:

أتيت ذنبا عظيما ::: وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمنّ ::: وإن أخذت فعدل

فرق لي المأمون فاستروحت روائح الرحمة من شمائله ثم أقبل على أخيه أبى إسحاق وابنه العباس وجميع من حضر من خاصته فقال: ما ترون من أمره فكلهم أشاروا بقتلى إلا أنهم اختلفوا في القتل كيف يكون فقال المأمون لأحمد بن أبى خالد: ما تقول يا أحمد؟ قال: يا أمير المؤمنين إن قتلته وجدت مثلك قتل مثله وإن عفوت عنه لم أجد مثلك عفا عن مثله فنكس المأمون رأسه ينكت بأصبعه في الأرض ورفع رأسه وقال متمثلا:

قومى هم قتلوا أميم أخى ::: فإذا رميت لأوهنن سهمى
فلئن عفوت لأعفون جللا ::: ولئن سطوت لأوهنن عظمى

فكشفت المقنعة عن رأسى وكبرت تكبيرة عظيمة وقلت: عفا والله عنى أمير المؤمنين فقال المأمون: لا بأس عليك يا عم فقلت: يا أمير المؤمنين ذنبى أعظم من أن أتفوه معه بعذر وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكن أقول:

إن الذي خلق المكارم كلها ::: في صلب آدم للإمام السابع
ملأت قلوب الناس منه مهابة ::: وتظل تكلأهم بقلب خاشع

فعفوت عمن لم يكن عن مثله ::: عفو ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أطفالا كأفراخ القطا ::: وحنين والدة بقلب جازع
ما إن عصيتك والغواة تمدني ::: أسبابها إلا بنية طائع
رد الحياة علىَّ بعد ذهابها ::: كرم المليك العادل المتواضع

فقال المأمون: لا تثريب عليكم اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فقلت:

رددت مالي ولم تبخل علىَّ به ::: وبعد ردك مالي قد حقنت دمي
فبنت عنك وقد خولتني نعما ::: هما الحياتان من موتي ومن عدمي
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ::: والمال حتى تسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت ::: إليك لو لم تعدها كنت لم تلم
وإن جحدتك ما أوليت من نعم ::: إني إلى اللوم أولى منك بالكرم

فقال المأمون: إن من الكلام كلام كالدر وهذا منه وأمر له بمال وخلع وقال: يا إبراهيم إن العباس وإسحاق أشارا علىَّ بقتلك فقلت: إنهما نصحا لك يا أمير المؤمنين ولكن أبيت إلا ما أنت أهله فقال المأمون: قد مات الحقد عليك وعفوت عنك ثم سجد طويلا ورفع رأسه فقال: يا إبراهيم أتدرى لم سجدت؟ فقلت: شكرا لله الذي أظفرك بعدو دولتك فقال: ما أردت ذلك ولكن شكرت الله على ما ألهمنيه من العفو عنك حدثني الآن بحديثك فشرحت له صورة أمرى وما جرى لي مع الحجام والجندى والمولاة التي سلمتنى إلى إبراهيم فأمر المأمون بإحضارها وهى في دارها تنتظر الجائزة فقال لها: ما حملك على ما فعلت مع إنعام إبراهيم وأهله عليك؟ فقالت: رغبة في المال فقال: هل لك من ولد أو زوج؟ قالت: لا فأمر بضربها مائة سوط ثم أحضر الجندى وامرأته والمزين فأحضروا وسأل الجندى عن السبب الذي حمله على ما فعل فقال: الرغبة في المال فقال له المأمون: أنت أولى بأن تكون حجاما من أن تكون من أوليائنا ووكل به من ألزمه الجلوس في دكان الحجام واستخدم زوجته قهرمانة في قصره وقال: هذه امرأة عاقلة أديبة تصلح للمهمات ثم قال للحجام: قد ظهر من مروءتك ما تجب به المحافظة عليك وسلمه دار الجندى ودابته

وخلع عليه وكتب لـه رزقه مضاعفا وزيادة ألف دينار . انتهى .

ومن المنقول عنه أيضا

روى أحد خدام أمير المؤمنين المأمون قال: طلبنى المأمون ليلة وقد مضى من الليل ثلثه ، وقـال لـي: خـذ معـك فلانا وفلانا واذهب مسرعا لما أقولـه لك فإنه بلغنى أن شـيخا يحضـر لـيلا إلى آثـار دور البرامكة وينشد الأشعار ويذكرهـم ويبكى عليهم ثم ينصرف فامضوا الآن حتى تروا هذه الخرابات فاستتروا خلف بعض الجدران فإذا جاء الشـيخ وبكـى وأنشـد فـأتونى به: قال: فنهضنا حتى أتينا الخرابات فإذا نحن بغلام قد أتـى ومعـه بسـاط وكرسـى وإذا شـيخ لـه جمـال وعلـيه مهابة قد أقبل فجلس على الكرسى وجعل يبكى ويقول شعرا:

ولمـا رأيـت السـيف جـندل جعفرا ::: ونـادى مـناد للخلـيفة في يحـيي
بكيـت عـلى الدنـيا وزاد تأسـفى ::: علـيهم وقلـت الآن لا تـنفع الدنيا

مـع أبـيات أطالهـا وردده‍ـا فـلما فرغ قبضنا عليه وقلنا: أجب أمير المؤمنين ففزع فـزعا شـديدا وقـال: دعونى حتى أوصى فإنى لا أوقن بعدها بحياة ثم تقدم إلى بعض الدكـاكين وأخـذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ثم سرنا به حتى تمثل بين يـدي أمير المؤمنين فلما رآه انتهره فقال لـه: من أنت؟ وبم استوجب منك البرامكة ما تفعلـه في خرائـب دوره‍ـم؟ فقـال: يـا أمـير المؤمنين إن للبرامكة عندى أياد خضرة ، أفـتأذن لي أن أحدثك حالى معهم؟ قال: قل . قال: يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة مـن أولاد الملـوك وقـد زالـت عـنى نعمـتى كما تزول عن الرجال فلما ركبنى الدين واحتجـت إلى بـيع مسـقط رأسـى أشـار عـلىَّ بعـض أصحابى بالخروج إلى البرامكة فخرجـنا مـن دمشـق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبية وصبيا وليس معنا ما يباع وما يـرهن حـتى دخلـنا بغـداد فنزلـنا في بعـض المسـاجد وكان عندى أثواب لي أعددتها لأتجمـل بهـا فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شيء عندهم ودخلت شوارع بغداد سائلا عن دور البرامكة فإذا مسحة من خزف وفيه مائة شيخ بأحسن زى وزينة وعلى الـباب خـادم فدخلـت وجلست بين أيديهم والعرق يسيل منى لأنها لم تكن صناعتى

وإذا بالخادم أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا على يحيي بن خالد فدخلت معهم وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان فسلمنا عليه فرد أحسن رد ثم أمرنا بالجلوس فجلسنا فبينما نحن كذلك وإذا غلام أمرد قد خط عذاره قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة غلام مقرطون في وسط كل غلام منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ومع كل واحدة مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود قرن إلى مثله من العنبر فوضعت بين يدي الغلام وجلس الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى للقاضي: تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن عمى هذا فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطت من ذلك ملء كمى ونظرت وإذا نحن بالمكان ما بين يحيى والمشايخ والغلام مائة واثنى عشر رجلاً فخرج إلينا مائة واثنى عشر خادما مع كل خادم صينية والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ويقومون الأول فالأول حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني غلام وجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمى وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم: ائتني بذلك الرجل فرددت إليه فأمرت بسكب الدنانير والصينية وما كان في يدي ثم أمرني بالجلوس فجلست فقال: من الرجل؟ فقصصت عليه قصتي فقال للخادم: ائتني بولدي موسى فأتى به؟ فقال: يا بني هذا الرجل غريب فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى على يدي وأدخلني دارا من دوره فأكرمني غاية الإكرام فأقمت عنده يومين وليلتين في الرغد دائم السرور فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن أبى أمرني بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فخذه إليك وأكرمه فأخذنى وأكرمنى غاية الإكرام فلما كان الغد سلمني إلى أخيه أحمد ولم أزل في أيدى القوم يتداولونى عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أهم في الأحياء أم هم في الأموات فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم وقالوا لي: قم فاخرج إلى عيالك فقلت في نفسى: أخرج إليهم في هذه الحالة إنا لله وإنا إليه

راجعون فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ثم رفع الخادم الستر وقال لي: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلىَّ فإنى مأمور به فلما رفعت الستر رأيت حجرة كالشمس نورا فاستقبلني فيها روائح الند والمسك والعود وإذا بصبيانى وعيالى يتقلبون في الحرير والديباج وحمل إلىَّ ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير وبنادق المسك وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين ما نزل أجحف عمرو ابن مسعدة وألزمنى في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى به محصولهما فلما تحامل علىَّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلى وفاء لهم على إحسانهم فقال المأمون: علىّ بعمرو فلما أتى به إليه قال: يا عمرو تعرف هذا الرجل؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين هو من صنائع البرامكة قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا، قال له: رد له كل ما أخذت منه في مدته ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده قال: فعلا نحيب الرجل وبكاؤه فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له: يا هذا: قد أحسنا إليك فلم تبكى قال: يا أمير المؤمنين وهذا من صنائع البرامكة لو لم آت دورهم فأبكهم حتى اتصل خبري بك وحتى فعلت بي ما فعلت أنى كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم بن ميمون: فقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال: هذا لعمري من صنائع البرامكة فاشكر لهم ولإحسانهم . اهـ .

ومن المنقول عنه أيضا

روى بعض أهل الأدب: أن فتى من أهل الكوفة كان قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة واللسان ناقدا في صناعته حاذقا في براعته حسن الخط جيد الضبط بليغا في الترسل فطنا في التأمل حافظا للأخبار راويا للأشعار خبيرا بسير الملوك في الأيام السالفة بصيرا بالبحث عن أمورهم في الأيام الآنفة حاذقا في التصنيف فائقا في التأليف صبيح الوجه مقبول الشاهد حسن الشمائل وكان مع ذلك محروما لا يتوجه له وجه

مـن العمل إلا عاقه عائق وحال دونه حائل قدر سابق فبقي على ذلك حينا من الدهر ، وقـد بـرز علـيه في القـدر والمـال والجـاه مـن كان عنه في الصناعة متأخرا فضاق صدره فخـرج إلى بغـداد واكـترى في بعـض خاناتها منزلا وأجمع رأيه على أن يجمع نفسه على خطـة هائلـة يكـون فـيها هلكـه أو ملكـه ، وتربص بذلك وقتا إلى أن عزم أمير المؤمنين المـأمون أن يشـرب هـو وأخـوه المعتصـم فأمـره بالاسـتعداد لـيوم سماه يخلوان فيه مع الجواري منفردين عن سائر الندماء وظهر خبرهما بذلك وعرف الناس ذلك اليوم الذي عـزما علـيه فعـزم هـذا الشـاعر المذكـور أن يـتطفل في ذلـك الـيوم على الخليفة وأخيه المعتصـم ومضـى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من أحدهم قباء فرجية ومن آخر منطقة وسيفا ومن آخر برذونا واستعد لذلك اليوم ودخل الحمام سحرا وتطيب ولبس وركب عـند طلـوع الشـمس وقال للحاجب: أنا رسول أمير المؤمنين فاستأذن لي عليه . فسعى الخـادم عـدوا حـتى أخـبر المعتصـم فـأذن لــه فـلما دخل عليه مثل بين يديه وقال لـه: يـا سـيدى إن أمـير المؤمنين يقرئك السلام ويقول: أنسيت الموعد أنفذ إليك في الركوب لـتخلو ونسـتريح يومنا هذا؟ قال: لا ، والله ما نسيت ذلك ولكنى تربصت ساعة ونمت نومـة لأتقـوى بذلـك عـلى الانتصـاب سائر النهار . قال الفتى: فعجل أيها الأمير فإنه أمـرنى ألا أفارقك حتى آتيه بك فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب ولبس ثـيابه وتطيـب ثم ركب وركب الفتى معه والمعتصم لا ينكر شيئا من كلام الفتى ويتأمل نظافـته وهـيأته ويـتوهم أنـه بعض خواص المأمون وأخذ الفتى يحدث المعتصم بالأخبار والـنوادر حـتى حـلى بقلـب المعتصـم وأقـبل علـيه بكليته ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاسـتماع حديـثه حـتى بلـغ بـاب الخلـيفة فألقى نفسه عن دابته وجعل يسعى بين يدى المعتصـم والحجـاب لا يـنكرون مـنه شيئا ويظنون أنه من بعض خواص المعتصم وأخذ الفـتى بـركابه ودخـل معـه فـلما اسـتقر المعتصم أصغى إليه تعجبا مما يسمع من حسن كلامه فأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل وأنه معه فتى لا يدرى من هو .

قال المأمون: أخي قد عرف هذا المجلس قد اتفقنا عليه لا يحتمل أن ينظره أحد من الـناس إلا مـن هو كعدل النفس وقد أحسن أخي إذ جعل لنا ثالثا وخرج المأمون من

ساعته فرحا ليس همه إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قدره فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون فتمكن قائما وقبّل يد المأمون وعاد إلى مجلسه وأخذ في حديثه ونوادره وعجائبه وعجائب مضحكاته وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المأمون وأظهر الحسد لأخيه في صحبته لمثل هذا الغلام وأمر المأمون بإحضار المائدة فنصبت بأنواع الطعام والشراب فأكلوا وإلى مجلس الشراب انتقلوا فأمر المأمون بإحضار الجواري من غير ستارة فحضرن وأخذن في الغناء فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به وبقائله والمغنى فيه ومتى قيل وفيمن قيل فعظم في نفس المأمون حتى ملأ عينه وتزايد حسده لأخيه في صحبته مثله حتى مس الفتى بول ولم يجد للمدافعة سبيلا وهو مستيقن أنهما سيذكرانه ويتواصفان حاله إذا خلا المجلس منه فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما فقال المأمون لأخيه المعتصم: يا أبا إسحاق من صاحبك هذا فوالله ما رأيت رجلا أكثر منه أدبا ولا أنظف منه هيئة؟ قال المعتصم: والله ما أعرف من هو بل جاءنا مبكرا برسالة أمير المؤمنين فقال المأمون: سألتك بالله يا أخي هل هو كذلك؟ قال: أي والله الذي لا إله إلا هو . قال المأمون: هذا طفيلي ورب الكعبة فغضب وأومأ إلى الجواري بالنهوض فنهضن وأقبل الفتى فلما رأى خلو المجلس من الجواري أقبل بوجهه على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق كأني بك وقد أحدثت فيَّ نوعا من الزور هذا المجلس من المجالس التي لا تحتمل المزاح وما هكذا أوعدتني .

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بليت بأحد من الناس مثل ما بليت به من هذا إلا أنه يعرضني لمثل هذا وأشباهه ويوقعني في كل ورطة ثم أقبل على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتني من مداعبتك التي لا تحتمل فالتفت المأمون إلى أخيه المعتصم وقال: سألتك بالله يا أخي وبحياتي عليك إلا ما أخبرتني فقال المعتصم: برئت من الله ورسوله ومن حياتك إن كنت أعرفه أو رأيته قط إلا يومي هذا قال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري إلا طول في

مصر كذا وموضع كذا يوم كذا وإن هذا لفعله معي أبدا فضحك المأمون تعجبا وقال: ادخل فدخل وأمره بالجلوس فجلس وقال له: لك الأمان إن صدقتني فصدقه الحديث على وجهه فعجب المأمون من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه فأمر المأمون بإعادة الجواري إلى مجلسهم فطربوا سائر يومهم وقال المأمون: أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظما ونثرا ولا تكتم شيئا؟

فقال: نعم وأنشأ يقول:

بينا أنا راقد في البيت مكتئب ::: مفكر في أمور اللهو والليت
وليس في البيت من شيء ألم به ::: وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
وإذ بصوت بباب الدار أسمعه ::: والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجا ::: فقال لي فرج زن لي كرا البيت

قال: فضحك المأمون ثم قال: ماذا؟ قال: خرجت يا أمير المؤمنين فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء فوعدته يرجع إليّ مرة أخرى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه فسألت كل من لقيته عن صديق لي كنت آنس به مديما وربما استقضيت منه شيئا فما لقيت في ذلك الطريق أحدا يخبرني عنه فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك المكان فقلت:

غريب الدار ليس له طريق ::: جميع سؤاله أين الطريق
تعلق بالسؤال لكل شخص ::: كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت على باب أمير المؤمنين جارية بوجه كالقمر ليلة كماله وهى تقول هذه الأبيات:

ترفق يا غريب فكل حر ::: يمر بحاله سعة وضيق
وكل ملمة إن أنت فيها ::: صبرت لها أتيح لها الطريق

ثم قالت: خذ هذه فادفع بها فاقتك فوالله ما هى إلا مواساة من قوت ورمت إلى صدري بقرطاس فإذا فيه عشرة دراهم فقط ثم رجعت من فوري فوجدت صاحب الخان قائما إلى الباب فدفعت إليه خمسة دراهم واستمتعت بالباقي إلى أن وقعت لي هذه القصة فهذا الأمر الذي كلفني على ما فعلته ثم أنشأ يقول:

لم آت فعـلا غـير مستحسـن ::: جهـلا بفعـل الأحسـن الأصـلح
لكـنني في حالـة أوجبـت ::: ضـرورة إتـيان مسـتقبح

فأعجب المأمون ذلك واستحسنه وأمر له بألف درهم يصلح بها شأنه وألحقه بمراتب الخاصة ورفعت منزلته عنده فكان أقرب الناس إليه وأول داخل عليه وآخر خارج من عنده وسمي طفيلي المعتصم فقال هذه الأبيات:

كانـت لقلـبي أهـواء مفـرقة ::: فاسـتجمعت إذ رأتـك الـيوم أهواى
وصـار يحسـدني مـن كنت أحسده ::: وصـرت مولى الورى إذ صرت مولاي
تركـت للـناس دنـياهم وديـنهم ::: تشـغلا بـك عـن ديـني ودنـياي

فاستحسنها المأمون وأمر بإلقائها على الستارة وكان الفتى إذا حضر يوم سرور لم يكن له هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضى المجلس ثم إن الفتى خرج بعد أن حسنت حالته يسأل عن الدار التي أشرفت منها تلك الجارية فإذا هى لرجل من أهل بغداد من كبار مياسيرها ومات ولم يخلف ولدا سوى تلك الجارية فأعلم المأمون بذلك فأمر المأمون فخطبها للفتى فزوجه إياها . اهـ.

ومن المنقول عنه أيضا

قال المقريزي في الخطط: لما قدم المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين كان يبني في كل قرية من قرى مصر دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله فكان يقيم بالقرية يوما وليلة فمر بقرية يقال لها: طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت له عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهى تصيح فظنها المأمون متظلمة فوقف لها وكان لا يمشي أبدا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له أن القبطية قالت: أمير المؤمنين نزل في كل ضيعة وتجاوز ضيعتي والقبط تعايرني بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف ولا يشمت بي الأعداء وبكت بكاء شديدا فرقّ لها المأمون وثنى عنان فرسه إليها ونزل فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله كم تحتاج من الغنم والدجاج والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفواكه والعلوفة وغير ذلك

مما جرت به العادة فأخبر فأحضر جميع ذلك بزيادة وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن أكثم والقاضي أحمد بن دؤاد ثم أحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ثم أحضرت إلى المأمون من فاخر الطعام شيئا كثيرا حتى أنه استعظم ذلك فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها وصائف مع كل وصيفة طبق فلما عاينها المأمون من بعد قال لمن حضر: قد جاءتكم القبطية بهدية الريف فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت: لا ، والله لا أفعل فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب مما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت: يا أمير المؤمنين لا تحتقر بنا وتكسر قلوبنا فقال: إن بعض ما صنعتيه كفاية فردي مالك بارك الله فيك فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين هذا وأشارت إلى الذهب من هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين وعندي من هذا شيء كثير فأمر به فأخذ منها وأقطعها عدة ضياع وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتي فدان بغير خراج وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها.

ومن المنقول عنه أيضا

حكى أن المأمون كان عنده جارية بديعة الجمال فصيحة اللسان فواقعها يوما من الأيام وأوصاها بكتم ذلك ثم إنها دخلت إلى مكان منفرد في القصر وخلعت أثوابها لتغتسل فرآها المأمون من مكان عال يشرف على ذلك المكان فلما تعرت رأى من رقة بدنها وبياض جسمها وحسن قدها ما أدهشه فلما همت أن تلبس ثوبها رفعت طرفها فنظرته فاستحت ونفضت شعرها فستر جميع بدنها إلى كعبها وهى واقفة ثم إنه خرج وهو متعجب مما رأى فقال: من بالباب من الشعراء؟ فقيل: أبو نواس فأذن له في الدخول فلما دخل قال له المأمون أجز (نضت عنها القميص لصب ماء) فأنشد في الحال وقال:

نضت عنها القميص لصب ماء	:::	**فورد خدها فرط الحياء**
وقابلت الهواء وقد تعرت	:::	**بمعتدل أرق من الهواء**
ومدت راحة كالماء لطفا	:::	**إلى ماء معد في إناء**

فلما أن قضت وطرا وهمت ::: على عجل بأخذ للرداء
رأت نظري إليها من بعيد ::: فأسبلت الظلام على الضياء
فغاب الصبح منها تحت ليل ::: وصار الماء يقطر فوق ماء

فقال له المأمون لو كنت عندنا لما شرحت أزيد مما وقع ثم أجازه.

ومن المنقول عنه أيضا

قيل: تظلّم أهل الكوفة من واليهم إلى المأمون فقال: ما عملت في عملي بأعدل وأقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما أحد أحق وأولى بالعدل والإنصاف منك فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدا بلدا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا فإذا فعل ذاك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين وقد انقضت فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم.

ومن المنقول عنه أيضا

حجب العتابي على باب المأمون وكان مؤدبه فكتب إليه:

إن حق التأديب حق الأبوه ::: عند أهل الحجا وأهل المروه
وأحق الأنام أن يحفظوها ::: ويعوها لأهل بيت النبوه

فدعا به وأحسن صلته وآلى على الحاجب أن لا يعاود حجبه وزجره.

ومن المنقول عنه أيضا

روى أن المأمون أشرف يوما من قصر فرأى رجلا قائما وبيده فحمة وهو يكتب بها على حائط القصر فقال المأمون لأحد غلمانه: انزل إلى ذلك الرجل وأمسك بيده واقرأ ما كتب وائتني به فنزل الغلام وأدرك الرجل وقبض على يده وقرأ ما كتب فوجده قد كتب:

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم ::: متى تعشش في أركانك البوم
يوم يعشش فيك البوم من فرحي ::: أكون أول من ينعاك مرغوم

فقال له: أجب أمير المؤمنين فقال: سألتك بالله لا تذهب بي إليه فقال: إنه يراك فقبض على يده ومثل بين يديه وقال: وجدته كتب كذا وكذا فقال له المأمون: يا

ويلك ما حملك على هذا؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إنه لم يخف عنك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلي والحلل والطعام والشراب والأمتعة والفرش والجواري والخدم فمررت عليه وأنا في غاية من سوء الحال من الجوع والعطش ولي يومان ما استطعمت بطعام فيهما فوقفت ساعة وفكرت في نفسي وقلت: هذا القصر عامر وأنا جائع فلا فائدة لي فيه فلو كان خرابا ومررت به على هذه الحالة لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسمار أبيعه وأتقوت به أو ما علمت أنه يا أمير المؤمنين قد قيل:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ ::: نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وما ذاك عن بغض ولا عن محبة ::: ولكن يرجى نفعه بانتقالها

فقال المأمون: يا غلام أعطه ألف دينار ثم قال: يا هذا هى لك في كل سنة ما دام قصرنا عامرا . انتهى .

ومن المنقول عنه أيضا

حكي أن أحمد بن خالد عرض القصص بين يدي المأمون فمر بقصة عليها اليزيدي فصحفه وقال: الثريدي فضحك المأمون وقال: يا غلام ثريدة لأبي العباس فإنه أصبح جائعا فخجل أحمد وقال: ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين ولكن صاحب القصة أحمق وضع فوق يائه ثلاث نقط فقال المأمون: دع هذا عنك فإن النقط شهود الزور والجوع اضطرك إلى ذكر الثريد فاحتشم أحمد فقال المأمون: بحقي عليك إلا ما أكلت منها فترك القصص ثم مال إلى الصحفة فأكل قليلا ثم دعا بالماء فغسل يديه ورجع إلى القصص فمر بقصة فيها فلان الحمصي فقال: فلان الخبيصي فضحك المأمون وقال: يا غلام صحن خبيص فخجل أحمد وقال: يا أمير المؤمنين صاحب هذه القصة كان أحمق من الأول فتح الجيم فصارت كأنها سنتان فقال: دع عنك فلولا حمق هذا وحمق هذا لأخرمت جوعا فأتى بصحن خبيص فأبى أن يأكل منه فانحرف نحوه وأكل منه ثم غسل يديه وانصرف إلى القصص واحترز في قراءتها وثبت في حروفها فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

ومن المنقول عنه أيضا

روى أن المأمون جمع العلماء وجلس للناس فجاءت امرأة وقالت: يا أمير المؤمنين مات أخي وخلف ستمائة دينار أعطوني دينارا واحدا وقالوا: هذا نصيبك قال: فحسب المأمون ثم كسر الفريضة ثم قال لها: هذا نصيبك فقال له العلماء: كيف علمت يا أمير المؤمنين؟ فقال لهم: هذا الرجل خلف ابنتين قالت: نعم قال: فلهن الثلثان أربعمائة وخلف والدة فلها السدس مائة وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون فهل لك اثني عشر أخا قالت: نعم قال: أصابهم ديناران ديناران وأصابك دينار انتهى .

ومن المنقول عنه أيضا

قيل: كان للمأمون خادم وهو صاحب وضوئه فبينما هو يصب الماء على يده إذ سقط الإناء فاغتاظ المأمون عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن الله يقول: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ** ﴾ قال: قد كظمت غيظي عنك قال: ﴿**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ قال: قد عفوت عنك قال: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: اذهب فإنك حر انتهى .

ومن المنقول عن المعتصم بن هارون الرشيد

روى صاحب مجمع البحرين عن سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان أن المعتصم ولد سنة ثمان وثمانين ومائة في ثامن الشهر منها ومات لثمان عشرة خلت من شهر رمضان وهو ثامن الخلفاء من بني العباس وفتح ثمان فتوحات ووقف ببابه ثمانية من الملوك وقتل ثمانية أعداء وكان عمره ثمانية وأربعون سنة وخلافته ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام وخلف ثمان بنين وثمان بنات وثمانية ألف ألف دينار وثمانية ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف فرس وثماني ألف جمل وبغل ودابة وثمانمائة ألف خيمة وثمانية آلاف عبد وثمانية آلاف جارية ، وبنى ثمان قصور ونقش خاتمه (الحمد لله) ثمانية أحرف وكانت غلمانه لا تزال ثمانية عشر ألف وطالعه الثمانية من كل شيء وكان يدعى بالمثمن والثماني انتهى كلامه .

ومن المنقول عنه أيضا

روى أن تميم بن جميل كان قد خرج على المعتصم في أيام دولته ونزع يده من الطاعة وانقطع إلى بعض النواحي وكان قد عظم أمره على المعتصم فجيء به أسيرا مكتوفا وقد اجتمع الناس من الآفاق والنواحي ينظرون كيف يقتله المعتصم وكان المعتصم قد جلس له مجلسا وأمر الناس بالدخول ودخل تميم وحضر السياف وفرش النطع وكان تميم جميل الوجه تام الخلقة عذب المنطق فرآه المعتصم غير دهش ولا مكترث لما حل به فأراد أن يستنطقه ليعلم أين عقله في ذلك الوقت فقال: يا تميم إن كان لك عذر فأتِ به فقال: إذا أذن أمير المؤمنين الحمد لله الذي جبر بك صدع الدين، ولم بك شعث المسلمين، وأنار بك سبيل الحق، وأخمد بك شهاب الباطل، إن الذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسنة الفصيحة، وتصدع الأفوهة الصحيحة، والله لقد كبرت الذنوب وعظمت الجريمة، وانقطعت الحجة، وساء الظن ولم يبق إلا عفوك، أو انتقامك، وأنت إلى العفو أقرب وهو بك أليق وأشبه وأنشد:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ::: يلاحظني من حيث لا أتفلت
وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي ::: وأي امرئ مما قضى الله يفلت
وأي امرئ يدلي بعذر وحجة ::: وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ::: يهز على السيف فيه وأسكت
فما حزني من أن أموت وإنني ::: لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ::: وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم ::: وقد خمشوا تلك الخدود وصوتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بنعمة ::: أذود الردي عنهم وإن مت موّتوا
فكم قائل لا أبعد الله داره ::: وآخر جذلان يسر ويشمت

قال: فبكى المعتصم وقال: إن من البيان لسحرا ثم قال: والله يا تميم كاد السيف أن يسبق العفو وقد وهبتك لصبيتك وعفوت عن زلتك ثم أمر بدواة فعقد له الألوية على موضعه الذي كان خرج فيه ووصله بشيء كثير.

ومن المنقول عنه أيضا

روى أن الفضل بن مروان كان وزيرا للمعتصم وكان ظالما غاشما فدخل عليه الهيثم بن فراس الشاعر متظلما من بعض العمال فصرف وجهه عنه ولم يسمع له شكاية فخرج من عنده وهو ينشد:

تجبرت يا فضل بن مروان فانتظر ::: فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ::: أبادهم التغيير والموت والقتل
فإن تك قد أصبحت في الناس ظالما ::: ستودى كما أودى الثلاثة من قبل

فلما سمع الفضل أبياته قال: ما الذي عنى بقوله؟ فقيل له: أراد الفضل بن الربيع والفضل بن يحيى والفضل بن سهل فتغير لذلك ولم يلبث إلا أياما يسيرة حتى قبض عليه ولما أخذه المعتصم واستصفى أمواله كلم فيه فقال: إن الفضل أسخط الله وأرضاني فسلطني عليه .

ومن المنقول عن هارون الواثق بن المعتصم

قيل: كان الواثق إذا شرب يرقد في موضعه الذي شرب فيه ومن كان عنده من ندمائه فشرب يوما وخرج من كان عنده إلا مغن واحد أظهر التراقد وكانت مغنية من جواري الخليفة نائمة فلما خلا المجلس كتب المغني رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إني رأيتك في المنام ضجيعتي ::: مترشفا من ريق فيك البارد
وكأن كفك في يدي وكأننا ::: بتنا جميعا في لحاف واحد
ثم انتبهت ومنكباك كلاهما ::: في راحتي وتحت خدك ساعدي
فقطعت يومي كله متراقدا ::: لأراك في نومي ولست براقد

فكتبت الجارية على ظهرها:

خيرا رأيت فكل ما أملته ::: ستناله مني برغم الحاسد
وتبيت بين خلاخلي ودمالجي ::: وتحل بين مراشفي ومجاسدي
ونكون أنعم عاشقين تعاطيا ::: ملح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدت يدها إليه لترمي بالرقعة رفع الواثق رأسه وأخذها من يدها وقال: ما هذا فحلفا أنه لم يجر بينهما قبل هذا كتاب ولا كلام ولا رسول إلا أن العشق قد

خامرهما فأعتقها من وقتها وزوجها منه . اهـ .

ومن المنقول عن المتوكل بن المعتصم

يحكى أن إبراهيم بن الجهم قال: أفضت الخلافة إلى المتوكل وأهدى إليه عبد الله ابن طاهر من خراسان جارية يقال لها: المحبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت في الأدب حتى كانت لا تفارق مجلسه أبدا ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك حنق فهجرها قال على بن الجهم: فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظني فقال: يا على قلت: لبيك يا أمير المؤمنين قال: رأيت الليلة في منامي كأني رضيت على محبوبة وصالحتها فقلت: خيرا رأيت يا أمير المؤمنين أقر الله عينك إنها جاريتك والرضا والجفا بيدك فوالله إنى لفي حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة فقال: قم بنا يا على ننظر ما تصنع فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هي تضرب بالعود وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحدا ::: أشكو إليه ولا يكلمني
كأنني قد أتيت معصية ::: ليس لها توبة تخلصني
فهل شفيع لنا إلى ملك ::: قد زارني في الكرا وصالحني
حتى إذا ما الصباح لاح لنا ::: عاد إلى هجره وصارمني

قال: فصاح أمير المؤمنين فلما سمعته تلقته وأكبت على رجليه تقبلها قال: ما هذا؟ قالت: يا مولاي رأيت في منامي هذه الليلة كأنك قد رضيت عني فأنشدت ما سمعت قال: أنا والله رأيت مثل ذلك ثم قال: هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق ثم أخذ بيدها ومضى بها إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان والله أعلم .

* * * * *

الباب السابع

في القضاة

ذكر أن قاضي أنطاكية خرج في غلس بعض الأسحار إلى ضيعة له كانت بالقرب من أنطاكية فلما صار من البلد على فرسخ اعترضه مستقف في طريقه فقال له: دع ما معك وإلا أوقعت بك فقال له القاضي: أيدك الله إن لأهل العلم حرمة وأنا قاضي البلد فمن عليَّ فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك لأني منك على يقين أنك ترجع إلى كفاية من الثياب والدواب ومن غيرك على شك ربما كان ضعيف الحال لا يجد شيئا فقال له القاضي: أراك ذا بيان فقال: نعم وفوق كل ذي علم عليم، فقال له القاضي: أين أنت عما رُوى عن رسول الله ﷺ : «**الدين دين الله والعباد عباد الله والسنة سنتي فمن ابتدع فعليه لعنة الله**»، والاستقفاف بدعة وأنا أجلك أن تدخل تحت اللعنة فقال له اللص: يا سيدي القاضي هذا حديث مرسل لم يروه مالك عن نافع ولا ابن عمر ولو سلمته لك تسليم عدل أو تسليم انقطاع وحل بجملته على لص متلصص ممن لا قوت له ولا يرجع إلى كفاية وأما ما كان معك فهو لي حلال وقد روى مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لوكانت الدنيا دما عبيطا لكان قوت المؤمنين منها حلالا**» ولا خلاف عند كافة العلماء أن للإنسان أن يحيي نفسه وعياله بمال غيره إذا خشي الهلاك وأنا والله أخشى الهلاك على نفسي وفيما معك إحيائي وإحياء عيالي فسلمه وانصرف سالما، قال القاضي: أما إذا كانت هذه حالتك فدعني أصل إلى ضيعتي فأنزل عند عبيدي وخدمي وآخذ منهم ما أستتر به وأدفع إليك جميع ما معي فقال له اللص: هيهات مثلك مثل الطير في القفص فإذا خرج إلى الهواء خرج عن اليد وأخاف أن أخلي عنك فلا تدفع إليَّ شيئا فقال له القاضي: أنا أحلف لك إني أفعل ذلك كله، قال اللص: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يمين المكره لا**

يلزم» وقال تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ [النحل: ١٠٦] وأخاف أن تتأول عليَّ فادفع ما معك فدفع له القاضي الدابة والثياب دون السراويل فقال له اللص: سلم السراويل ولابد منها فقال له القاضي: يا هذا إنه قد آن وقت الصلاة وقد قال النبي ﷺ: «**ملعون من نظر إلى سوءة أخيه**»، وقال لعلي رضي الله عنه: «**يا علي لا تنظر إلى سوءة أخيك حيا ولا ميتا**» وقد آن وقت الصلاة ولا صلاة لعريان والله تعالى يقول: ﴿ **خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ قيل في التفسير: هي الثياب عند الصلاة فقال له اللص: أما صلاتك فهي صحيحة لأنه حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺأنه قال: «**العراة يصلون قياما ويقوم إمامهم وسطهم**» وقال مالك: لا يصلون قياما يصلون متفرقين متباعدين حتى لا ينظر أحد منهم إلى سوءة بعض وقال الإمام أبو حنيفة: يصلون قعودا وأما الحديث قوله: «**ملعون من نظر إلى سوءة أخيه**» فهو حديث مرسل أيضا لم يروه مالك ولا نافع ولا ابن عمر ولو سلمته لكان محمولا على من نظر إلى عورة أخيه على سبيل التلذذ والتمرد وأما أنت فحالك اضطرار لا حال اختيار ألا ترى أن للمرأة أن تغسل فرجها من النجاسة فلا تأمن النظر وكذلك الرجل إذا حلق عانته والرجل يختن غيره وغير ذلك مثل الطبيب سواء وإذا كان كذلك لم يلزم ما قاله القاضي: أيده الله، قال القاضي أنت القاضي وأنا المستقضي وأنت الفقيه وأنا المستفتي خذ ما تريد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فأخذ السراويل والثياب والدابة ومضى ووقف القاضي مكانه حتى مر به من عرفه وأخبرهم بحاله فأخبر أنه من أجلاء الفقهاء قعد به الدهر حتى فعل به ما فعل فبعث إليه القاضي خاتمه ذماما فلما حضر عنده رفع مكانه وأعزه وأكرمه وأجرى له ما يقوم به ولم يزل القاضي يحدث بحديثه إلى أن مات رحمه الله تعالى. اهـ.

ومن لطائف المنقول

ما نقله الشيخ إسماعيل بن كثير قال: قدم الشيخ الإمام العالم زين الدين أبو جعفر عمر بن الوردي إلى دمشق المحروسة في أيام قاضي القضاة نجم الدين الشافعي فأجلسه في صُفَّة الشهود المعروفة بالشباك وكان الشيخ زين الدين يلبس زى أهل المعرفة فاستزاره الشهود فحضر كتاب مشترى فقال بعضهم: أعطوه للمعري يكتبه فقال الشيخ زين الدين: ترسموا أكتبه نظما أو نثرا فزاد استهزاؤهم به وقالوا: نظما فأخذ القرطاس وكتب:

بسم إله الخلق هذا ما اشترى ::: محمد بن يونس بن سنقرا
من مالك بن أحمد بن الأزرق ::: كلاهما قد عرفا من جلق
فباعه قطعة أرض واقعه ::: بكورة الغوطة وهي جامعه
لشجر مختلف الأجناس ::: والأرض في البيع مع الغراس
وذرع هذي الأرض بالذراع ::: عشرين في الطول بلا نزاع
وذرعها في العرض أيضا عشره ::: وهو ذراع باليد المعتبره
وحدها من قبلة ملك التقي ::: وجابر الرومي حد المشرق
ومن شمال ملك أولاد علي ::: والغرب ملك عامر بن جهبل
وهذه تعرف من قديم ::: بأنها قطعة بيت الروم
بيعا صحيحا لازما شرعيا ::: ثم شراء قاطعا مرعيا
لا شرط فيه أبدا فيفسده ::: وليس فيه مبطل ولا عده
بثمن مبلغه من فضه ::: وازنة جيدة مبيضه
جارية للناس في المعامله ::: ألفان منها النصف ألف كامله
قبضه البائع منه وافيه ::: فعادت الذمة منه خاليه
وسلم الأرض إلى من اشترى ::: فقبض القطعة منه وجرى
بينهما بالبدن التفرق ::: طوعا فما لأحد تعلق
ثم ضمان الدرك المشهور ::: فيه على بائعه المذكور
وأشهد عليهما بذاك في ::: ربيع عشر رمضان الأشرف
من عام سبع مائة وعشره ::: من بعد خمسة تلي للهجره
والحمد لله وصلى ربي ::: على النبي وآله والصحب

يشـــهد بالمضـــمون مـــن هـــذا عمـــر ::: ابـــن المظفـــر المعـــري إذ حضـــر

فلما فرغ الشيخ زين الدين وتأمل الجماعة سرعة بديهته مع استيعاب الشروط الشرعية اعترفوا بفضله واعتذروا إليه لما علموا أنه ابن الوردي وأجلسوه في الصدر ولكن عجزوا عن رسم الشهادة نظما وسألوه ذلك فكتب عن شخص منهم إلى جانبه يدعى بابن الوسول:

قـــد حضـــر العقـــد بـــذاك أحمـــد ::: ابـــن الوســـول وبـــذاك يشـــهد

قيل: إن قاضيا رأي في هامش كتاب أنه من طالت قامته وصغر رأسه وطالت لحيته كثرت حماقته في نفسه وكان بتلك الأوصاف وقال في نفسه: أما قامتي ورأسي فلا سبيل إلى تغيرها فعمد إلى شمعة وقبض على لحيته وقال: هذا المقدار يكفي وقرب الشمعة إليها فأحرقت يده فنحاها فأحرقت كلها فكتب تحت بابه محرب ، واشترى رجل جارية على أنها بكر وحملها إلى منزله فأخبره نساؤه أنها ثيب فاختصم فيها مع البائع فأمر القاضي أن تودع عند أمين إلى أن تكتشف القوابل خبرها فأودعت عند إمام المسجد فلما أصبح الإمام جاء إلى القاضي وهو مضطرب ويتأوه ويقول: ذهبت الأمانة فسأله القاضي عن قصته فقال: إن مشتري الجارية قد اطمأن إلى بائعها وأخذها منه على أنها بكر فخدعه فيها وخانه فإنه قد جربتها البارحة فوجدتها ثيبا فمن ذا الذي يوثق به ويركن إليه انتهى .

* * * * *

الباب الثامن

في الكرم

روىابن خلكان في تاريخه عن الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة أبي عبد الله بن عمر الواقدي أنه قال: كنت خياط المدينة في يدي مائة ألف درهم للناس أضارب بها فتلفت الدراهم فشخصت إلى العراق فقصدت يحيى بن خالد فجلست في دهليزه وآنست الخدم والحجاب وسألتهم أن يوصلوني إليه فقالوا: إذا قدم الطعام إليه لم يحجب عنه أحد ونحن ندخلك إليه ذلك الوقت فلما أحضر طعامه أدخلوني فأجلسوني معه على المائدة وسألني: من أنت؟ وما قصتك؟ فأخبرته فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز من ذلك فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال: الوزير يقرأ عليك السلام ويقول: استعن بها على أمرك وعد إلينا في اليوم الثاني فأخذته وانصرفت وعدت في اليوم الثاني فجلست معه على المائدة فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم له بكيس فيه ألف دينار فقال: الوزير يقرأ عليك السلام ويقول: استعن بهذا على أمرك وعد إلينا في غد فأخذته وانصرفت وعدت في اليوم الثالث فأعطيت مثل الذي أعطيته في اليوم الأول والثاني فلما كان اليوم الرابع أعطيت الكيس كما أعطيت قبل ذلك وتركني بعد ذلك أقبل رأسه وقال: إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفي ما يوجب هذا فالآن قد لحقك بعض النفع مني يا غلام، أعطه الدار الفلانية يا فلان، افرش الفرش الفلاني يا غلام، أعطه مائتي ألف درهم يقضي دينه بمائة ألف ويصلح شأنه بمائة ألف ثم قال لي: الزمني وكن في داري فقلت: أعز الله الوزير لو أذنت لي بالشخوص إلى المدينة لأقضي الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق لي فقال: قد فعلت وأمر بتجهيزي فشخصت إلى المدينة فقضيت ديني ثم رجعت إليه فلم أزل في ناحيته . اهـ .

قيل: كانت صلات يحيى بن خالد البرمكي لمن يعرض له مائتي درهم فركب ذات يوم فتعرض له أديب شاعر فأنشد يقول:

يا سمي الحصور يحي أتيحت ::: لك من فضل ربنا جنتان
كل من مر في الطريق عليكم ::: فله من نوالكم مائتان
مائتا درهم لمثلي قليل ::: هي منكم للقابس العجلان

قال له يحي: صدقت وأمر بحمله إلى داره فلما رجع من دار الخلافة سأله عن حاله فذكر له أنه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث: إما أن يؤدي المهر وهو أربعة آلاف ، وإما أن يطلق ، وإما أن يقيم جاريا للمرأة يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها فأمر له يحي بأربعة آلاف درهم للمهر ، وبأربعة آلاف لثمن منزل وبأربعة آلاف لما يحتاج إليه المنزل وبأربعة آلاف للبنية وبأربعة آلاف يستظهر بها فأخذ عشرين ألفا وانصرف اهـ.

ودخل على يحيى بن خالد البرمكي يوما أبو قابوس الحميري فأنشده

رأيت يحيى أتم الله نعمته ::: عليه يأتي الذي لم يأته أحد
ينسى الذي كان من معروفه أبدا ::: إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد

فقضى حوائجه ووصله بجملة من المال .

وكتب رجل إلى يحيي بن خالد يلتمس شيئا:

شفيعي إليك الله لا رب غيره ::: وليس إلى رد الشفيع سبيل

فأمره بلزوم الدهليز فكان يعطيه في كل صباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفا مضى فقال يحيى: والله لو أقام إلى آخر العمر ما قطعناها عنه .

روى الأصمعي أنه قال: ركب الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي يوما إلى الصيد وأنا معه ومحمد بن يسار العقيلي والحسن الخليع والحسن بن هانئ الحكمي فلما قضى وطره من صيده رجع يريد مضربه فاعترض له أعرابي على راحلة له فلما رأى الأعرابي المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير والجم الكبير ظن أنه أمير المؤمنين فنزل وعقل راحلته وتقدم حتى مثل بين يديه وقال: السلام عليك يا أمير

المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال لـه الفضل: ويلك اخفض عليك دون هذا فقال: السلام عليك أيها الأمير فقال لـه: الآن قاربت اجلس فجلس الأعرابي فقال لـه الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب؟ فقال لـه: من أرض قضاعة فقال: من أدناها أو من أقصاها؟ فقال: من أقصاها ، قال الأصمعي: فالتفت إليَّ الفضل وقال: كم من العراق إلى أقصى قضاعة؟ فقلت: ثمانمائة فرسخ فقال: يا أخا العرب مثلك من يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق وأي شيء قصدت؟ قال: قد قصدت هؤلاء الأمجاد الذين انتشر صيتهم في البلاد فقال: من هم؟ قال: البرامكة فقال لـه الفضل: يا أخا العرب إن البرامكة خلق كثير وفيهم جليل وخطير ولكل منهم خاصة وعامة فهل أفردت لنفسك منهم من اخترته لقصدك وانتدبته لحاجتك؟ قال: أجل قال: من هو؟ قال: أطولهم باعا وأسمحهم كفا وأظهرهم كرما قال: من هو؟ قال: الفضل بن يحيى فقال لـه الفضل: يا أخا العرب إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر إذا جلس للناس مجلسا عاما لم يجلس مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والمذاكرون في العلم أفعالم أنت؟ قال: لا أفأديب أنت؟ قال: لا أفعارف أنت بأيام العرب وأخبارهم وأنسابها ونوادرها وأشعارها؟ قال: لا ، قال: أفوردت على الفضل بكتاب وسيلة؟ قال: لا فقال: يا أخا العرب لقد غررت بك نفسك مثلك من يقصد الفضل بن يحيى وهو على ما عرفتك به من الجلالة فقال: والله أيها الأمير ما قصدته إلا بإحسانه المعروف وكرمه الموصوف وبيتين من الشعر قلتهما فيه ، فقال الفضل: يا أخا العرب أنشدني البيتين فإن كانا مما يصلح أن تلقى بهما الفضل أشرت عليك بلقائه وإن كانا مما لا يصلح أن تلقى بهما الفضل بدرتك بشيء من مالي ورجعت إلى باديتك وكنت لم تخلق وجهك ولم يستخف بشعرك قال: وتفعل أيها الأمير؟ قال: نعم قال: فإني والله الذي أقول:

ألم تر أن الجود من كف آدم ::: تحدر حتى صار يملكه الفضل
ولو أم طفل عضها جوع طفلها ::: وغذته باسم الفضل لاعتصم الطفل

قال: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل: هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر

غيرك وأخذ الجائزة عليهما بل أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: أقول: أيد الله الأمير:

قد كان آدم حين حان وفاته ::: أوصاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم ::: وكفيت آدم عيلة الأبناء

قال: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل: هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس أنشدني غيرهما ما تقول وأنت بحضرته وقد رمقتك الأدباء بأبصارهم؟ قال: أقول والله أيها الأمير:

ملت جهابذ فضل وزن نائله ::: ومل كاتبه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة ::: خلق ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل أيضا: هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلا؟ قال: إذا والله أقول:

وللفضل صولات على سلب ماله ::: ترى المال فيه بالمذلة قد عنا
ولو أن رب المال أبصر جوده ::: لصلى على مال الأمير وأذنا

قال: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل: أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: إذا والله أقول:

ولو قبل للمعروف ناد أخا العلا ::: لنادى بأعلى الصوت يا فضل يا فضل
ولو أنما أنفقت من رمل عالج ::: لأصبح من جدواك قد نفد الرمل

قال: فإن قال لك الفضل هذان البيتان مسروقان أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: إذا والله أقول: أيها الأمير

وما الناس إلا اثنان صب وباذل ::: وأني لذاك الصب والباذل الفضل
على أن لي مثلا إذا ذكر الهوى ::: وليس لفضل في سماحته مثل

قال: فإن قال لك الفضل: أنشدني غيرهما ما تقول: قال: إذا أقول والله أيها الأمير:

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد ::: فقام بها التقوى وقام بها البذل
وقام به المعروف شرقا ومغربا ::: ولم يكن للمعروف بعد ولا قبل

قال: فإن قال لك الفضل: يا هذا قد ضجرنا من الفضل والفضل أنشدنا بيتين

على الكنية لا على الاسم ما تقول؟ قال: إذا والله أقول:

ألا يـا أبـا العبـاس يـا واحد الورى ::: ويـا مالكـا خـد الملـوك لـه نعل
إلـيك تسـير النـاس شـرقا ومغربا ::: فـرادى ومـثنى كـأنهم النـمل

قال: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل: أنشدني بيتين بغير الاسم وبغير الكنية وغير القافية قال: إذا والله أقول:

أيـا جـبل الله المنـيف والـذي ::: إلـيه تسـعى في المهمـات الـورى
يـؤم أبوابـك طـلاب الغـنا ::: كمـا يـؤم البيـت حجـاج مـني

قال لـه الفضل: أحسنت يا أخا العرب فإن قال لك الفضل: أنشدني غيرهما ماذا تقـول؟ قـال: والله لـئن زادني الفضـل امـتحانا لأقولـن أربع أبيات ما سبقني إليهن أعـرابي ولا أعجمي ولئن زادني بعدها امتحانا لأجمعن قوائم ناقتي هذه ولأجعلنها في حـرأم الفضـل ولأرجعـن إلى قضاعة خاسرا خائبا ولا أبالي فنكس الفضل رأسه مليا وقال للأعرابي: يا أخا العرب أسمعني الأبيات قال: فإني والله إذا أقول:

ولائمـة لامـتك يـا فضـل في الندا ::: فقلـت لهـا هـل يفرح اللوم في الهجر
أتـنهين فضـلا عـن سماحـة كفـه ::: ومن ذا الذي ينهى السحاب عن القطر
كـان نـوال الفضـل في كـل بلدة ::: تحـدر مـاء المـزن في مهمـه قفـر
كـان وفـود النـاس في كـل وجهة ::: إلى الفضـل وافـوا عـنده ليلة القدر

قـال: فأمسـك الفضـل عـلى فيه وسقط على وجهه ضاحكا ثم رفع رأسه وقال: يا أخا العرب أنا والله الفضل بن يحيى قل ما شئت فقال الأعرابي: عزمت عليك بالله أيها الأمير أنك هو؟ قال: أنا هو قال: أقلني مما مضى من الكلام قال: أقالك الله فاذكر حاجـتك قال: عشرة آلاف قال الفضل: ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب لك عشرة آلاف في عشـرة آلاف وحضـر غـداء الفضـل فأكلـنا وتفرقنا ونام الفضل ثم استيقظ وصـلى وجلس عشيا للمنادمة وحضرنا وحضر الأعرابي وأخذنا في الحديث فقال لـه الفضـل: يـا أخا العرب إنا كثيراً ما نسمع الشعر من شاعر ومادح ومنشد ومغن وهو مـن جيد الشعر ومختاره حتى نسأمه في بعض الأوقات فهل عندك من حديث ظريف تعجبـنا به؟ فقال: والله أيها الأمير لأحدثنك بحديث ما سمعت قط بأعجب منه فقال

الفضـل: عـلى اسم الله يا أخا العرب فقال: أعلمك أيها الأمير أني ضلت لي إبل في بعـض الأحـيان فخرجـت أطلـبها فمشيت من أول النهار إلى آخره وقد كظنى الجوع والعطـش فرميـت نفسي يمنة ويسرة وورائي وقدامي فرأيت من أمامي دخانا قد على بعنان السماء فأممته واعترض لي جبل فصعدت ذروته فأشرفت على أبيات شعر قليلة وغديـر مـاء يتدفق فنزلت من قمة الجبل إلى صفحة الوادي فإذا أنا بامرأة أقبلت كأنها الشـمس حسـنا وعلى يدها طفل كأنه كوكب وهى تقصد الغدير تريد الاغتسال فلما رأيـتها عـلى تلـك الحالـة تواريـت بحيـث لا تـراني فأقبلت إلى الغدير ونزعت ثيابها وأقعـدت طفـلها وولجت في الماء فلما قضت حاجتها من الاغتسال التحفت بملحفتها وعصـبت ذوائـبها وأخـذت طفـلها عـلى يدهـا وأمت الأبيات فأتبعتها فدخلت أكبر الأبـيات فـوردت عـلى أثـرها وسـلمت فخرجت فلما رأتني قالت: يا أخا العرب قد رأيـناك مـنذ هنـيهة فمـا الـذي أبطأ بك؟ فقلت: ما وافيت إلا في هذه الساعة قالت: مـا هذا الاعتذار هل رأيت إلا كالشمس وجها وبطنا كطي القباطي وفخذين كفخذي البعير قلت: كل هذا رأيته قالت: ادخل الآن للقرى الواسع فدخلت الخباء فقربت إليَّ شـيئا مـن الطعـام فأكلته فلما اختلط الظلام إذا بخيل وابل تؤم الأبيات يقدمها فارس تحته فرس يأكل الأرض أكلا فلما دنا ورآني ضرب بيده إلى سيفه .

فقالـت: ويلـك إنه ضيف فأطلق يده عن السيف فتأملته فإذا هو كالقرد في خلقه ودمامته ثـم دخـل فـأججوا نارا وقربوا قراهم فأكلنا ثم قام فصعد معها إلى حجرتها وجعل يلاعبها ويداعبها فوقع في قلبي أمرهما فقلت: أحسن خلق الله في الدنيا وأقبح مـن يـراه الله عـلى وجه الأرض فوالله ما وقع لي هذا فقال: كأنك يا أخا العرب قد فكـرت في نفسـك وقلت: أحسن من خلق الله وأقبحهم فكيف جمع الله بينهما؟ قلت لــه: والله مـا عـدوت مـا في نفسي فقال: هل لك أن أخبرك بالحال التي جمعتنا؟ قلت لــه: مـا أحوجـني إلى ذلـك قـال: أعلمك أني رجل من بني حنيفة كنت عاشر عشرة أخوة وكان أبي يبغضني من بينهم حتى وكلني برعي الإبل وشاء الله أن ضلت لنا إبل في بعـض الأحيان فأرسل إخواني واحدا بعد واحد في طلبها فما منهم من جاء بطائل

فقالوا له: هلا أرسلت فلانا يعيننا قال: بلى ثم أقبل عليَّ وقال: قم ويلك واطلب الإبل قلت: والله ما أنصفتموني إذا وطئت ظهورها وطاب مركبها ودرت ألبانها هي لكم وأنتم أربابها وإذا هلكت وضاعت فأنا أرومها وأطلبها فقال له: قم ويلك فاطلب الإبل وإلا أوجعتك ضربا فقمت من خوف الضرب وأنا على ما ترى من قبح المنظر وشاء الله أن كانت أيام خريف فمشيت من أول النهار إلى آخره والبرد يضربني من جانب والعطش من جانب فرماني المساء إلى أبيات فرأيت هذه المرأة وهى عابرة في جنب بيت فلما رأت ما بي من سوء الحال قالت: أظنك غريبا يا أخا العرب قلت: أجل قالت: ادخل للقرى الواسع والاصطلاء فدخلت البيت فألفيت نارا مؤججة فاصطليت فلما اختلط الظلام جاء أبوها وإخوتها فأججوا نارهم وقربوا قراهم وأكلنا فوالله ما هو إلا أن أمنت من الجوع ودفئت من البرد ورويت من العطش فتأملتها فرأيت وجهها في ضوء النار كالبدر الطالع فأخذت بمجامع قلبي فجعلت أحدُّ النظر وهى مطرقة خوفا من أن يفطن أبوها وأخوتها فلما رأتني لا أميل النظر عنها قامت وخرجت كأنها تريد حاجة فخرجت في أثرها قالت: ويلك ما عراك؟ فقلت: أجد أحشائي تلتهب وقلبي يضطرب محبة لك فما أملك قلبي ولو شئت سكنت ما بي فقالت: أمهل ويلك حتى ينام أبي وإخوتي فلم أزل أراقبهم حتى ناموا ثم تحركت فقالت: ما هذا؟ فقلت: الضيف فقالت: ويلك اخرج فإنه أستر لك وهى تريد هلاكي ولا أعلم فخرجت إلى أن صرت بباب الخباء إذ هب عليَّ كلب كأنه السبع فجعلت أدفعه عن نفسي وأمشي القهقرى وهو يتبعني حتى مضيت إلى بئر فسقطت فيه وسقط الكلب في أثري وجعل ينبح في ناحية البئر وأنا أدفعه عن نفسي فأحست الصبية بوقوعي في البئر فخرجت حتى وقفت على رأس البئر وقالت: يا ويلك ما الذي دهاك؟ فقلت: لا أدري إلا وأنا والكلب في البئر فقالت: فهلا أبصرته؟ فقلت: حال الظلام بيني وبين النظر إليه فقالت: على رسلك حتى أرجع إليك ثم رجعت إلى الخباء فجاءت بحبل طويل فألقت إليّ طرفه وقالت: تعلق بأسفله وأنا ممسكة بأعلاه فصعدت حتى أشرفت إلى رأس البئر فما هو إلا أن همت بوضع رجلي على الجدار معها

فزلت قدمها فصرت أنا وهي والكلب في البئر فجعلت تلطم وجهها وتخمش خدها وتدعو بالويل والثبور في ناحية والكلب ينبح في ناحية وأنا متيقن القتل لا سواه ثم إن أمها قامت تطلبها في مكانها فلم تجدها فأيقظت أباها وقالت: ويحك قم فاطلب ابنتك فليست في مكانها فقام يتخلل الأبيات في طلبها حتى استدل عليها بنبح الكلب فأقبل حتى وقف على البئر فلما تيقن الأمر صاح بأخوتها وقال: ويلكم هبوا فإن كلبكم وأختكم وضيفكم في البئر فقام هذا إلى سيفه وهذا إلى رمحه وأخذ هذا فأسا وهذا محجنا وجاؤوا ليجعلوا البئر قبري وقبرها وقبر الكلب فلما هموا بالوقيعة قال لهم الشيخ: على رسلكم ثم قال لي: انتسب فانتسبت له فأقبل على أولاده ثم قال: يا بني يرجع إلى كثرة في العدد وقوة في العشيرة وأنتم قليلون ومتى قتلتموه طولبتم بدمه ولا طاقة لكم بثارات العرب وكنتم قد جنيتم على أنفسكم جناية اضطررتم معها إلى الجلاء عن أوطانكم وإن أطلقتموه فهي الفضيحة العظمى ولكن قد رأيت أن أزوجها به في البئر فقالوا: إنا لرأيك تبع فافعل ما شئت ثم قال له: ويلك ألك مال؟ قلت: احتكم قال: مائة ناقة حمراء وعبد وجارية قلت: اشدد يدك في الحكومة فإني أستطيع قال: ما أبغي مزيدا فزوجني بها في جوف البئر فصروا بها وصعدوا بالكلب وصعدوا بي فبت ليلتي عندهم وخرجت من الغد أجدُّ في السير حتى أشرفت على الحي واطلعت على أبي فقال: ويلك ما وراءك؟ فقلت: والله قد جئتك بخسارة ثانية قال: وما ذاك فقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها فقال: والله لأشمت بك ثم جمع إبله واختار منها مائة ناقة وابتاع لي عبدا وجارية فسقت ذلك إليهم وهذا خبرها ثم عاهدني أن لا أبوح بخبره فلم أزل حافظا ليميني حتى سألتني أيها الأمير فأعجب الفضل بذلك إعجابا كثيرا وأمرنا أن ندفع المال إليه فلما صار بين يديه حسده بعض من حضره وقال: يا مولاي هذا إسراف يأتيك جلف من أجلاف البادية بأبيات استرقها من شعر العرب فتجيزه بكل هذا المال قال الفضل: فإنه استحقها بإشخاصه إلينا من أرض قضاعة قال: أقسمت عليك يا مولاي إلا أخذت سهما من كنانتك وركبته في كبد قوسك وأومأت به إلى الأعرابي فإذا هو رد عن نفسه ببيت من الشعر

وإلا استعدت مالك ويكون لـه في البعض كفاية فأخذ الفضل سهما وركبه في كبد قوسه وأومأ به إلى الأعرابي وقال رد سهمي ببيت من الشعر وإلا أرحتك من نفسك فأنشد يقول:

وقوسك قوس الجود والوتر الندا ::: وسهمك سهم العز فارم به فقري

فضحك الفضل حتى استلقى وأنشأ يقول:

إذا ملكت كفاي مالا ولم أنل ::: فلا انبسطت كفي ولا نهضت رجلي
على الله إخلاف الذي قد بذلته ::: فلا نافعي بخلي ولا متلفي بذلي
أروني بخيلا نال مجدا ببخله ::: وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل: أعطوا إلى الأعرابي مائة ألف درهم لقصده وشعره ومائتا ألف درهم ليكفينا شر قوائم ناقته فأخذ الأعرابي المال وانصرف وهو يبكي فقال لـه الفضل: مم بكاؤك يا أعرابي أستقلالا لما أعطيناك؟ فقال: لا والله ما استقللته ولكني أبكي على مثلك كيف تأكله الأرض ويواريه التراب وذكرت أيضا قول الشاعر حيث يقول:

لعمري ما الرزية فقد مال ::: ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر ::: يموت لموته خلق كثير

وتوجه الأعرابي إلى بلده بالمال فرحا مسرورا انتهى.

وذكر الصلاح الصفدي: في تاريخه الوافي بالوفيات في ترجمة إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج النحوي قال الخطيب: كان من أهل الدين والفضل وحسن الاعتقاد جميل المذهب ولـه مصنفات حسان في الأدب توفى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وهو أستاذ أبي على الفارسي قال: كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت المبرد وكان لا يعلّم إلا بأجرة فقال لي: أي شيء صناعتك؟ قلت: أخرط الزجاج وكسبي كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف وأريد أن تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهم وألتزم بذلك أبدا إلى أن يفرق الموت بيننا استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه وكان ينصحني في التعليم حتى استقللت وأنا أعطيه الدرهم

كـل يوم فجاءه كتاب من بعض بني مارية من الصراة يلتمسون نحويا لأولادهم فقلت لــه: أسمـني لهـم فأسماني فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذ إليه كل شهر ثلاثين درهما وأزيـده مـا أقدر عليه ومضت مدة فطلب منه عبيد الله بن سليمان مؤدبا لابنه القاسم فقـال: لا أعـرف إلا رجـلا زجاجـا بالصـراة مـع بني مارية فكتب إليهم فأحضروني وأسـلم إلى القاسـم فكـان ذلـك سـبب غنائي فكنت أعطي المبرد ذلك الدرهم إلى أن مـات ولا أخلـيه من التفقد بحسب طاقتي فكنت أقول للقاسم بن عبيد الله: إن بلغك الله الـوزارة مـاذا تصـنع بي؟ فيقول: ما أحببت فأقول لـه: تعطيني عشرين ألف دينار وكانـت غايـة أمنيتي فلما ولي القاسم الوزارة وأنا قديمه وملازمه فهبته أن أذكره فلما كـان اليوم الثالث من وزارته قال: حدثنا يا أبا إسحاق لم أرك تذكرني بالنذر؟ فقلت: عولـت عـلى رعايـة الوزير فقال: إنه المعتضد ولولاه ما تعاظمني دفع ذلك إليك جملة ولكن أخاف أن يصير لي معك حديث في ذلك فاسمح بأخذه فعرف فقلت: يا سيدي افعـل فقال: اجلس للناس وخذ رقاعهم في الحوائج الكبار واستعجل عليها ولا يمتنع علـيك من مسألتي شيئا تخاطبني فيه صحيحا كان أو محالا إلى أن يحصل لك مال النذر فكنت أعرض عليه كل يوم رقاعا فيوقع لي فيها وربما قال: كم ضمن لك على هذا؟ فـأقول: كـذا وكـذا فيقول: غلبت هذا يساوى كذا وكذا ارجع فاستزد فأراجع القول ولا أزال أماكسهم حتى أبلغ الحد الذى رسم لى فحصل عندى عشرين ألف دينار فى مديـدة وأكـثر فقال لى بعد شهور: يا أبا اسحاق حصل مال النذر؟ فقلت: لا فسكت وكنـت أعـرض علـيه ويسألنى فى كل شهر ونحوه: حصل المال؟ فأقول: لا خوفاً من انقطـاع الكسـب إلى أن حصـل لى ضـعف بذلك فسألنى يوماً فاستحييت من الكذب المتصـل فقلـت: قـد حصـل ذلـك ببركة الوزير فقال: قد فرجت والله عنى وقد كنت مشـغول القلـب إلى أن يحصـل لك ثم وقع إلى خازنه بثلاثة آلاف دينار صلة فأخذتها وامتنعـت عـن أن أعـرض علـيه شـيئاً فلما كان من الغد جئت وصليت على رسمى فـأومى إليَّ أن هات ما معك فقلت: ما أخذت من أحد شيئاً إن النذر حصل فقال: يا سـبحان الله أتـرى أنى أقطع عنك شيئا قد صار لك عادة وعلمه الناس وصارت لك

بـه وجاهـة ومنزلة وللناس غدو ورواح إلىَّ بابك ولا يعلم السبب فيظن ذلك ضعف جـاهك عـندى أعرض على رسمك وخذ بلا حساب فقبلت يده وباكرت بالرقاع ولم أزل كذلك إلى أن مات رحمه الله . انتهى .

(قـيل: **بينما خالد بن عبد الله القسرى**) جـالس على سرير ملكه إذ رأى أعرابياً يشق الصفوف فقال: افسحوا لـه فلما مثل بين يديه أنشأ يقول:

أقـول بمـا عـندى إلـيك فتسـمع ::: أم لا فمـرنى أى شـيء أصـنع

قال: فرفع خالد رأسه وقال: يا أعرابى

قـل مـا تشـاء فـإننى لـك أسمـع ::: هـذا وفى نظـرى لمـثلك مقـنع

فأنشأ الأعرابى يقول:

أصـلحك الله قـل مـا بـيدى ::: فمـا أطـيق العـيال إذ كـثروا
ألح دهـرى إذ أرمـى بكلكلـه ::: فأرسـلونى إلـيك وانـتظروا

فأطرق خالد ساعة ثم رفع رأسه وقال: أرسلوك إلىَّ وانتظروا؟ قال: أى والله أيها الأمـير قـال خـالد: والله لأعجلـن بسـراحك إليهم ثم قال: يا غلام علىَّ بألف دينار وألف دينار فلم يستتم كلامه حتى أتى بها ثم قال: ألف دينار وألف دينار وألف دينار فـأتى بهـا فقـال: خذها يا أعرابى فمد الأعرابى كساء لـه فلف فيها الألوف وأراد أن يحملها فعجز فبكى فقال خالد: مم بكاؤك يا أخا العرب استقللت ما أعطيناك؟ فقال: لا والله أيهـا الأمير ولكن بكيت لما تأكل الأرض من كرمك فقال خالد: يا غلام ألف دينار فأتى بها فأمر بالمال فحمل بين يديه فلما ولى خالد رده فلما وقف بين يديه قال: يـا أخـا العرب متى عاد إليك خصمك متغشما فعد إلينا متظلماً فإنا منصفوك عنه إن شـاء الله تعـالى فقـال: والله أيهـا الأمير إن معى من فضلك ما أدحض حجة خصمى بقية عمرى . انتهى .

(**قـيل**): قـام رجـل على باب معن بن زائدة الشيبانى سنة لا يصل إليه فرقّ لـه الحاجب وقال: يا هذا اكتب حاجتك فى رقعة واختصر فيها فقال: والله لا زدت على بيـت واحد من الشعر ثم كتبه فى ورقة وختمها ودفعها إلى الحاجب فأخذها الحاجب

وأوصلها إلى معن فإذا فيها مكتوب:

أيـا جــود معــن نــاج معــناً لحاجتي ::: فمـــا لي إلى معـــن ســـواك رســـول

فأمر لـه بعشرة آلاف درهم ثم اشتغل بالحديث ساعة ثم التفت فرأى الرقعة فأمر لــه بعشـرة آلاف أخـرى فلم يلحقه الرسول فرجع وقال: يا سيدى ما لحقت الرجل فقال معن: أتراه ظن أنا نسترجعها منه والله لو وقف لأنفذت إليه بعشرة تتبعها عشرة إلى أن يفنى بيت المال . انتهى .

(**قــيل**): وقـف رجـل بباب خمارويه بن أحمد بن طولون سنة كاملة لا يقدر على الدخـول إلـيه فـارق ذات لـيلة خمارويـه فقـال لغلامـه: اخـرج وانظر من بالباب من الشـعراء فوجـد أعرابـيا شاعرا فأدخله فلما مثل بين يديه وسلم عليه قال لـه: يا أخا العـرب هـات مـا قلت فينا فقال: أيها الملك لى اليوم سنة كاملة لم أقدر على الدخول إلـيك وقـد قلت فأكثرت ومدحت فأطنبت غير أنى جاءنى بالأمس كتاب من امرأتى من بغداد ورددت جوابها فقال: وما كتبت جوابها فأنشأ يقول:

كتبـــت تبـــتغي الإيـــاب وتوصـــينى ::: بتعجـــيله أشـــــد وصـــيه
وشـــكت عـــيلة إليّ وقالـــت ::: عـــد إليـــنا ولـــو بغـــير هديـــه
قـــد لبســـنا ثـــياب الـــنخل من بعـــ ::: دك حـــتى لم تـــبق فـــيه بقـــيه
فـــإلى كـــم تغيـــب والغائـــب الـــنا ::: زح يخشـــى علـــيه صـــرف المنـــيه
أتزوجـــت أم أصـــبت بمصـــر ::: غضـــة بضـــة البـــنان صـــبيه
فتشـــاغلت عـــن عـــيون تـــرا ::: عـــيك عـــلى القـــرب بكـــرة وعشيه
فـــرددت الجـــواب مهـــلا فـــإني ::: ســـوف آتـــيك مـــنه بالأمنـــيه
بـــألوف مـــن الدنـــانير حمـــر ::: مـــن خمارويـــه بـــن أحمديـــه

قـال: وضـمنت إلـيها يـا أخـا العـرب إذا والله لأعجلـن سراحك إليها ولأوفين ضمانك لها يا غلام ألفين دينار من ضربى وثلاثة آلاف من ضرب أبى فأتى بها الغلام قال الأعرابى: فضممتها وخرجت مسرعا فما أشعر إلا والخادم قد لحقني فقال: ارجع فرجعـت إلـيه مسرعا وظننـت أنـه يسـتعيدها مـنى فلما وقفت بين يديه قال: يا أخا العـرب إنـك ضـمنت لهـا الوفـاء فـى شـعرك ثم ذكرنا به لابد من النفقة فى الطريق

وتوصل إليها بغير ما ضمنت لها يا غلام سلم إليه خمسة آلاف أخرى قال: فضممتها وخرجت مسرعاً ولم أشعر إلا والخادم فى أثرى قد لحقنى وقال: ارجع فرجعت إليه فلما وقفت بين يديه قال: يا أخا العرب إنها تذكر لك أنك أتزوجت أم أصبت بمصر غضة بضة البنان صبية وقد أردت أن أحقق ظنها فيك يا غلام سلم إليه جارية بخمسمائة دينار وجهزها بمثلها قال: فضممت المال والجارية وانصرفت غنياً فى أحسن حال وأنعم بال اهـ.

(**قال محمد بن يزيد الدمشقى**): ما شعرت فى بعض الليالى إلا بقارع يقرع الباب فقلت: من أنت؟ قال: أجب الأمير فقلت: ومن الأمير؟ قال: الفضل بن يحيى البرمكى فقلت: لعلك غلطت علىَّ فى الرسالة فقال: ألست محمد بن يزيد الدمشقى؟ قلت: بلى، قال: إليك أرسلت قال: فدخلت إلى منزلى ولبست بقية أطمار كانت لى فخرجت أقفو أثره حتى أتيت دار الفضل فدخل قبلى مبادراً وقال لى: قف مكانك حتى أخرج إليك فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج إلىَّ وقال: ادخل يا محمد فدخلت فإذا أنا ببهو عظيم وفى صدر ذلك البهو مرتبة وفيها يحيى بن خالد والفضل وجعفر وسائر ولده على مراتبهم والخلق بين أيديهم من القضاة والعدول والفقهاء والتجار وجميع أهل الدولة وغيرهم فأقبلت أشق الصفوف حتى سلمت عليهم فأمرنى الفضل بالجلوس فى ناديهم فلما استقر المجلس بأهله فتح باب بيت عن يمين الفضل فأخرج مولودا للفضل ووضع فى وسط القوم وكان ليلة سابعه ولا علم لى فأقبل القوم يقرؤون ومجامر الند بينهم تختلف والشماع والعنبر تضيء عليهم بأيدى الخدم فلما فرغ القوم من ختمتهم قام الشعراء واحداً بعد واحد كل منهم يهنئه بطلعة المولود ويبشره برؤيته فلما فرغوا نثرت عليهم الدنانير ملتوتة بالمسك فما بقى منهم أحد إلا أخذ فى كفه وأخذت من جملتهم فلما انصرف القوم وانصرفت فى جملتهم لحقنى خادم الفضل وقال: ارجع يا محمد فرجعت فألفيت الفضل وهو جالس مع ابنه فقال: يا محمد اجلس فجلست فقال: قد سمعت ما كان منذ الليلة والله ما أعجبنى شيء من أشعارهم وقد أحببت أن تقول فى ذلك شيئا فقلت: أيد الله الأمير هيبتك تمنعنى من

قول الشعر فقال: لابد ولو كان بيتاً فقليلك كثير فأطرقت ساعة ورفعت رأسى وقلت: حضرنى بيتان فقال: هاتهما فأنشأ يقول:

ونفرح بالمولود من آل برمك ::: لبذل الندا والمجد والجواد والفضل
ويعرف فيه الخير عند ولاده ::: ولا سيما إن كان من ولد الفضل

فتهلل وجه الفضل فرحاً وسروراً وقال: ما سررت قط بمثلها وأمر لى بعشرة آلاف دينار وقال: خذها يا محمد وهى دون حقك فأخذتها وتوجهت إلى منزلى وأنا من أشد الناس فرحاً فلما أصبحت اشتريت أرضاً وعقار وفتح الله علىَّ وكثر مالى وعظم جاهى فما أقمت إلا يسيراً حتى دارت على البرامكة الدائرة وقتلوا بأجمعهم وكان من أمرهم ما كان فلما كان بعد سنين كثيرة اتفق لى أن أردت دخول الحمام فأرسلت إلى حمام بإزاء دارى وأمرت قيّمه بتنظيفه وأن لا يدخله أحداً ثم ركبت بغلتى ودخلت الحمام فلما قضيت ما أحتاج إليه أمرت صاحب الحمام أن يدخل لى قيّما فدخل علىَّ غلام حسن الوجه فدلكنى فلما استلقيت على قفاى ذكرت أيام البرامكة والفضل وأن جميع ما أملكه من عند الله وعلى يده فقلت: "ونفرح بالمولود من آل برمك" . . . البيتان قال: فرأيت الغلام الذى كان عندى يدلكنى قد انقلبت عيناه وتغير وجهه وانتفخت أوداجه وسقط مغشياً عليه فلما عانيت ما عانيت منه لم أشك أنه مجنون فخرجت مبادرا فاغتسلت ولبست ثيابى وركبت بغلتى وانصرفت إلى منزلى ثم أرسلت إلى قيم الحمام فلما حضر قلت له: ما حملك على أن أدخلت علىَّ مجنوناً يدلكنى؟ فقال: والله يا مولاى ما هو مجنون وله عندى سنين كثيرة ما رأيت منه قط هذا فقلت: علىَّ به الساعة فلما أتانى به وحصل عندى أدنيته منى وآنسته فلما اطمأن به المجلس قلت له: ما ذلك العارض الذى رأيته منك؟ قال: وما رأيت وقد ظهر منك ما أستحى أن أذكره لك قال: رأيتنى جنيت؟ قلت: نعم قال: وهل تعلم ما كان سبب ذلك؟ قلت: لا أدرى قال: ما كنت تنشده؟ قلت: بيتين من الشعر قال: وما هما؟ فأنشدته إياهما قال: ومن قائلهما؟ قلت: أنا قائلهما قال: فيمن قلتهما؟ قلت: فى ولد الفضل بن يحيى قال: أتعرف الساعة ولد الفضل بن يحيى؟ قلت: لا قال: أنا ولد الفضل بن يحيى وأنا صاحب السابع وفىَّ

قلت البيتين فلما سمعتهما منك وكنت قد سمعتهما قبل وعلمت أنهما فىَّ ضاقت علىَّ الأرض برحبها وظهر منى ما رأيت قال محمد: فوثبت وقبلت رأسه وبين عينيه وقلت له: يا سيدى أنا والله عبدك وجميع ما أملكه لأبيك وببركتك والله ما لى ولد ولا قرابة يرثنى وأنا شيخ كبير وقد عزمت أن أحضر شاهدين وأشهدهما أن جميع ما بيدى وما أملكه لك دونى ومالى من مالك وأكون أعيش فى فضلك إلى أن أموت فتغرغرت عيناه بالدموع وقال: لا والله لا أرجع فى شيء وهبه لك أبى وإن كنت محتاجاً إلى ذلك وخرج مولياً فخرجت وراءه وأقسمت عليه بالله أن يأخذ الكل أوالبعض فكره ومضى وكان آخر العهد به . انتهى .

(ذكــروا) عن الواقدى أنه قال: أصبت إضافة شديدة وهجم رمضان وأنا بغير نفقة فضاق صدرى لذلك فكتبت إلى صديق لى علوى أسأله أن يقرضنى ألف درهم فبعث بها مع الغلام فى كيس مختوم فتركها عندى فلما كان عشاء ذلك اليوم وردت ورقة من صديق لى يسألنى إسعافه بنفقة شهر رمضان بألف درهم فوجهت إليه بالكيس بختمه فلما كان الغد جاءنى صديقى الذى اقترض منى هو والعلوى الذى اقترضت منه الألف فسألنى العلوى عن خبر الدراهم فقلت: صرفتها فى حوائجى فأخرج الكيس بختمه وقال: أعلم أنه قد قرب هذا الشهر وما عندى سوى هذه الدراهم فلما كتبت إلىَّ وجهت بها إليك وكتبت إلى صديقنا هذا اقترض منه ألف درهم فوجه إلىَّ بالكيس فسألته عن القصة فشرحها لى وقد جئنا إليك لنقتسمها بيننا وإلى أن ننفقها يكون قد فتح الله بالفرج .

قال الواقدى: فقلت: لست أدرى أينا أكرم فاقتسمناها فدخل شهر رمضان فأنفقت ما حصل لى منها وضاق صدرى وبقيت أفكر فى أمرى فبينما أنا كذلك إذ بعث إلىَّ يحيى بن خالد البرمكى فى سحرة يوم فمضيت فقال لى: يا واقدى إنى رأيتك البارحة فيما يرى النائم وأنت فى حالة دلتنى أنك فى حالة شديدة فاشرح لى أمرك فشرحته إلى أن بلغت حديث العلوى وصديقى والألف دينار فقال: لا أدرى أيكم أكرم وأمر لى بثلاثين ألف درهم ولصاحبى بعشرة آلف درهم وقلدنى القضاء من

ذلك الوقت انتهى .

ونظيره ما حكى عن الأصمعى أنه قال: قصدت فى بعض الأيام رجلاً كنت أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بواباً فمنعنى من الدخول إليه ثم قال: والله يا أصمعى ما أوقفنى على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله وقصور يده فكتبت إليه رقعة وفيها:

إذا كان الكريم له حجاب ::: فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له: أوصل رقعتى إليه ففعل وعاد بالرقعة وقد كتب على ظهرها:

إذا كان الكريم قليل مال ::: تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار فقلت: والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر فتوجهت إليه فلما رآنى قال: من أين يا أصمعى؟ قلت: من عند رجل من كرام الأحياء حاشا أمير المؤمنين قال: ومن هو؟ فدفعت إليه الرقعة والصرة وأعدت عليه الخبر فلما رأى الصرة قال: هذه من بيت مالى ولا بد لى من الرجل فقلت: والله يا أمير المؤمنين إنى أستحى أن أروعه برسلك فقال لبعض خاصته: امض مع الأصمعي فإذا رآك الرجل قل له: أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج فلما حضر الرجل بين يدى المأمون قال له: أما أنت الذى وقفت لنا بالأمس وشكوت رقة وأن الزمان قد أناخ عليك بكلكله فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك فقصدك الأصمعى ببيت واحد فدفعتها إليه؟ قال: نعم والله يا أمير المؤمنين ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقه الحال لكننى استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدى إلا كما أعادنى أمير المؤمنين فقال المأمون: لله درك فما ولدت العرب أكرم منك ثم بالغ فى إكرامه وجعله من جملة ندمائه انتهى .

ذكروا أنه كان فى زمن سليمان بن عبد الملك رجل من بنى أسد يقال له: خزيمة بن بشر بالرقة وكان له ثروة ونعمة حسنة وفضل للإخوان فلم يزل على تلك الحال حتى فنى ماله وساء حاله فاحتاج إلى أصدقائه وإخوانه الذى كان يتفضل عليهم فواسوه أحياناً وملوه فلما رأى تغيرهم عليه أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال لها: يا

ابنة العم قد رأيت من إخواني تغيراً أغمنى وقد عزمت على لزوم منزلى حتى يأتى إلىَّ أجلى أو فرج الله سبحانه وتعالى فأغلق بابه وأقام بقوتهم مما بقى عنده حتى نفد وكان عكرمة الفياض والياً على الجزيرة فبينما هو فى بعض الأيام إذ جرى ذكر خزيمة وكان عنده عدة من أهل البلد فقال عكرمة: ما حاله؟ فقيل: فى سوء الحال إلى أن أغلق بابه ولزم منزلـه .

فقـال: إنـا الله وإنـا إلـيه راجعـون أمـا وجـد لـه مـواسٍ ولا مكـاف؟ قـالوا: لا فأمسك عكرمة على ما فى نفسه فلما كان المساء عمد إلى أربعة آلاف دينار وجعلها فـى كيس وأمر بإسراج دابته سرا من أهله وولده وركب ومعه غلام من غلمانه يحمل الكيس ثم خرج فلم يزل سائرا حتى وقف بباب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام وأمره أن يتـنحى عنه وقرع الباب فخرج إليه خزيمة فناولـه الكيس وقال: أصلح بهذا شأنك فـرأى خـزيمة كيساً ثقيلاً فوضعه بين يديه ثم تناول عنان دابته وقال: من أنت جعلت فـداك؟ فقـال لــه: مـا جئـت فـى هذه الساعة وأنا أريد أن تعرفنى قال: ما أقبلها أو تخـبرنى مـن أنـت فقـال: أنا جابر عثرات الكرام قال: زدني قال: لا ثم مضى ودخل خـزيمة عـلى امـرأته وقـال: أبشرى فقد أتى الله بالفرج والخير وإن كانت فلوساً فهى كـثيرة اسـرجى لـنا السـراج فقالـت: لم يكـن عـندنا نـار ولا سبيل إلى السراج فبات يتلمسـها فـيجد خشـونة الدنـانير ولا يصدق لكثرتها ورجع عكرمة إلى منزلـه فوافى امـرأته وكانـت ابنة عمه أيضاً وقد انتبهت فسألت عنه فأخبرت بركوبه منفرداً فشقت ثوبها ولطمت وجهها فلما نظر إليها غمه ذلك وقال: ما بالك يا ابنة عمى؟ فقالت: يا عكـرمة غـدرت بابنة عمك قال: والله ما فعلت . فقالت: أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة مـن اللـيل مـنفرداً مـا خرجـت إلا لزوجة أو لسرية قال: ما خرجت إلى واحد منهما قالـت: فأخـبرنى مـا الـذى خرجت لـه قال: يا هذه إنى لم أخرج فى هذا الوقت وأنا أريـد أن يعـلم بـى أحد قالت: لابد قال: وتكتمينه قالت: أفعل فأخبرها بالقصة على وجههـا ومـا كـان مـن قولــه لخزيمة ورده عليه ثم قال لها: أتحبين أن أحلف لك على ذلك: قالت: لا فإن قلبى قد اطمأن إلى ما ذكرت لى قال: وأصبح خزيمة وأصلح حاله

وحال الغرماء ثم تجهز إلى سليمان بن عبد الملك بفلسطين فلما وقف بباب داره دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهور المروءة والفضل فأذن لـه فلما سلم وكان سليمان عارفاً به .

فقـال: يـا خـزيمة مـا أبطـأ بك عنا؟ قال: سوء الحال قال: فما منعك من النهضة إليـنا؟ قـال: ضـعفى عنها قال: فبماذا نهضت الآن فأخبره بقصته من أولها إلى آخرها قـال: فهـلا عرفـته قال: لا يا أمير المؤمنين وذلك أنه كان متنكرا قال: فتلهف سليمان وقال: والله لو عرفناه لأعناه على مروءته ثم إنه ولى خزيمة الجزيرة وعقد لـه بها وهى يومـئذ بولايـة عكـرمة فـلما دنا خزيمة من البلد خرج عكرمة للقائد والناس معه فلما سـلم عليه سار إلى موكبه ومضى خزيمة حتى دخل دار الإمارة وأمر أن يؤخذ بعكرمة كفـيلاً وأمر بمحاسبته فوجد عليه فضولاً كثيرة فبعث إليه فى أدائها فقال: ما إلى شيء منها سبيل ولا أجدها .

فقال خزيمة: لابد منها فقال: ما هى عندى فاصنع ما أنت صانع فأمر به فكبل فى الحديـد وأقـام شـهراً حـتى أضناه القيد وبلغ امرأة عكرمة الخبر وأن الوالى هو خزيمة فضـاق صـدرها فدعـت مـولاة لهـا ذات عقـل وقالـت: اذهـبى إلى بـاب هذا الأمير واسـتأذنى علـيه وقولى عندى نصيحة وما أحب أن يسمعها غيرك فإذا خلوت به قولى لــه: مـا هـذا جـزاء جابر عثرات الكرام وأنت تكافئه بالحبس والحديد فلما قالت لـه ذلـك قـال خزيمة: واسوأتاه وإنه لهو قالت: نعم ثم وثب وأمر بدابته فأسرجت وبعث إلى وجـوه أهـل الـبلد فجمعهـم وخرج بهم إلى السجن فلما رآه السجان قام مذعوراً فقـال لــه: افـتح ففـتح ودخل هو ومن معه فلقى عكرمة فى قاعة السجن متغيراً قد أضـناه القـيد والحـبس فـلما نظـر إلى خـزيمة وإلى من معه احتشم ونكس رأسه فأقبل خزيمة وأكب على رأسه يقبله فرفع رأسه إليه وقال: ما أوجب ذلك؟ قال: كرم فعلك وسـوء مكافـأتى قـال: يغفـر الله لـنا ولك قال: وأتى بالحداد وفك قيوده وأمر خزيمة بوضع القيد فى رجله فقال عكرمة: فماذا تريد؟ قال: أريد أن ينالنى من الضر مثل ما نـالك مـن الحـبس والضـيق والقـيد قـال: فـآلى عليه أن لا يفعل ثم خرجا جميعاً وقد

أوقفت لهما دابتان بباب الحبس وركب وخرج الناس معهما حتى وافيا باب خزيمة فشكر له عكرمة وأراد الانصراف فقال خزيمة: ما أنت بنازح منى ودخل به قصره فقال له: ما تريد؟ قال: أريد أن أغير ما ظهر بك من الحبس وحيائى من ابنة عمك أشد من حيائى منك فأمر به إلى الحمام وأصلح ذاته وأدخلا الحمام جميعاً وقام خزيمة إليه بنفسه ولم يول أمره أحداً غيره ثم خرج إلى المنزل وأكلا ثم دعى خزيمة بأحسن ثيابه وأفره دوابه وأفصح خدمه فدفع ذلك إلى عكرمة واستأذنه بالسلام على ابنة عمه واعتذر إليها فقبلت عذره وجزته خيراً بما فعله ثم سأله خزيمة أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بالرقة فلما دخل الحاجب على سليمان وأعلمه بقدوم خزيمة راعه ذلك وقال: والى الجزيرة يقدم بغير أمرنا ما هذا إلا لأمر عظيم فلما دخل عليه قال له سليمان قبل أن يسلم عليه: ما وراءك؟ قال: خير يا أمير المؤمنين ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أبشرك لما رأيت من تلهفك عليه قال: ومن هو؟ قال عكرمة الفياض قال: وما كان من خبره فقص عليه أمره وأذن لعكرمة فدخل وسلم عليه ورحب به وأدنا مجلسه وقال: يا عكرمة ادفع حوائجك كلها فقال: اعذرنى يا أمير المؤمنين قال: لابد ثم دعا بدواة وقرطاس وقال: قم وأثبت حوائجك كلها فأثبتها ثم أتى بالرقعة فأمر بإنفاذها من ساعته وأمر له بعشرة آلاف دينار ثم دعا بقناة فعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وقال: أمر خزيمة إليك فإن شئت فاعزله وإن شئت فاتركه قال: بل أتركه يا أمير المؤمنين على عمله ثم انصرفا جميعاً ولا يزالا عاملين له مدة حياة سليمان بن عبد الملك انتهى.

(ولما) حبس الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب لبقايا كانت عليه من خراج خراسان وأقسم ليستأدى منه كل يوم مائة ألف درهم فبينما هو يوما وقد اختلى فيه إذ دخل عليه الأخطل فأنشده:

أبا خالد ضاعت خراسان بعدكم ::: وقال ذووالحاجات أين تريد
وما قطرت بالرى بعدك قطرة ::: ولا أخضر بالمروين بعدك عود
وما لسرير بعد ملكك بهجة ::: ولا لجواد بعد جودك جود

فقـال: يـا غـلام أعطه المائة ألف درهم وأنا أصبر على عذاب الحجاج ولا نخيب الأخطل فبلغ الحجاج فقال: لله در ابن المهلب لو كان تاركاً للسخاء لتركه وهو يتوقع الموت فعفى عنه وخلى سبيله.

(وروى) عـن سـعيد بـن العـاص وقد قدم الكوفة عاملاً لعثمان بن عفان ﷺ وكان بالكوفـة رجـلاً مـن القراء يتعشا عنده وقد ساءت حالته فقالت لـه امرأته: ويحك إنه بلغنـا عـن أميرنـا هـذا أنـه كريم فاذكر حالك لعله ينيلنا شيئاً فلم يبق الصبر فينا بقية فقـال: ويحـك لا تخلقـي وجهي قالت: فاذكر لـه ما نحن فيه من سوء الحال قال: فلما كـان وقـت العشـاء أكـل عـنده فلما انصرف الناس قعد الرجل فقال لـه سعيد: أظن جلوسـك لحاجـة فاذكـرها فخجل الرجل فقال سعيد لغلمانه: تنحوا ثم قال للرجل: إنمـا بقـي أنـا وأنـت فاذكر حاجتك فتعقد وتعسر فنفخ سعيد المصباح فأطفأه ثم قال: لسـت تـرى وجهـي فاذكـر حاجـتك فقـال: أصلح الله الأمير أصابتنا حاجة فأحببت ذكرها لك وسكت فقال لـه سعيد: إذا أصبحت فالق وكيلي فلان فلما أصبح الرجل لقـي الوكـيل فقـال لـه الوكـيل: إن الأمير قد أمر لك بشيء فاطلب من يحمله معك فقـال: مـا عندي من يحمله وانصرف إلى امرأته وجعل يلومها وقال لها: قال لي وكيله: ائـت بمـن يحمله معك وما أظنه إلا أمر لي بتمر أو شعير أو بر وذهب ماء وجهي ولو كانت دراهم أو دنانير أعطيتها بيدي فلما كان بعد أيام قالت لـه امرأته: يا هذا قد بلغ بـنا الأمر إلى ما ترى ومهما أعطاك الأمير تقوتنا به أياماً فالق وكيله قال: فلقي الوكيل فقـال لـه: إني كنت أخبرت الأمير أن ليس معك من يحمل ما أمر به فأمرني أن نوجه معـك بمـا أمرني به لكني لم أعرف منزلك ثم أخرج ثلاثة من السودان على رأس كل واحـد مـنهم بدرة وقال: امضوا معه إلى منزلـه فلما بلغ الرجل باب منزلـه فتح بدرة وأخرج منها دراهم ودفعها إلى السودان وقال: انصرفوا قالوا: إلى أين نحن عبيدك؟ إنه مـا حمل مملوك للأمير هدية إلى أحد فرجع المملوك إلى ملكه قط قال: فصلحت أحوال الرجل واستظهر على دنياه. انتهى.

(قيل): إن أعرابياً صاحب محمد بن معن بن زائدة الشيباني وإنهما خرجا يطوفان

فـى الآفـاق لطلـب الأرزاق فـلما قصـر عليـهما القـوت وكانـا يأويـان إلى المسـاجد والمصـاطب ويقتـنعان باليسـير مـن المطاعم والمشارب وكان لباس محمد بن معن فروة مـروزية قبيحة المنظر والصورة وكان لباس الأعرابى عباءة قصيرة مرتد فوقها بحصيرة فأقاما على ذلك أياماً فحن كل واحد منهما إلى وطنه فنال محمد بن معن منزلة أبيه فى العلو والشرف والرفعة والسمو وهوالذى يقول فيه الشاعر:

معـن بـن زائـدة الـذى زادت بـه ::: شـرف عـلى شـرف بـنو شـيبان

فـلما استوى سلطانه وارتفع مكانه واشتهر ذكره وعظم أمره وعلت كلمته سمع الأعـرابى خبره فقصده فلما وصل إلى بابه نزل على راحلته واستأذن بالدخول فدخل فوجد محمد بن معن قاعداً على سرير ملكه فسلم وأنشد:

أتذكـر أن لباسـك جلـد شـاة ::: وإذا نعـلاك مـن جلـد الـبعير

فقال: أذكر ذلك يا أخا العرب فقال الأعرابى:

وتـأوى كـل مصـطبة وسـوق ::: بـلا عـبد لديـك ولا وزيـر

قال: ما أنسيت ذلك يا أخا العرب فقال الأعرابى:

وفى يمـناك عكـاز قـوى ::: تـدوس بـه الكـلاب مـع الهريـر

قال: ما خفى عليك خبرها إذ هى كعصى موسى فقال الأعرابى:

فسـبحان الـذى أعطـاك ملكـا ::: وعـلمك الجلـوس عـلى السـرير

قال بفضل الله سبحانه لا بفضلك فقال الأعرابى:

فـلا آتـى بـلادا أنـت فـيها ::: ولـو حـزت الشـآم مـع الـثغور

قال: قد ملكناها يا أعرابى فاختر لنفسك موضعا نضعك فيه فقال الأعرابى:

فمـر لى يـا بـن معـن باعـتجال ::: فـإنى قـد عزمـت عـلى المسـير

فأمر لـه بألف دينار فقال الأعرابى:

قلـيل مـا أمـرت بـه وإنى ::: لأطمـع مـنك بالشـىء الكـثير

فأمر لـه بألف أخرى فقال الأعرابى:

فثلث إذ ملكت الأرض طرا ::: بلا عقل ولا جاه خطير

فأمر لـه بألف أخرى فقال الأعرابي:

ولا أدب كسبت بـه المعالى ::: ولا خلق ولا رأى منير

فأمر لـه بألف أخرى فقال الأعرابي:

فمنك الجود والإفضال حقاً ::: وجود يديك كالبحر الغدير

فقال محمد: اضعفوا لـه العطايا فأعطوه أربعة آلاف أخرى لأجل المدح والأولى لأجل الهجاء فقال الأعرابي: فانصرفت بالمال العظيم والغنى الجسيم وأنا أردد الآية ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء** ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦] انتهى.

(**ذكروا**) أن قوماً من العرب توافقوا ليقصدوا طلحة الطلحات بسجستان فمروا فى طريقهم بعجوز من العرب فقالت: أين تريدون؟ قالوا: نريد الجواد طلحة الطلحات بسجستان فذبحت لهم شاة لا تملك غيرها فعجبوا لكرمها فلما ارتحلوا من عندها قالوا: يا عجوز لك حاجة؟ قالت: تحسنون الثواب فى أمرى وتحملون لى رقعة إلى طلحة الطلحات مختومة على أنها أمانة عندكم لا تفكونها ولا تقفون على ما فيها قالوا: نعم فأعطتهم رقعة مختومة وقد كتبت فيها وهى تقول:

أيها المائح دلوى دونك ::: إنى سمعت الناس يحمدونك

يثنون خيراً ويمجدونك ::: أرجوك للخير الذى يرجونك

قال: فلما بلغوا طلحة الطلحات أبرهم وأكرمهم وكساهم فقالوا: أيها الأمير معنا رقعة مختومة وهى أمانة لعجوز من العرب وأخذت علينا ألا نفكها حتى نوصلها إليك فأخذها فلما قرأها قال: ما رأيت أعجب من أمر هذه العجوز إنها التمست جبنة من جبن سجستان فهل تحملونها إليها؟ قالوا: نعم قال: فعودوا إذا عزمتم على الرحيل ثم أخذ جبنة كبيرة وقورها وصب فيها ألف دينار ثم وضعها فى جراب وختم عليها وقال: هذه الجبنة والجزاء أمانتى معكم كما كانت أمانة العجوز لا تفتحوها ولا تقفوا

عليها حتى توصلوها إلى العجوز وكتب إليها فى الجواب:

مـــا آلهـــا فيضـــاً يفـــيض فيضـــاً ::: فلـــن تخـــافى مـــا بقيـــت هيضـــا

خذى إليك ثم عودى أيضاً

(**ومـــن نوادر حاتم الطائى**): أنـه مـر بأرض غير أرضه فناداه أسير: يا حاتم أكلنى الأسـار والقمـل فقال: ما أنا بأرض قومى وقد أخطأت إذ نوهت باسمى ولا معى ما أفديك به ثم قال للذى هو فى يده: خل سبيله واجعلنى فى القيد مكانه حتى آتيك بما أفتدى به ففعل وبعث حاتم إلى قومه فأتوه بمال فافتدى به عن نفسه اهـ .

(**روى أن ثلاثة رجال**) تلاحـوا بفـناء الكعبة فقال أحدهم: أسخى الناس عبد الله ابـن جعفـر وقـال الآخـر: قـيس بن سعد بن عبادة وقال الآخر: عرابة الأوسى وكثر كلامهم في ذلك ، فقال لهم رجل: ليمض كل واحد منكم إلى صاحبه ويسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان ، فقام صاحب عبد الله فصادفه قد وضع رجله فى الركاب ليريـد السـفر فقـال: يـا ابن عم رسول الله قال: قل قال: ابن سبيل ومنقطع فثنى رجله وقـال: خـذ الـناقة بمـا عليها ولا تخدعن فى السيف فإنه من سيوف على بن أبى طالب كـرم الله وجهـه فجـاء بالـناقة علـيها مطرف خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها السيف ومشـى الآخـر إلى قـيس بـن سـعد بـن عـبادة فوجده نائماً فقال خادمه: هو نائم فما حاجتك؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به .

قـال: حاجـتك أيسـر مـن إيقاظـه هـذا كيس فيه سبعمائة دينار وما فى دار قيس سـواها وامـض إلى معـاطن الإبـل بعلامـة إلى من فيها وخذ راحلة وعبداً وامض إلى أهلـك ، فقـيل: إن قيسـاً انتـبه فأعلمه الخادم بما صنع فقال: لما لا أيقظتنى حتى كنت أزيـده ومضـى صـاحب عرابة فألفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو متكئ على عـبدين وقـد كـف بصره قال: يا عرابة قال: قل قال: ابن سبيل ومنقطع به فخلى عن العـبدين وصـفق بيده فقال: أواه أواه ما تركت الحقوق لعرابة مالا خذ العبدين فقال: مـا كنـت لأقـص جناحيك قال: إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت فخذ وإن شئت

فأعتق وتركهما وأقبل عرابة يلتمس الحائط بيده فأجمع الحاضرون أن عرابة أسخى الثلاثة لأنه جهد من مُقِلّ وأن الغير أعطى من فضل وسعة . انتهى .

(قيل) دخل أعرابى على خالد بن عبد الله القسرى فقال:

أخـالد إنى لم أزرك لحاجـة ::: سـوى أننى عـاف وأنـت جـواد
أخـالد بـين الحمـد والأجـر حاجتى ::: فأيهمـا تـأتى فأنـت عمـاد

فقال خالد: ما حاجتك؟ قال: مائة ألف درهم قال خالد: أسرفت فأحططنا منها قال: حططتك منها ألفاً قال خالد: ما أعجب ما سألت وما حططت قال: لا تعجب سألتك على قدرك وحططت على قدرى فأعطاه ما طلب .

(وسأل) رجل أسد بن عبد الله فقال: إني ما أتيتك لحاجة ولكنى رأيتك تحب من أعطيت فأحببت أن تحبنى فأعطاه عشرة آلاف درهم .

(وكتب) ابن طاهر إلى إسماعيل رقعة يذكر فيها اختلال حاله وفى آخر الرقعة هذه الأبيات:

يـا سـيداً لى لم يـزل ::: غيـثاً لكـل مؤملـيه
إن كنـت أملـك درهمـاً ::: فكفـرت بالمـنقوش فـيه

فبعث إليه ثلاثة آلاف دينار .

(ومثل) بين يدى خالد بن عبد الله أعرابى فأنشد:

إنى غـلام لم أزل فقـيراً ::: أكفـل أمـاً وأبـاً كـبيرا
وقـد أتيـت مادحـاً أمـيرا ::: أطلـب شـيئاً تافهـاً يسـيراً
إن أنـت قـد وهبـتنى بعـيرا ::: أو صـلة كنـت بهـا جديـرا
تشـكرك أمـى وأبى كـثيرا ::: وندعـو الله لـك القديـرا

أن لا تزال سيداً أميرا

فاستحسن كلامه وأمر له ببعير فلما قبضه قام بين يديه وأنشد:

هـل لـك أن توقـره طعامـا ::: تحـى بـه الشـيخين والغلامـا

وصبية من أهلنا يتاما

فقال له خالد: والله ما أنصفناك ولا أعطيناك ما تستحقه ثم أمر له بخمسين بعيراً موقرة طعاماً وقال: أقسم الطعام على ما ذكرت وخذ الإبل لنفسك انتهى.

(ودخل) كثير عزة على طلحة الطلحات عائداً فقعد عند رأسه فلم يكلمه لشدة ما به فأطرق ملياً ثم التفت إلى جلسائه فقال:

لقد كان بحراً زاخراً، وغيثاً ماطراً، ولقد كان هطل السحاب، حلو الخطاب، قريب الميعاد، صعب القياد، إن سئل جاد، وإن ابتلى صبر، وإن فوخر فخر، وإن صارع بدر، وإن جنى عليه غفر، سليط البنان، جرى الجنان، ذو الشرف القديم، والفرع الكريم ذو الحسب الصميم، يبذل عطاياه، ويرفد جلساه ويرهب أعداه، ففتح طلحة عينيه وقال: ويلك يا كثير ما تقول فقال:

يا ابن السماحة من خزاعة والذى ::: أس المكارم وارتدى بنجاد
حلت سماحتك الوفود من الورى ::: فكأنما كانوا على ميعاد
لتعود سيدنا وسيد غيرنا ::: ليت التشكى كان بالعواد

فاستوى جالساً وأمر بمائة من الإبل وقال: هى لك إن عشت فى كل سنة انتهى.

(ولما) وفد ابن المولى على يزيد بن حاتم مدحه بقصيدته التى يقول فيها:

يا واحد العرب الذى ::: أضحى وليس له نظير
لو كان مثلك واحد ::: ما كان فى الدنيا فقير

فدعا بخادمه وقال: كم تحت يدك؟ قال: ألفى دينار قال: ادفعها له ثم التفت إليه وقال: العذر لك لو كان ثم أكثر لدفعته انتهى.

(وقدم) على يزيد بن المهلب رجل من قضاعة فقال:

مالى أرى أبوابهم مهجورة ::: وكأن بابك مجمع الأسواق
أرجوك أم خافوك أم ساموا الذى ::: بيديك فانتجعوا من الآفاق
إنى رأيتك للمكارم عاشقاً ::: والمكرمات قليلة العشاق

فأمر له بألف دينار فلما كان فى العام المقبل أتى إليه فأنشده:

والله مـــا نـــدرى إذا مـــا فضـــنا ::: طلـــب إلـــيك مـــن الـــذى نتطلـــب
ولقـــد ضـــربنا فى الـــبلاد فـــلم نجـــد ::: أحـــدا ســـواك إلى المكـــارم ينســـب

فأمر لـه بألف دينار وقال: نحن صابرون على عادتك فعد متى شئت انتهى .

ولازم بعـض أبناء ملوك العجم باب كسرى دهراً فلم يؤذن لـه فتلطف بالحاجب فى إيصال رقعة فيها أربعة أسطر . .

الأول: الأمل والضرورة أقدمانى عليك . .

الثانى: القل والعدم لا صبر لصاحبهما عن الطلب . .

الثالث: أما نعم مربحة أو لا مربحة . .

الـــرابع: اعـلم أيهـا الملـك أن الـرجوع إلى الأهـل بـلا قضـاء حاجـة شماتـة الأعـداء فوقـع لــه أمـا الضـرورة والأمـل فسـنغنيك عـنهما وأمـا القـل والعـدم فسـتغنيهما عـنك وأمـا الـرجوع إلى الأهـل بـلا حاجـة شماتـة الأعـداء فالشـماتة بـنا أعظـم إذا رجـع قاصـدنا خائبا وأمـر لــه بمـا شـاء مـن خيل وإبل وذهب وفضة وأخذ عليه عهداً متى نفد عطاؤك تعد إلينا والسلام .

قـــدم شـاعر على أبى دلف قاسم بن عيسى العجلى فأقام ببابه مدة لا يصل إليه فكتب إليه فى رقعة هذه الأبيات:

مـــاذا أقـــول إذا ســـئلت وقـــيل لى ::: مـــاذا لقيـــت مـــن الجـــواد الأفضـــل
إن قلـــت أعطـــانى كذبـــت وإن أقـــل ::: بخـــل الجـــواد بمالـــه لم يجمـــل
ولأنـــت أعـــلم بالمكـــارم والعـــلى ::: ممـــن يقـــول فقلـــت مـــا لم تفعـــل
فاخـــتر لنفســـك مـــا أقـــول فـــإننى ::: لابـــد أعـــلمهم وإن لم أســـأل

ودفعهـا للحاجـب فـلما وقـف عليها أبو دلف أجرى لـه عن كل يوم قامه ألف درهم وكتب خلف الرقعة:

عاجلتـــنا فأتـــاك عـــاجل بـــرنا ::: نـــزراً ولـــو أمهلتـــنا لم نقلـــل
فخـــذ القلـــيل وكـــن كـــأنك لم تسل ::: ونكـــون نحـــن كأنـــنا لم نســـأل

(وقصد) الحكم بن عبدان الشاعر أسماء بن خارجة فأنشده:

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد ::: فى ساعة ما كنت من نوامها
فرأيت أنك رعتنى بوليدة ::: مغناجة حسن لدى قوامها
وببدرة حملت لدى وبغلة ::: شهباء ناجية تصك لجامها
فسألت ربى أن يثيبك جنة ::: عوض يصيبك بردها وسكامها

فقال له: أصبت عندنا كل شيء إلا البغلة فإنها دهماء فقال: أذكرتنى أيها الأمير فإنى ما رأيتها إلا دهماء فضحك وأمر له بكل شيء سأله . انتهى .

(ونظيرها) ما حكى أن بعض الظرفاء قصد عيسى بن الشيخ بأمر فأنشده:

رأيتك فى المنام خلعت خزاً ::: علىَّ بنفسجى وقضيت دينى
فعجل لى فداك أبى وامى ::: مقالا فى المنام رأته عينى

فقال: اعرض كل ما فى الخزائن من الخز فعرضه فوجد فيه سبعين شقة بنفسجية فدفعها إليه وقال: كم دينك؟ قال: عشرة آلاف فأعطاه عشرين ألفا وقال: لا تعد ترى مناما آخر . انتهى .

(ونظيرها) ما حكاه أبو العيناء قال: وقف أعرابى بباب المأمون وأنشد:

إنى رأيتك فى منامى سيدى ::: يا ابن الإمام على الجواد اللاحق
فكسوتنى خلاً ظرائف حسنها ::: يزهو على حسن الكميت السابق

فقال المأمون: أعطوه خلعة وفرساً فقال:

وأجزتنى بخريطة مملوءة ::: ذهباً وأخرى باللجين الفائق

فقال أعطوه: ألف دينار وألف درهم فى خريطة فقال:

وحبوتنى بمليحة رومية ::: حسناء تشفع بالغلام الفائق

فقال: أعطوه جارية وغلاماً ويا أعرابى إنك إن ترى مثل هذا المنام ربما لم تجد من يفسره لك .

(وقيل): كان أبو مزيد أحد الكرماء مدحه بعض الشعراء فقال للشاعر: والله ما عندى ما أعطيك ولكن قدمنى للقاضى وادعى علىَّ بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسنى فإن أهلى لا يتركونى محبوسًا ففعل ذلك فلم يمس حتى دفعت إليه

العشرة آلاف درهم وأخرج من الحبس .

(وقيل): اعترض الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى فى وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان شخص إلى الكوفة فقطع به وأخذ جميع ما كان معه فأخذ بعنان دابة الفضل وقال:

سأرسل بيتا ليس فى الشعر مثله ::: يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندا والبأس فى كل منزل ::: أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

قال: فأمر له بمائة ألف درهم انتهى (ودخل إسحاق بن إبراهيم) الموصلى على هارون الرشيد فقال: ما لك؟ قال هذه الأبيات:

سوامى سوام المكثرين تحملا ::: ومالى كما قد تعلمين قليل
وآمرة بالبخل قلت لها أقصرى ::: فذلك شيء ما إليه سبيل
وكيف أخاف الفقر وأحترم الغنا ::: ورأى أمير المؤمنين جميل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى ::: بخيلا له فى العالمين خليل

فقال الرشيد: هذا والله الشعر الذى صحت معانيه وقويت أركانه ومبانيه ولذ على أفواه القائلين وأسماع السامعين ، يا غلام أعطه خمسين ألف درهم انتهى والله أعلم .

* * * * *

الباب التاسع

(فى ذكر قطع متفرقة من الشعر وفيه فصول)

الفصل الأول فى الغزل

فمن ذلك ما استحسن من شعر بدر الدين الدمامينى وهو:

سل سيفاً من الجفون صقيلا ::: مذ تصدى إلىّ رحت قتيلا
صح عن جفنه حديث فتور ::: وهو ما زال من قديم عليلا
مذ بدا لنا من الخصر ردفاً ::: فأرانا مع الخفيف ثقيلا
ذو قوام كأنه الغصن لكن ::: بالهوى نحو وصلنا لن يميلا
كامل الحسن وافر ظل وجدى ::: فيه يا عاذلى شديداً طويلا
فاتر الجفن ذو جمال كثير ::: أتلف العاشقين إلا قليلا
قلت إذ لاح طرفه ولماه ::: فاتر اللحظ بكرة وأصيلا
كيف حالى وهل لصب إليه ::: من سبيل فقال لى سلسبيلا

(بهاء الدين زهير)

يعاهدنى لا خاننى ثم ينكث ::: وأحلف لا كلمته ثم أحنث
وذلك دأبى لا يزال ودأبه ::: فيا معشر الناس اسمعوا وتحدثوا
أقول له صلنى يقول نعم غدا ::: ويكسر جفنا هازئا بى ثم يعبث
أمولاى إنى فى هواك معذب ::: وحتى ما أبقى فى العذاب وأمكث
فخذ مرة روحى ترحنى ولم أكن ::: أموت فى النهار مراراً وأبعث
فإنى لهذا الضيم منك لحامل ::: ومنتظر لطفاً من الله يحدث
أعيذك من هذا الصدود الذى بدا ::: خلائقك الحسنى أرق وأدمث
تردد ظن الناس فينا وأكثروا ::: أقاويل منها ما يطيب ويخبث

(وله أيضاً)

حبيبى ما هذا الجفا الذى أرى ::: وأين التغاضى بيننا والتعطف
لك اليوم أمر لا أشك يريبنى ::: فما وجهك الوجه الذى كنت أعرف
نعم نقل الواشون عنى باطلا ::: فملت لما قالوا فزادوا وأسرفوا
كأنك قد صدقت فينا حديثهم ::: وحاشاك من هذا فخلقك أشرف
وقد كان قول الناس فى الناس قبلنا ::: فكذب يعقوب وسرق يوسف

بعيشـــك قـــل لي مـــا الذى قد صنعته ::: فـــإنك تـــدرى مـــا أقـــول وتنصـــف
فـــإن كـــان قـــولا صـــح أني قلـــته ::: فللقـــول تـــأويل وللقـــول مصـــرف
وهـــب أنـــه قـــول مـــن الله منـــزل ::: فقـــد بدلـــوا الـــتوراة قـــوم وحرفوا
وهـــا أنـــا والواشـــى وأنـــت جميعـــنا ::: يكـــون لـــنا يـــوم عظـــيم وموقـــف

(للصفى الحلى)

شـــكرت إلهـــى إذ بـــلا مـــن أحـــبه ::: بعشـــق ملـــيح فى الهـــوى ليس ينصف
يجـــرعه أضـــعاف مـــا بى مـــن الأسى ::: يـــنحلـــه بالهجـــر مـــنه ويـــتلف
فـــأورده مـــا أورد الـــناس فى الهـــوى ::: وأســـلفه الوجـــد الـــذى كان يسلف
فأصـــبح مســـلوباً وقـــد كـــان سالباً ::: ففـــى الحزن يعقوب وفى الحسن يوسف

(ابن عنين)

مـــاذا عـــلى طـــيف الأحـــبة لو سرى ::: وعلـــيهم لـــو ســـامحونى فى الكـــرى
جـــنحوا إلى قـــول الوشـــاة وأعرضوا ::: والله يعـــلم أن ذلـــك مفـــترى
يـــا معرضـــاً عـــنى بغـــير جـــناية ::: إلا لمـــا رشـــق العـــذول وزورا
هـــبنى أســـأت كمـــا تقـــول وأفترى ::: وأتيـــت فى حبـــيك أمـــراً مـــنكرا
مـــا بعـــد بعـــدك والصـــدود عقوبـــة ::: يـــا هاجـــرى هـــل آن لى أن تغفـــرا
لا تجمعـــن عـــلىَّ عتـــبك والـــنوى ::: حســـب المحـــب عقوبـــة أن يهجـــرا
أشـــكو إلـــيك نـــوى تمـــادى عمرها ::: حـــتى حســـبت الـــيوم مـــنه أشـــهرا
لا عيشـــى تصـــفو ولا رســـم الهوى ::: يعفـــو و لا جفـــنى يصـــافحه الكرى

(غيره)

لـــو أن قلـــبك لى يـــرق ويـــرحم ::: مـــا بـــت مـــن ألم الهـــوى أتـــألم
ومـــن العجائـــب أنـــنى لا ســـهم لى ::: مـــن ناظـــريك وفى فـــؤادى أســـهم
يـــا جـــامع الضـــدين فى وجـــناته ::: مـــاء يـــرق علـــيه نـــار تضـــرم
عجـــبى لطـــرفك وهـــو ماض لم يزل ::: فعـــلام يكســـر عـــندما يتكـــلم
ومـــن المـــروءة أن تواصـــل مدنفـــاً ::: والدهـــر سمـــح والحـــوادث نـــوم

(للصفى الحلى)

عبـــث النســـيم بقـــده فـــتأودا ::: وســـرى الحـــياء بخـــده فـــتوردا
رشـــأ تفـــرد فـــيه قلـــبى بـــالهوى ::: لمـــا غـــدا بجمالـــه مـــتفردا

قاسوك بالغصن الرطيب جهالة ::: تا الله قد ظلم المشبه واعتدى
حسن الغصون إذا اكتست أوراقها ::: ونراك أحسن ما تكون مجردا

(ابن صابر)

قبلت وجنته فألفت جيد ::: خجلا ومال بعطفه المياس
فانهل من خديه فوق عذاره ::: عرق يحاكى الطل فوق الآس
وكأننى استقطرت ورد خدوده ::: يتصاعد الزفرات من أنفاس

(ابن الساعاتى)

بكت للفراق وقد راعها ::: بكاء المحب لبعد الديار
كأن الدموع على خدها ::: بقية طل على جلنار

(الواوا الدمشقى)

قالت متى البين يا هذا فقلت لها ::: إما غدًا زعموا أولا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ::: ورداً وعضت على العناب بالبرد

(وله أيضاً)

بالله ربكما عوجا على سكنى ::: وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بى وقولا فى حديثكما ::: ما بال عبدك بالهجران تتلفه
وإن تبسم قولا عن ملاطفة ::: ما ضر لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما فى وجهه غضب ::: فغالطاه وقولا لسنا نعرفه

(أخذه القائل فضمنه دو بيت في المعنى)

باللطف إذا لقيت من أهواه ::: عاتبه وقل له الذي ألقاه
إن أغضبه الوصال غالطه به ::: أورق فقل عبدك لا تنساه

(غيره)

أى مرتحلاً. إلى الحما مصرفه ::: بالله عليك خذ معك كتاب
لى ثم رشا. عساك تستعطفه ::: إن هان عليك فى رد جواب

إن عـــرض بى. فقـــل لـــــه أعـــرفه ::: مشـــتاق إلـــيك. قـــد رق وذاب
لا يـــتركه هـــواك بـــل يـــتلفه ::: والأمـــر إلـــيك. مـــا الهجـــر صواب

(وقال آخر)

ألا يـــا نســـيم الـــريح بلـــغ رســـالتى ::: ســـليمى وعـــرض بى كـــأنك مـــازح
فـــإن أعرضـــت عـــنى فمـــوه مغالطاً ::: بغـــيرى وقـــل ناحـــت بـــذاك النوائح

(وللصفدى فى المعنى)

ويـــا رســـولى إلـــيهم صـــف لهم أرقى ::: وإن طـــرف لضـــيف الطـــيف مرتقب
واســـأل مواهـــبهم للعـــين بعد كرى ::: عســـاهم يهـــبوا لى بعـــض مـــا لهبوا
وألطـــف القـــول لا تســـأم مـــراجعة ::: وأشكو الهوى والنوى قد ينجح الطلب
عـــرض بذكـــرى فـــإن قـــالوا أتعرفه ::: فاســـأل لى الوصل وأنكرنى إذا غضبوا

(المظفر بن عمر الآمدى)

قـــل للـــذى قـــد جفونى إذ هجت هم ::: دون الأنـــام وخـــير القـــول أصـــدقه
أحـــبكم وهلاكـــى فى محبـــتكم ::: كعـــابد الـــنار يهواهـــا وتحـــرقه

(غيره)

قـــد كنـــت أسمـــع بـــالهوى وأكذب ::: مـــن كـــان يـــتهم الهـــوى ويجـــرب
حـــتى بلـــوت بحلـــوه وبمـــره ::: وأرى المحـــب ومـــا يقـــول فأعجـــب

(غيره)

يـــا ذا الـــذى فـــتن الأنـــام بحسنه ::: أغمـــض لحـــاظك قد قتلت بها الورى
وأعـــر جفـــونى مـــن جفونـــك نومة ::: مـــا فى المـــروءة أن تـــنام وأســـهرا

(غيره)

قـــد قلـــت إذ لحظـــته عـــينى مـــرة ::: فاحمـــر مـــن خجـــل وفـــرط تـــترف
عـــينى الـــتى غرســـت بخـــدك وردة ::: مـــن ذا يقـــول لغـــارس لا تقطـــف
يـــا ســـافكاً دمـــى الحـــرام بطـــرفه ::: أو مـــا تخـــاف الله يـــوم الموقـــف
أرويـــته عـــن عـــالم أوجدتـــه ::: فى مســـند أقـــرأته فى مصـــحف

(غيره)

لقد ضاق بى صدرى فإن كنت لا تدرى ::: ســـل الدمـــع عن عينى يخبرك عن سرى
عـــلى حـــرق أمســـى وفى غرق صحى ::: فقلـــبى عـــلى جمـــر وعـــينى فى بحـــر

فـلى مقلـة عـبرى ولى وجـنة ريـا ::: ولى شـفة عطشـى إلى ذلـك الـثغر
إلى الكوكـب الدرى إلى القمر البدرى ::: إلى غـرة زهـرا إلى الغصـن النضـر

(العماد الكاتب)

أبصـرنى مبلـبلا مـن الغـرام ممتحن ::: فقـال مـن قـتله قلت لـه قائل من

(أخذه من قول الأول وهو مشهور)

قالـت لـترب معهـا مـنكرة ::: لوقفـى هـذا الفـتى تـراه مـن
قلـت فـتى يشـكو الهـوى متـيما ::: قالـت بمـن قلـت بمـن قالـت بمن

الفصل الثاني في وصف الفواكه

فمن ذلك قول ابن المعتز فى التاريخ:

انظـر إلى مـنظر يسـبيك رونقـه ::: بحسـنه فى الـبرايا يضـرب المـثل
نـار تلـوح عـلى الأغصان فى شجر ::: لا الـنار تخـبو ولا أشـجار تحـترق

(ابن وكيع فى المشمش)

بـدى مشـمش الأسحار يذكو شهابه ::: عـلى خضـر أغصـان من الرى ميد
حكـى وحكت أشجاره فى اخضرارها ::: جلاجـل تـبر فى قـباء زبـرجد

(لبعضهم فى الأترج)

أتـرجة مسـكية ذهبـية ::: تهـدى نسـيم المسـك للمستنشـق
وكأنهـا كـف يضـم أنـاملا ::: سـبطا لـتدخل فى سـوار ضـيق

(ظافر الحداد فى تفاح)

تفاحـة محمـرة قـد بـدت ::: تميـلها الـريح عـلى الغصـن
كأنهـا خـدان قـد جمعـا ::: يلـوح فـيها طـالع الحسـن

(ابن رشيق فيه أيضاً)

وتفاحـة مـن كـف ظـبى أخذتهـا ::: جـناها مـن الغصـن الذى مثل قده
لهـا لـين عطفـيه وطيـب نسـيمه ::: وطعـم لمـاه ثم حمـرة خـده

(ولبعضهم فى الكمثرى)

حـى بكمـثراية لونهـا ::: لـون محـب زائـد الصـفره

تشـــبهها الـــبكر إن اقعـــدت ::: وهـــي لهـــا إن قلبـــت ســـره

(فيه أيضاً)

لله روض وبســـتان شـــربت بـــه ::: صـــفراء كالتـــبر أو حمـــراء كالشـــفق
تمســـى الـــرياح بكمـــثراه مائلـــة ::: كأنهـــا ســـفرة مجموعـــة الحلـــق

(ابن قلاقس فى البطيخ)

أتانـــا الغـــلام ببطـــيخة ::: وســـكينة قـــد أجـــيدت صـــقالاً
فقطـــع بالـــبرق بـــرق الدجـــا ::: ونـــاول كـــلا هـــلالا هـــلالا

(أحمد الشنطوفى فى النخل)

كـــأن النخـــيل الباســـقات وقد بدت ::: لـــناظرها حســـناً قـــباب زبـــرجد
وقـــد علقـــت مـــن حولهـــا زيـــنة لها ::: قـــناديل يـــاقوت بأمـــراس عســـجد

(كشاجم فى الرمان)

ولاح رمانهـــــا فزيـــــنها ::: بـــين صـــحيح وبـــين مفـــتوت
مـــن كـــل مصـــفرة مزعفـــرة ::: تفـــوق فى الحســـن كـــل مـــنعوت
كأنهـــا حقـــة فـــإن فتحـــت ::: فصـــرة فى فصـــوص يـــاقوت

(الصنوبرى فى السفرجل)

لـــك فى الســـفرجل مـــنظر تحظـــى به ::: وتفـــوز مـــنه بشـــمه ومذاقـــه
كالشـــكل مـــن أعـــلاه يحكـــى سفله ::: ثـــدى الكعـــاب إلى مـــدار نطاقـــه
والشـــكل مـــن ســـفلاه يحكـــى سرة ::: مـــن شـــادن يـــزهو عـــلى عشـــاقة

(الطغرائى فيه)

وســـفرجل عـــنى المصـــيف بحفظـــه ::: فكســـاه قـــبل الـــبرد خـــزا أغـــبرا
يحكـــى نهـــود الغانـــيات وتحـــته ::: ســـرر لهـــن حشـــين مســـكا أزفـــرا

(لبعضهم فى التين)

أهـــــلا بـــــتين جاءنـــــا ::: مشـــــتملا عـــــلى طـــــبق
كســـــــفرة مضـــــــمومة ::: قـــد جمعـــت بـــلا حلـــق

(ابن الرومي في العنب)

كـــان الــــرازقي وقـــد تـــناهي ::: وتاهـــت بالعناقـــيد الكــــروم
قواريـــر بمـــاء الـــورد مـــلأى ::: تشـــف ولؤلـــؤ فـــيها يعـــوم
فكـــل مجمـــع لـــــه الـــثريا ::: وكـــل مفـــرق مـــنه الـــنجوم

(ظافر الحداد فى الموز)

كأنمـــــا المـــــوز الـــــذى ::: قـــد جاءنـــــا بالعنـــــب
أنـــــياب أفـــــيال صـــغار ::: قـــد طليـــــت بالذهـــــب

(لبعضهم فى البندق)

إنمـــا البـــندق اللذيـــذ لمعـــنى ::: خلـــته وهـــو ناظـــر ذو ابـــتهاج
حـــب در ملفـــف فى حريـــــر ::: أحمـــر ضـــمنوه إحقـــاق عـــاج

(لبعضهم فى الجوز)

اشـــرب عـــلى خضـــر الرياض مدامة ::: تحلـــو مـــرارتها بهـــا وتســـوغ
والجـــوز مقشـــور يفـــوق كأنـــه ::: لونـــاً وشـــكلا مصـــطكى ممضـــوغ

(غيره فى الفستق)

كأنمـــا الفســـتق المملـــوح حـــين بدا ::: مفـــتح القشـــر موضـــوعاً عـــلى طبق
وقـــد بـــدا لـــبه للعـــين الســـنة ::: للطـــير عطشـــى بهـــا شيء من الرمق

(ابن القيسرانى فى قصب السكر)

نزلـــنا عـــلى القصـــب الســـكرى ::: نـــزول رجـــال يـــريدون نهـــبه
بحـــز كحـــز رقـــاب العـــدى ::: ومـــص كمـــص شـــفاه الأحـــبه

(ابن رافع الأندلسى فى القرع)

وقـــرع تـــبدى للعـــيون كأنـــه ::: خراطـــيم أفـــيال لطخـــن بجـــنزار

(ولـه فى الجوز)

انظـــر إلى الجـــوز الـــبديع كأنـــه ::: فى حســـنه قصـــب مـــن المـــرجان
أوراقـــه كزبـــرجد فى لونهـــا ::: وقلوبـــه صـــيغت مـــن العقـــيان

(لبعضهم فى الثوم)

يـا حـبذا ثومـة فى كـف طاهـية ::: بديعـة الحسـن تسـبى كل من نظرا
أبصـرتها وهـى مـن عجـب تقلبها ::: مـن صـرة ديـبقى قـد حوت دررا

الفصل الثالث فى وصف الأزهار

(قال ابن المعتز يصف الورد)

وردة فى بـسـنان معطـار ::: حـيا بهـا فى خفـى أسـرار
كأنهـا وجـنة الحبيـب وقـد ::: نقطهـا عاشـق بديـنار

(ابن خطيب داريا فيه)

انظـروا إلى الـورد مـا أحـلى شمائله ::: سـبحان خالقـه مـن يـابس الحطب
كأنـه وجـنة المحـبوب نقطهـا ::: كـف المحـب بديـنار مـن الذهـب

(ابن المعتز فيه)

وتـرى الغصـون تميـل فى أوراقهـا ::: مـثل الوصـائف فى صـنوف حريـر
والـورد فى خضـر القمـوع كأنـه ::: حمـر الخـدود بخضـرة الـتعذير

(الشريف الرضى)

كـم وردة تحكـى بسـبق الـورد ::: طلـيعة تسـرعت مـن جـند
قـد ضـمها الغصـن بفـرط الـبرد ::: ضـم فـم لقـبلة مـن بعـد

(ابن العفيف)

قامـت حـروب الزهـر مـا ::: بـين الـرياض السندسـيه
وأتـت بأجمعهـا لـتغزو ::: روضـة الـورد الجنـيه
لكـنها انكسـرت لأن ::: الـورد شـوكته قويـه

(محى الدين بن نعيم فى الورد قبل انفتاحه)

سـبقت إلـيك مـن الحدائق وردة ::: جـاءتك قـبل أوانهـا تطفـيلا
طمعـت بلـثمك إذ رأتـك فجمعت ::: فمهـا إلـيك كطالـب تقبـيلا

(الخالدى فى النرجس)

أبحت النرجس البلدى ودى ::: ومالى باجتناب الورد طاقه
كلا الأخوين معشوق وإنى ::: أرى التفضيل بينهما حماقه
هما فى عسكر الأزهار هذا ::: مقدمة يسير وذاك ساقه

(أبو نواس فيه)

تأمل فى نبات الأرض وانظر ::: إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين فاترات ::: بأحداق كما الذهب السبيك
على قصب الزبرجد شاهدات ::: بأن الله ليس له شريك
وأن محمداً عبد رسولٌ ::: إلى الثقلين أرسله المليك

(القاضى الفاضل فى زهر النارنج)

نديمى هبا قد قضى النجم نحبه ::: وهب نسيم ناعم يوقظ الفجرا
وقد أزهر النارنج أزرار فضة ::: تزر على الأزهار أوراقها الخضرا

(ابن تميم فى زهر اللوز مضمناً)

أزهر اللوز أنت لكل زهر ::: من الأزهار تأتينا إمام
لقد حسنت بك الأيام حتى ::: كأنك فى فم الدنيا ابتسام

(البدر الذهبى فيه)

ما نظرت مقلتى عجيباً ::: كاللوز لما بدا عذاره
اشتعل الرأس منه شيباً ::: واخضر من بعد ذاك عذاره

(ابن عبد الظاهر فى الياسمين)

وياسمين قد بدت ::: أشجاره لمن يصف
كمثل ثوب أخضر ::: عليه قطن قد ندف

(وقال آخر فيه قبل انفتاحه)

خليلى هبا ينقضى الدهر عنكما ::: وقوما إلى روض وكأس رحيق
فقد لاح زهر الياسمين منوراً ::: كأقراط در قمعت بعقيق

(ابن العفيف فى البان)

تبسم زهر البان عن طيب نشره ::: وأقبل فى وصف يجل عن الوصف
هلموا إليه بعد قصف ولذة ::: فإن غصون البان تصلح للقصف

(وقال آخر)

أوما ترى البان الذى يزهو على ::: كل الغصون بقده المياس
وأتى يبشر بالربيع وقربه ::: يختال فى النسجات والبرطاس

(وقال آخر فيه)

قد أقبل الصيف وولى الشتا ::: وعن قليل تسأم الحرا
أما ترى البان بأغصانه ::: قد قلب الفرو إلى برا

(ابن تميم فى المنثور)

وقد قلت للمنثور أنى مفضل ::: على حسنك الورد الجليل عن الشبه
تلون من قولى وزاد اصفراره ::: وفتح كفيه وأومى إلى وجهى

(فى السوسن الأصفر)

انظر إلى السوسن فى نباته ::: فإنه نبت عجيب المنظر
كأنه ملاعق من ذهب ::: قد خط فيها نقط من عنبر

(فى السوسن الأبيض)

وسوسن راق مرآه ومخبره ::: وجل فى أعين النظار منظره
كأنه أكؤس البلور قد صنعت ::: مسدسات تعالى الله مظهره
رؤوسها ألسن قد طوقت ذهبا ::: من ثلثها قائم بالملك تؤثره

(ابن وكيع فى الريحان)

وصعترى أرق من أرجل النمـ ::: ـل وأزكى من نفحة الزعفران
كسطور كسين نقطاً وشكلا ::: من يد كاتب ظريف البيان

(ظافر الحداد فى الأقحوان)

انظر فقد أبدى الأقاحى مبسما ::: ضحكا بدر فى قدود زبرجد
كفصوص در لطفت أجرامها ::: وتنظمت من حول شمسة عسجد

(فى البنفسج)

بنفسج بذكى الريح مخصوص ::: ما فى زمانك إن وافاك مخصوص
كأنه شعل الكبريت منظره ::: أو خد غيد بالتخميش مقروص

(ابن الرومى فى الينوفر)

وبركة تزهو بالينوفر ::: نسيمها يشبه ريح الحبيب
مفتح الأجفان فى يومه ::: حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على عينه ::: وغاص فى البركة خوف الرقيب

(فى النسرين)

انظر للنسرين يلو ::: ح فى قضيب أملد
كمداهن من فضة ::: فيها برادة عسجد
جنتك من أيدى الغصو ::: ن بها أكف زبرجد

(فى الخشخاش)

ولما غدا الخشخاش فى الروض مزهرا ::: وقد نظرت شذرا إليه الحدائق
حكت قلعة أبراجها مستديرة ::: مشرفة دارت عليها السناجق

الفصل الرابع فى الألغاز

(فمن ذلك قول الشيخ عمر بن الفارض فى سلامه)

ما اسم إذا سأل المرء عن ::: تصحيفه خلا له أفحمه
فنصف يس له أول ::: من غير ما شك ولا جمجمه
وإن ترد ثانيه فهو لا ::: يذكر للسائل كى يفهمه
وإن ثقل بين لنا ما الذى ::: منه تبقى بعد ذا قلت مه
بينه لى إن كنت ذا فطنة ::: فإننى قد جئت بالترجمه

(وله فى بطيخ)

خبرونى عن اسم شيء شهى ::: اسمه ظل فى الفواكه سائر
نصفه طائر وان صحفوا ما ::: غادروا من حروفه فهو طائر

(وله فى اللطيف)

مـا اسـم شـيء مـن النبات إذا ما ::: قلـبوه وجدتـه حـيوانا
وإذا مـا صـحفت ثلثـيه حاشـا ::: بـدأه كنـت واصـفاً إنسـانا

(أسامة بن منقد)

وصـاحب لا يمـل الدهـر صـحبته ::: يشـقى لنفسـى ويسـعى سعى مجتهد
لم ألقـه قـد تصـاحبنا فمـذ وقعت ::: عـينى علـيه افترقـنا فـرقة الأبـد

(الصلاح الصفدى)

مـا غـائص فى يـابس كـلما ::: تضـربه سـوطاً أجـاد العمـل
ذو مقلـة غـاص بهـا رأسـه ::: والـرأس فى العـادة مـأوى المقـل

(أجابه عنه السبكى)

لله لغـز فـاق فى حسـنه ::: فظـل للألغـاز فـرداً فضـل
أراه فى القلـب إن لم يكـن ::: قـد غـاب عـن فاسـد فكـر فضل

(لابن نفاذة فى يوسف)

يـا سـائلى مـا اسـم الـذى أحببته ::: إنى بسـر هـواه غـير مصـرح
لكـن إذا فكـرت فـيه وجدتـه ::: معكـوس سـابع لفظـة مـن سـبح

(لبعضهم فى الكمأة)

الأقـل لأهـل الـرأى والعلم والأدب ::: وكـل بصـير بـالأمور لـذى أرب
ألا خـبرونى أى شـيء رأيـتم ::: مـن الطـير فى أرض الأعاجم والعرب
قـديم حديـث بـادئ وهـو حاضر ::: يصـاب بـلا صيد وإن جد فى الطلب
ويؤكـل أحـياناً طبـيخاً وتـارة ::: قلـياً ومشـوياً إذا دس فى اللهـب
ولـيس لـه لحـم ولـيس لـه دم ::: ولـيس لـه عظم وليس لـه عصب
ولـيس لـه رجـل ولـيس لـه يد ::: ولـيس لـه رأس ولـيس لـه ذنب
ولا هـو حـى لا ولا هـو ميـت ::: ألا خـبرونى إن هـذا هـو العجـب

(فى كمون)

أيهـا العطـار بـين لـنا ::: عـن اسـم شـيء قـل فى سـومك
تـراه بالعيـنين فى يقظـة ::: كمـا تـراه بالقلـب فى نومـك

(للنواجى فى ملح)

مـا اسـم شـيء لـه نفـع وقيمته ::: حقـيرة وهـو معـدود مـن الـنعم
تـراه فى يقظـة بـالعين مـنك كمـا ::: تـراه بالقلـب إن أمسـيت فى حـلم

(ولـه)

ومـا بلـدة فى النصـف مـنها قبيلة ::: وفى نصـفها وحـش مـن الهند يجلب
فتصـحيفه فـيك اسـتبانت حـروفه ::: وفى قلـبه شـيء إلى الـنخل ينسـب

(ولـه فى موز)

مـا اسـم شـيء حسـن من شكله ::: تلقـاه عـند الـناس موزونـاً
تـراه معـدوداً وإن زدتـه ::: واواً ونونـا صـار موزونـا

(فى جبل)

أيمـا اسـم وصـفه وتـر ::: وهـو إن صـحفته سـبب
ويـرى فى الـوزن فاصـلة ::: سـاكن تحـريكه عجـب

(فى دينار)

مـا صـاحب إن أنـت أمسـكته ::: ضـر وإن فارقـته يـنفع
تـراه ذا وجهـين فاعجـب لـه ::: وهـو وجـيه حيـث مـا يشـفع

(فى قلم)

وذا خضـوع راكـع سـاجد ::: ودمعـه فى جفـنه جـار
مواضـب الخمـس لأوقاتهـا ::: مـنقطع فى خدمـة الـبارى

(فى زرموزه)

مطـية فارسـها راجـل ::: تحملـه وهـو لهـا حـامل
واقفـة بالـباب مـنعولة ::: لا تشـرب الدهـر ولا تـأكل

(فى طاحون)

ومسـرعة فى سـيرها طـول دهـرها ::: تـراها مـدى الأيـام تمشى ولا تتعب
وفى سـيرها لا تـترك إلا كـل ساعة ::: وتـأكل فى كـل المدى وهى لا تشرب
ومـا قطعـت فى سـيرها خمس أذرع ::: ولا ثلـث ثمـن مـن ذراع ولا أقرب

(فى فيل)

أى اسـم تركيـبه مـن ثـلاث ::: وهـو ذو أربـع تـبارك الإلـه
حـيوان والقلـب منـه نـبات ::: لم يكـن عـند جـوده يـرعاه
فـيك تصـحيفه ولكـن إذا مـا ::: رمـت عكسـاً يكـون لى ثلـثاه

(فى على)

اسـم الـذى عشـقته ::: أولـه ناظـره
إن فـاتنى أولـه ::: يكـون لى آخـره

الفصل الخامس فى الدوبيت والرباعيات وغير ذلك

(قال التلعفرى)

لـو بـات بمـا أحـبه مـتكرثاً ::: مـا خـان ولا كـان لعهـدى نكـثا
يـبدو فـيقول كـل مـن يبصـره ::: سـبحانك مـا خلقـت هـذا عبـثا

(ولـه)

مـا أحسـن مـا يكـون مـن تهواه ::: فى حضـنك والـنعاس قـد غشـاه
أوصـيك إذا تـبرجت عيـناه ::: مـصَّ لسـانه وقـبِّل فـاه

(ولـه)

بـالله سـحر مقلتـيك النشـوى ::: وهـو القسـم الـبر العظـيم الفتوى
لانسـمع فى قـول مـن قـال سـلا ::: فى ثغـرك مـن أيـن منه السـلوى

(ولـه)

يـا تـارك ربـع الصـبر منى مهدوم ::: مـا أن تـرى لغائـب الوصـل قدوم
خـف ربـك فى العشـاق وارفق بهم ::: لا تحسـب أن دولـة الحسـن تدوم

(ابن تاج الخطيب القوصى)

يـا غايـة منـيتى ويـا مقصـودى ::: قـد صـرت مـن السـقام كالمفقود
إن كـان بـدت مـنى ذنوب سلفت ::: هـبها لكـريم عفـوك المعهـود

(صلاح الدين الأربلى)

مـا أمـر تجنـيك عـلى الصب خفى ::: أفنيـت زمـانى بالأسـى والأسـف
مـاذا غضـت بقـدر ذنـبى فلقـد ::: أسـرفت ومـا أردت إلا تلفـى

(ولـه)

اصـنع مـا شـئت أنت أنت المحبوب ::: مـا لى ذنـب كمـا قلـت ذنـوب
هـل تسـمح بالوصـال فى ليلتـنا ::: نجلـو صـدا القلـب وتعفـو وأتوب

(للشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى)

أهـوى قمـراً لـه المعـانى رق ::: مـن نـور جبينـه أضـاء الشـرق
تـدرى بـالله مـا يقـول الـبرق ::: مـا بـين ثـناه وبـين حـبي فـرق

(ولـه أيضاً)

أهـوى رشـا كـل الأسـى لى بعـثا ::: مـذ عايـنه تصـبرى مـا لبـثا
ناديـت وقـد فكـرت فى خلقـته ::: سـبحانك مـا خلقـت هـذا عبـثا

(ولـه)

أهـوى رشـا هـواه للـروح غـذا ::: مـا أحسـن فعلـه ولـو كـان إذا
مـا أنـس وقد قلت لـه الوصل متى ::: مـولاى إذا مـت أسـى قـال إذا

(ولـه)

روحـى لـك يـا زائـراً فى الليل فدا ::: يـا مؤنـس وحشـق إذا الليل هدى
إذا كـان فراقـنا مـع الصـبح بـدا ::: لا أسـفر بعـد ذاك صـبح أبـدا

(ولـه)

يـا محـيى مهجـتى ويـا مـتلفها ::: شـكوى تلفـى عسـاك أن تكشـفها
عـين نظـرت إلـيك مـا أشـرفها ::: روح عرفـت هـواك مـا ألطفهـا

(غيره)

مـا اخـتاروا سـواك لا ولا اخـتار ::: يـا ظـالم يـا خـؤن يـا غـدار
أسـكنتك مهجـتى وفـيها لهـب ::: والظـالم مـا جـزاه إلا الـنار

(النصير الحمامى)

فى وجهـك لـلجمال وللحسن فنون ::: فى طـرفك للسـحر فـتور وفـتون
إنى أسـلو هـواك يـا مـن باتـت ::: عيـناه نقـول لـلهوى كـن فيكون

(الشهاب الخفاجى)

مـا بى مهمـا رضـيت عـنى بـأس ::: والصـبر بحـرهم لجـرحى يـأس
لكـن أختشـى إذا طـال نـوى ::: إن يشـمت فى الـرجا مـنى الـيأس

(ولـه)

مـا جـر الظـل لأحمـد أذيـال ::: فى الأرض كـرامة كمـا قـد قـالوا
هـذا عجـب وكـم بـه من عجب ::: والـناس بظلـه جمـيعاً قـالوا

(حسن بن محمد البورينى)

يـا قلـب إلى مـتى عـداك النصـح ::: كـم تمـزح كـم جـنى عليك المزح
يـا جارحـة عـدى علـيك الجـرح ::: مـا تشـعر بالخمـار حـتى يصـح

(التقى السبكى)

يـا قلـب مـن الغرام قد زدت ولـه ::: مـن خـانك خـنه أو تعرض بدلـه
فالـنفس عزيـزة عـلى من هى لـه ::: لا يصـلح لى مـن كنـت أصلح لـه

(بهاء الدين الشامى)

اغـتص بـريقى لحسـن الحاسـى ::: إذا ذكـره وهـو لعهدنـا ناسـى
إن مـت وجمـرة الهـوى فى كـبدى ::: فـالويل إذن لسـاكن الأمـر قاسـى

(ومنها)

أهـوى رشـا عرضـنى للـبلوى ::: مـا عـن لقلـبى المعـنى سـلوى
كـم جئـت لأشـتكى فمـذ أبصرنى ::: مـن لـذة قـربه نسـيت السـلوى

(ونحوه قول الشهاب الخفاجى)

لـو تسـمع لـذة لـلمعنى الشكوى ::: لأمـن بـذا ولـيس عـنه سـلوى
كـل بهـواه مبتـلى دنـف ::: قـالوا وتطيـب إذ تعـم الـبلوى

(ومنها)

يــا غائــباً عــن عــينى لا عــن بالى ::: القــرب إلــيك منــتهى آمــالى
إيــاك نــواك لا تســأل كــيف بدت ::: والله مضــت بأســوأ الأحــوال

(وفى معناه ووزنه قول الأرجانى)

لا بــأس وإن أذبــت قلــبى بهــواك ::: القلــب ومــن ســلبته القلــب فداك
وليــت وقلــت أنعــم الله مســاك ::: مــولاى وهــل يــنعم مــن ليس يراك

(ابن خلكان)

فى هــامش خــدك الــبديع القــانى ::: تصــحيح غــرام كــل صــب عــانى
قــد خــرجها الــبارى فمــا ألطفهــا ::: مــن حاشــية خطهــا بالقــلم الريحانى

(ولـه)

يــا مــن ســلب الفؤاد هب لى الوسنا ::: وارحــم شــجناً فــيك يلاقــى المحنا
وارفــق بــثلاثة يذوبــون ضــناً ::: الحــاظك والخصــر المفــدا وأنــا

(ولـه)

يــا شمــس ضــحى جبيــنه الوضــاح ::: ســاعات رضــاك كــلها أفــراح
عشــاقك لــو فعلــت مــا شئت بهم ::: مــاتوا كمــدا وبــالهوى مــا بــاحوا

(الصفى الحلى)

للحســن حــلاوة بــالعين يــذاق ::: إن كنــت تــراها بعــيون العشــاق
وللعشــق حــلاوة يعــرفها مــن ::: خلــد فى نــار جحــيم الأشــواق

(غيره)

يــا مــن ســلب الفــؤاد من جسمانى ::: مــا ضــرك لــو أخذت جسمى الفانى
يــا مطلــق مدمعــى مــن الأجفــانى ::: هــل تطلــق أســير قلــبى العــانى

(غيره)

البلــبل يــا صــاح يغــنى بفــنن ::: والــورق تــنوح يــا تــرى العشق لمن
والكــون جمــيعه غــرام وشــجن ::: شــبابك يــا مــن هــو للكــل فــتن

(الشهاب الخفاجى)

يـا غايـة منـيتى وأقصـى شـجنى ::: ارحـم ضـعفى ولا تصـغ لمـن ضنى
يـأتى الأسـى فـتى تشـكى سـقما ::: مـا أصـنع والطبيـب قـد أمرضني

(غيره)

يـا رب جعلـت رحمـة الخلـق لديك ::: والعـرض مـع الموقـف كلـه إليك
مـا لى عمـل يصـلح للعرض عليك ::: ارحـم ذلى وموقفـى بـين يديـك

* * * * *

الفصل السادس فى أشياء مختلفة

(الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك)

(يذم داراً يسكنها)

دار سـكنت بهـا أقـل صـفاتها ::: أن تكـثر الحشـرات فى جنـباتها
الخـير عـنها نـازح متباعد ::: والشـر دان مـن جمـيع جهاتهـا
مـن بعـض مـا فيها البعوض عدمته ::: قـد أعـدم الأجفـان طيـب سـناتها
وتبيـت تسـعدها براغيـث مـتى ::: غنـت لهـا رقصـت عـلى نغماتهـا
رقـص بتنقـيط ولكـن قافـه ::: قـد قدمـت فـيه عـلى أخواتهـا
وبهـا ذبـاب كالضـباب يسـد عيـ ::: ـن الشـمس مـا طـربى سـوى غناتها
أيـن الصـوارم والقـنا مـن فـتكها ::: فيـنا وأيـن الأسـد مـن وثـباتها
وبهـا مـن الخطـاف مـا هـو معجز ::: أبصـارنا عـن حصـر كيفـياتها
تغشـى العـيون بمـرها ومجيـئها ::: وتصـم سمـع الخلـق مـن أصـواتها
وبهـا خفافـيش تطـير نهارهـا ::: مـع ليـلها ليسـت عـلى عاداتهـا
شـبهتها بقـنافد مطـبوخة ::: نـزع الطهـاة بنضـجها شـوكاتها
فاقـت عـلى سمـر القـنا فى لونهـا ::: وتمامهـا وشـياتها وصـفاتها
وبهـا مـن الجـردان مـا قد قصرت ::: عـنها العـتاق الجـرد مـن حملاتهـا
فـترى أبـا زغـوان مـنها هاربـا ::: وأبـا الحصـين يـروغ مـن طرقاتها
وبهـا الخـنافس كالطـنافس أفرشت ::: فى أرضـها وعلـت عـلى جنـباتها
لـو شـم أهـل الأرض مـنتن فسوها ::: أردى الكمـاة الصـيد مـن صـولاتها
وبـنات وردان وأشـكال لهـا ::: ممـا يفـوت العـين كـنه ذواتهـا

مـــتزاحم مـــتراكم مـــتحارب ::: مـــتراكم فى الأرض دون نـــباهَا
وبهـــا قـــراد لا اندمـــال لجـــرحها ::: لا يفعـــل الشـــراك فعـــل أذاهـــا
أبـــدا تمـــص دماءنـــا فكأنهـــا ::: حجامـــة لـــبدت عـــلى كاســـاهَا
وبهـــا مـــن الـــنمل السـليمانى مـــا ::: قـــد قـــل ذر الشـــمس عـــن ذراهـــا
لا يدخلـــون مســـاكنا بـــل يحطمـــو ::: ن جلودنـــا فالعقـــر مـــن ســـطواهَا
مـــا راعـــنى شـــيء ســـوى وزغاهـــا ::: فـــنعوذ بالـــرحمن مـــن نـــزعاهَا
ســـجت عـــلى أركانهـــا فظننـــتها ::: ورق الحمـــام ســـجعن فى شـــجراهَا
وبهـــا زنـــابير تظـــن عقاربـــاً ::: لابـــد للمســـموم مـــن لدغاهـــا
وبهـــا عقـــارب كالأقـــارب رتعـــا ::: فيـــنا حمانـــا الله لـــدغ حماهـــا
وكأنمـــا حـــيطاهَا كالغـــرابل ::: أطلعـــن أرؤســـهن مـــن طاقاهـــا
كـــيف الســـبيل إلى الـــنجاة ولا نجـــا ::: ة ولا حـــياة لمـــن رأى حـــياهَا
الســـم فى نفـــثاهَا والمكـــر فى ::: فلـــتاهَا والمـــوت فى لســـعاهَا
منســـوجة بالعنكـــبوت سماؤهـــا ::: والأرض قـــد نســـجت بـــبزاقاهَا
فلقـــد رأيـــنا فى الشـــتاء سماءهـــا ::: والصـــيف لاتـــنفك عـــن صـــعقاهَا
فضـــجيجها كالـــرعد فى جنـــباهَا ::: وتـــراها كـــالوبل مـــن خشـــاهَا
والـــيوم عاكفـــة عـــلى أرجائهـــا ::: والآل يـــلمع مـــن ثـــرى عرصـــاهَا
والـــنار جـــزء مـــن تلهـــب حـــرها ::: وجهـــنم تعـــزى إلى نفحاهـــا
قـــد رممـــت مـــن قـــبل أن يلقـــى أبو ::: نـــا آدم حـــواء فى عـــرفاهَا
شـــاهدت مكـــتوبا عـــلى أرجائهـــا ::: ورأيـــت مســـطوراً عـــلى عتـــباهَا
لا تقـــربوا مـــنها وخافوهـــا ولا ::: تلقـــوا بـــأيديكم إلى هلكاهـــا
أبـــدا يقـــول الداخلـــون بـــباها ::: يـــا رب نـــج الـــناس مـــن آفاهـــا
قـــالوا إذا نـــدب الغـــراب مـــنازلا ::: يـــتفرق الســـكان مـــن ســـاحاهَا
وبدارنـــا ألفـــا غـــراب نـــاعق ::: كـــذب الـــرواة فـــأين صـــدق رواهَا
صـــبرا لعـــل الله يعقـــب راحـــة ::: للـــنفس إذا غلبـــت عـــلى شـــهواهَا
دار تبيـــت الجـــن تحـــرس نفســـها ::: فـــيها وتـــنذر باخـــتلاف لغاهـــا
كـــم بـــت فـــيها مفـــرداً والعين شر ::: قـــى للصـــباح تســـح مـــن عـــبراهَا
وأقـــول يـــا رب الســـموات العـــلى ::: يـــا رازقـــا للوحـــش فى فلواهـــا
أســـكنتنى بجهـــنم الدنـــيا ففـــى ::: أخـــراى هـــب لى الخلـــد فى جـــناهَا
واجمـــع بمـــن أهـــواه شمـــلى عـــاجلا ::: يـــا جـــامع الأمـــوات بعـــد شـــتاهَا

(ابن دنيال يصف الحشرات التى فى بيته)

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى ::: ما فى يدى من فاقتى الأيدى
فى منزل لم يحو غيرى قاعدا ::: فمتى رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ::: ومخده كانت لام الهندى
تلقى على طراحة فى حشوها ::: قمل شبيه السمسم المتبدد
والبق أمثال الصراصر خلقة ::: من منهم فى حشوها أو منجد
يجعلن جلدك وارما فتخاله ::: من قرسهن به يذوب الجلمد
وترى براغيثاً بجسمى علقت ::: مثل المحاجم فى المساء وفى غد
وكذا البعوض يطير وهو بريشه ::: فمتى ثملن فوق عرق يفصد
وترى الخنافس كالزنوج تصففت ::: من كل سوداء الأديم وأسود
ولربما قرنت بجمع عقارب ::: قتالة قدر الحمام الركد
وتقيم لى عند المساء زبانها ::: فأراه وهو كإصبع المتشهد
هذا وكم من ناشر طاوى الحشا ::: يبدو شبيه الفاتك المتسرد
يبدى إذا ما انساب صفحة جدول ::: عبثت به ريح الصبا المتجعد
والفار يركض كالخيول تسابقاً ::: من كل جرداء الأديم وأجرد
يأكلن فارات السقوف كمثل فا ::: رات النجارة إذ تحد بمبرد
وكأن نسج العنكبوت وبيته ::: شعرية من فوق مقلة أرمد
وكذاك للجرذون صوت مثله ::: فى مسمعى صوت الزناد المصلد
وإذا رأى الخفاش ضوء زبالة ::: عندى لضر بضوئها المتوقد
وكأنها الزنبور ألبس حلة ::: موشية أعلامها بالعسجد
مترنم بين الذباب مغرد ::: لا كان من مترنم ومغرد
حشرات بيت لو تلقت عسكراً ::: ولى على الأعقاب غير مردد
هذا ولى ثوب تراه مرقعاً ::: من كل لون مثل ريش الفدفد
لولا الشقاوة ما ولدت وليتنى ::: إذ كان حظى هكذا لم أولد
ولكيف أرضى بالحياة وهمتى ::: تسمو وحظى فى الحضيض الأوهد
وأرى السعادة قد أحلت معشرا ::: رتب العلى لا بالنهى والسؤدد

* * * * *

الباب العاشر

فى الطفيليين

قيل: كان طفيل العرائس الذى ينسب إليه الطفيليون يوصى ابنه عبد الحميد طفيل فى علته فيقول: إذا دخلت عرساً فلا تتلفت تلفت المريب وتخير المجالس فإن كان العرس كثير الزحام فأمر وانه ولا تنظر فى عيون أهل المرأة ولا فى عيون أهل الرجل ليظن هؤلاء أنك من هؤلاء ويظن هؤلاء أنك من هؤلاء فإن كان البواب غليظاً وقاحاً فابدأ به وأمره وانهه من غير أن تعنف به وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال وقال شعراً:

لا تجزعن من القريب ::: ولا من الرجل البعيد
وادخل كأنك طابخ ::: بيديك مغرفة الثريد
متدلياً فوق الطعا ::: م تدلى الباز الصيود
لتلف ما فوق الموا ::: ئد كلها لف الفهود
واطرح حياك فإنما ::: وجه المطفل من حديد
لا تلتفت نحو البقول ::: ولا إلى غرف الثريد
حتى إذا جاء الطعام ::: ضربت فيه بالشديد
وعليك بالفالوذجات ::: فإنها عين القصيد
هذا إذا حررته ::: ودعوتهم هل من مزيد
والعرس لا يخلو من اللـ ::: وزينج الرطب العتيد
فإذا أتيت به محو ::: ت محاسن الجام الحديد

قال: ثم أغمى عليه عند ذكر اللوزينج ساعة فلما أفاق رفع رأسه وقال:

وتنقلنَّ على الموائـ ::: ـد فعل شيطان مريد
وإذا انتقلت عبثت بالكعـ ::: ـك الجفف والقديد
يا رب أنت رزقتنى ::: هذا على رغم الحسود
واعلم بأنك إن قبلـ ::: ـت نعمت يا عبد الحميد

(قيل: جاء بنان) إلى وليمة فأغلق الباب دونه فاكترى سلماً ووضعه على حائط الرجل وتسور فأشرف على عيال الرجل وبناته فقال له الرجل: يا هذا ما تخاف الله

رأيت أهلى ومالى؟ فقال: يا شيخ لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد فضحك الرجل وقال له: انزل فكل.

(روى) أن طفيليا جاء إلى عرس فمنع من الدخول وكان يعرف أن أخاً للعروس غائب فذهب فأخذ ورقة فطواها وختمها وليس فى بطنها شيء وجعل العنوان من الأخ إلى العروس فجاء فقال: معى كتاب من أخى العروس إليها فأذن له فدخل فرفع إليهم الكتاب وقالوا: ما رأينا مثل هذا العنوان ليس عليه اسم أحد فقال: وأعجب من هذا أنه ليس فى بطن الكتاب ولا حرف واحد لأنه كان مستعجلا فضحكوا منه وعرفوا أنه احتال لدخوله فقبلوه.

(**صحب طفيلى**) رجلا فى سفر فقال له الرجل: امض فاشتر لنا لحماً قال: والله ما أقدر فمضى هو فاشترى فقال: قم فاطبخ قال: لا أحسن الطبيخ، فطبخ الرجل، قال: قم فأثرد فقال: أنا والله كسلان فثرد الرجل ثم قال: قم فاغرف أى سق قال: فأخشى أن تنقلب على ثيابى فغرف الرجل ثم قال له: قم الآن فكل قال الطفيلى: قد والله استحييت من كثرة خلافى لك وتقدم فأكل.

(**اجتمع جماعة على عصيدة**) فأخذ بعضهم لقمة فألقاها فى السمن وقال: ﴿ **فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ** ﴾ وجر السمن إليه وقال الآخر: ﴿ **إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ** ﴾ وجر السمن إليه وقال الآخر: ﴿ **أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا** ﴾ وجر السمن إليه وقال الآخر: ﴿ **أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ** ﴾ وجر السمن إليه وقال الآخر: ﴿ **فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ** ﴾ وجر السمن إليه وقال الآخر: ﴿ **فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ** ﴾ وجر السمن إليه وقال الآخر: ﴿ **فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** ﴾ وجر السمن إليه وقال الآخر: ﴿ **فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ** ﴾ وجر السمن إليه وقال الآخر: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي** ﴾ وخلط.

(**جاء طفيلى**) إلى بيت رجل مع جماعة فقال الرجل: من أنت؟ فقال: إذا كنت لا تدعونا ونحن لا نأتى صار فى هذا نوع من الجفاء.

(**عـرس طفيلى**) فأتاه طفيليان فى أول الناس فأدخلهما وجاء إلى غرفة لـه يرتقى إلـيها بسلم فوضـع السـلم وقـال: اصعدا لتبعدا عن الأذى وأخصكما بفائق الطعام فصـعدا فـلما حصـلا فـى الغـرفة رفع السلم ووضع المائدة وأطعم أصدقاءه وجيرانه وهمـا مطلعـان عليه فلما فرغ القوم وضع السلم وقال: انزلا فنزلا فدفع فى أقفائهما وقال: انصرفا راشدين .

(**وقال طفيلى**): إياك والكلام على الطعام إلا أن تقول نعم: فإنها مضغة .

(**أوصـى طفيلى**) غلامـه فقال: إذا ضاق بك الموضع قل للذى إلى جانبك: لعلى ضيقت عليك فإنه سيوسع لك المكان كموضع رجل آخر .

(**وقال بنان**) حفظت القرآن ثم نسيته إلا حرفين: ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ [الكهف: ٦٢] (وقال بنان) التمكن على المائدة خير لك من زيادة أربعة ألوان .

(**ويحكـى**) أن جماعـة قصـدوا بـاب بعض الأكابر عند وقت غدائه فمنعهم بوابه فكتب إليه بعضهم:

قـد أتينـاك زائـرين خفافـا ::: وعلمنـا بـأن عـندك فضـله
ولدينـا مـن الحديـث هـناة ::: معجـبات فعدهـا لـك جلـه
إن تجدنـا كمـا تـريد وإلا ::: فاحتملـنا فإنمـا هـى أكلـه

فأذن لهم فدخلوا .

(**ومـر**) بعضـهم بقوم يأكلون فقال: ما الذى تأكلون؟ قالوا: سم الموت فقال: لا حياة لى بعدكم ثم جلس يأكل معهم . انتهى والله أعلم .

* * * * *

الباب الحادي عشر

فى المتلصصين

(ذكـــر القاضى التنوخى) فى كتابه نشوان المحاضرة قال: حدثنى إبراهيم النصيبى عن جار لـه يقال لـه: أبو القاسم الصفار قال: خرجت من نصيبين بسيف نفيس كنت ورثـته من أبى وقصدت العباس بن عمرو أمير ربيعة لأهديه لـه وهو فى رأس العين فصـحبنى شـيخ مـن شـيوخ الأعراب وسألنى عن خبرى فأخبرته وقد كنا قريبين من رأس العـين فدخلناها وافترقنا وكان يأتينى ويراعينى ويظهر لى البر ويسألنى عن حالى فأخـبرته أن الأمـير قـبل هديتى وأعطانى ألف درهم وثيابا وأنى أريد الخروج إلى كذا وكـذا فمضـى فـلما كـان ذلـك الـيوم خرجـت من الدار راكباً حماراً فلما صرت فى الصـحراء إذا أنـا بالشـيخ راكـباً دويـبة ضـعيفة مـتقلدا سـيفاً فلما رأيته استربت منه وأنكـرت وجهـه وأيقنـت بالشـر فـى عينيه فقلت: ما تصنع؟ فقال: قضيت حوائجى وأريد الخروج صَحِبْتُكَ وصُحْبتُك عندى آثر من صحبة غيرك ، فقلت: على اسم الله فمضـينا وهـو يجـتهد آنـس به وأدنو منه وكلما دنا منى تباعدت منه إلى أن سرنا شيئاً كـثيراً من الطريق وليس معنا ثالث إلا الله تعالى فقصر عنى فحثيت حمارى لأفوته فما حسسـت إلا بركضـه فـى أثـرى فالتفت وقد جرد سيفه وقصدنى فرميت بنفسى عن الحمـار وغـدوت فـلما خاف أن أفوته صاح: يا أبا القاسم إنما مزحت فلم ألتفت إليه فضـرب دابته وزاد فى الجرى ولاح لى ناؤوس فقصدته وقد كاد الأعرابى أن يلحقنى فـلما دخلت الناؤوس وقفت وراء بابه قال: ومن صفة هذا الناؤوس أنه مبنى بحجارة وبـاب هذا الناؤوس حجر واحد عظيم قد نقر وخفف ولا تستمكن اليد منه ولـه من خـارج الـباب حلقـة وليس من داخله شيء يلزم به اليد وإنما يدفع من خارجه فيفتح فـيدخل إلـيه فـإذا جئـت وجذبت الحلقة انغلق الباب وتمكن الذى يكون من خارجه فاختبأت وراء باب الناؤوس فجاء الأعرابى فشد دابته فى حلقة الباب ودخل يطلبنى فـى الـناؤوس وكـان مظـلماً فـلم يرنى ومشى إلى الداخل فخرجت من خلف الباب وجذبـت الحلقة حتى صار مغلقاً فرأى الموت عياناً فصاح فى الناؤوس: يا أبا القاسم

اتق لله فإني تالف لا محالة فقلت: تتلف أنت أهون من أن أتلف أنا قال: أخرجني وأنا أعطيك أماناً وأستوثق لك بالأيمان أني لا أتعرض لك بسوء واذكر الحرمة فقلت: أنت لم ترعها وأيمانك كاذبة فاجرة لا أثق بها وأخذ يكرر هذا فقلت: لا تهدى فإني أركب الآن دابتك وأجنب حماري والوعد بيننا بعد أيام ها هنا فلا تبرح قال: فأخذ يبكي ويستغيث ويصيح ويقول: قتلتني والله فقلت: إلى لعنة الله فركبت دابته وجنبت حماري فوجدت على دابته خرجاً فيه ثيابه فأتيت نصيبين فبعت ثيابه ودابته وكتمت أمري فلما كان بعد شهور عرض لى المسير إلى رأس العين فخرجت إلى تلك الطريق وبدا لى ذلك الناؤوس فقصدته ودخلته فإذا الأعرابى صار عظاماً نخرة فحمدت الله على سلامتى وهلاكه فحركته برجلى وقلت على سبيل العبث كيف خبرك يا فلان؟ فإذا بشيء يتخشخش تحت رجلى فمسته فإذا هو هميان فأخذته وأخذت سيفه وخرجت من الناؤوس وفتحت الهميان فإذا فيه خمسمائة درهم وبعت السيف بمائة درهم . انتهى .

(**وروى القاضـــى التنوخى**) أيضاً فى كتابه نشوان المحاضرة عن شخص أنه قال: كان لأبى مملوكاً يقال لـه: مقبل فهرب منا ولم نعرف لـه خبر منذ سنين كثيرة ثم تغربت عن بلدى ووقعت إلى نصيبين وأنا إذ ذاك شاب ما نبتت لحيتى فأنا ذات يوم مجتاز وفى كمى منديل مملوء دراهم وأنا فى سوق نصيبين إذ رأيت غلامنا مقبل فحين رآنى بش بى وفرح وأظهر سروراً عظيما وقال: يا سيدى تجيء إلى دعوتى اليوم؟ قلت: نعم فمشى قدامى ومشيت خلفه وطال الطريق علىَّ وأنا أقول لـه: ويحك أين بيتك فيقرب علىَّ المدا حتى بلغ إلى آخر نصيبين فى درب خراب يقارب الصحراء فدق بابا فخرج رجل يفتح الباب فدخل ودخلت فحين حصلت فى الدهليز ردم الباب واستوثق منه فأنكرت ذلك ودخلت فإذا أنا بثلاثين رجلا فى الدار بسلاح بلا بارية ولا غيرها وإذا هم لصوص وهو عين لهم فأيقنت بالبلية والشر فقام إلىَّ واحد منهم فقال: انزع ثيابك فطرحت ما كان علىَّ إلا السراويل فجاؤوا ليأخذونه فسألتهم فى ذلك فتركوه وحلوا منديل كمى وأخرجوا ثلاثين درهماً وقالوا لمقبل: امض فخذ

لـنا شـيئاً نأكله فتقدم مقبل فسار أحدهم وهو رئيسهم فقال لهم: ذاك فإنه لابد لنا من قـتله فجئـنا بمـا نأكلـه فـإذا جئتـنا قتلـناه فعلمت أن مقبلا أشار عليهم بقتلى فطارت روحـى جـزعا وقـال لهم الغلام: لا أمضى أو تقتلوه فقلت لهم: يا قوم إيش ذنبى ولم أقـتل قـد أخـذتم مـالى وثيابى دعونى أروح ثم قلت لـه: يا مقبل هذا من حقى عليك وحـق أبـى ويحك لا ترحمنى قال: فكاشفنى وقال للقوم: إنكم إن لم تقتلوه وإلا يخرج ينـبه علـيكم السلطان فيقتلكم كلكم قال: فجذبنى واحد منهم واستل سيفه وسحبنى من صدر الدار الذى كانوا فيها ليذبحنى عليها فوقعت يدى على غلام منهم كان على قـدر سـنى فقلـت لـه: ارحمنى أنت غلام مثلى وإن خلصتنى من يد هؤلاء أجرت بى فاسـتدفع الـبلاء مـن الله تعـالى بخلاصـى قال: وبكيت وبقيت أحلف لهم أنى لا أنبه علـيهم أبـداً ولا أتكلم إن تركونى قال: فألهم الله عز وجل ذلك الفتى أن طرح نفسه علىَّ وقال: والله لا قتل وأنا حى فإما قتلتمونى قبله وإلا فلا تقتلوه قال: وتعصب لـه أسـتاذه وقـال: غلامـى أجـره فـلا تقتلوه فشتموه وشتموا غلامه وتعصب لهما جماعة وجـاؤوا فـأخذوني مـن الـبلاعة وقـد كـاد الرجل يحبسنى فأجلسونى فى صدر صفة وجلسـوا حولى وشتموا ذلك الغلام ومنعوا الباقين عنى وقالوا: نحن جياع ائتنا بشيء نأكلـه وقـتل هـذا لا يفـوت فقال الباقون: القول ما قالوا فكفوا عنى ومضى فاشترى خمسـين رأسـاً وخـبزاً كـثيراً وجبناً وزيتوناً وجاءهم به فجلسوا يأكلون وأنا أتخوف أن يتغافلـنى مـنهم إنسـان فيقتلـنى فقلـت لذلـك الفتى فترك الأكل فجلس هو وأستاذه يحفظونـى إلى أن أكلـت الجماعـة ووكلـوا بـى قومـا مـن أصحابهم ممن أكل وجلسوا يـأكلون واسـتدعونى للأكـل معهـم فـأردت إيجـاب إلـزام علـيهم فأكلت معهم أكل معـرض لقمـة واحدة أو لقمتين بلا شهوة ولا عقل فقال لهم مقبل: الآن أكلتم وترك هـذا خطـأ فاقتلوه فعاد الكلام فى قتلى وأقبل أولئك يمنعون وتزايد الأمر إلى أن جرد بعضـهم السـيوف على بعض وجعلوني أولئك وراءهم وأقبلوا يجادلون عنى وأولئك يـنجون مـن خلفهـم بأطـراف السـيوف وأنـا أروغ خوفاً من أن يصل إلىَّ بعض ذلك فيقتلني وأنا أحلف لهم إن سلمت لم أنبه عليهم إلى أن كادوا يتجارحون .

ودخل بعضهم بينهم وقالوا: لا يكون هذا ميشوما عليكم فدعوه فتوافقوا على الكف عنى وجلسوا يشربون إلى وقت العشاء الأخيرة فلما أرادوا أن يخرجوا بى قالوا: يتوكل به من يتعصب له حتى نخرج نحن فإن صاح بلى به من خلصه فقال لى الفتى وأستاذه: قد سمعت يا فتى فلا تكافينا على الجميل بقبيح فحلفت لهم بالله أنى لا أنبه عليهم فخرجت الجماعة إلا الغلام وأستاذه فلما بعدت الجماعة خرج النفسان فما كان لى همة إلا غلق الباب وراهما وترسته ووقعت مغشياً وذهب عقلى عنى إلى قريب من نصف الليل وقد لحقنى البرد فلم أزل أرتعد فزعاً وبردا إلى وجه السحر وسمعت صوت الدبادى فخرجت عرياناً حتى أتيت إلى بيتي وآليت على نفسي إنني لا أمضي إلى موضع لا أخبره ولا مع من لا أعرف باطنه فحمدت الله على العافية انتهى .

(**روى ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء**) عن محمد بن عمر قال حدثنى رجل من الدقاقين قال: ورد عليَّ رجل غريب بِصُرّة فيها دراهم وقال: دعها عندك حتى آخذها متفرقة فكان يجيء كل يوم فيأخذ بقدر نفقته إلى أن نفدت فصار بيننا معرفة وألف الجلوس عندى وكان يرانى أخرج من صندوق لى فأعطيه منه فقال لى يوماً إن قُفل الرجل صاحبه فى سفره وأمينه فى حضره وخليفته على حفظ ماله والذى ينفى لظنه عن أهله وعياله وإن لم يكن وثيقاً تطرقت الحيل إليه وأرى قفلك هذا وثيقاً فقل لى ممن ابتعته لأبتاع مثله لنفسى فقلت من فلان الإقفالى قال: فما شعرت يوماً وقد جئت إلى دكانى فطلبت صندوقى لأخرج منه شيئاً من الدراهم فحمل إلىَّ ففتحته وإذا ليس فيه شيء من الدراهم فقلت لغلامي وكان غير متهم عندي: هل أنكرت من الدرابات شيئا؟ قال: لا ، قلت: ففتش هل ترى فى الدكان نقباً؟ فقال: لا قلت: فمن السقف حيلة؟ قال: لا قلت: فاعلم أن دراهمى قد ذهبت الكيس بما فيه فقلق الغلام فسكنته وأقمت يومى لا أدرى أى شيء أعمل وتأخر الرجل عليَّ فاتهمته وتذكرت مسألته عن القفل فقلت للغلام: أخبرنى كيف تفتح دكانى وتغلقه؟ قال: أحمل الدرابات من المسجد دفعتين أو ثلاثة قلت: فعلى من تخلى الدكان إذا حملت الدرابات؟ قال خالياً

قلت: من هنا دهيت فمضيت إلى الصانع الذى ابتعت منه القفل؟ فقلت: أجاءك إنسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل قال: نعم رجل من صفته كيت وكيت فأعطانى صفة صاحبى فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساء لما انصرفت أنا وبقى الغلام يحمل الدرابات فدخل هو إلى الدكان فاختبى فيه ومعه مفتاح القفل الذى اشتراه يوقع على قفلى وأنه أخذ الدراهم وجلس طول الليل خلف الدرابات فلما جاء الغلام ففتح درابتين وحملهما ليرفعهما فخرج وأنه ما فعل ذلك إلا وقد خرج من بغداد قال: فخرجت ومعى قفلى ومفتاحه فقلت: أبتدى بطلب الرجل بواسط فلما صعدت من السميرية طلبت خاناً أنزله فصعدت فإذا بقفل مثل قفلى سواء على بيت فقلت لقيم الخان: هذا البيت من ينزله؟ قال: رجل قدم من البصرة أمس قلت: ما صفته؟ فوصف صفة صاحبى فلم أشك أنه هو وإن الدراهم فى بيته فاكتريت بيتاً إلى جانبه ورصدت حتى انصرف قيم الخان ففتحت القفل فدخلت فوجدت كيسى بعينه فأخذته وخرجت وأقفلت الباب ونزلت فى الوقت فى السفينة وانحدرت إلى البصرة وما أقمت بواسط إلا ساعتين من النهار ورجعت إلى منزلى بمالى بعينه .

(**وحكى عن بعضهم أنه قال**): كنت ناقداً بالإبلة لرجل تاجر فاقتضيت له من البصرة نحو خمسمائة دينار عينا فلففتها فى فوطة وأمسيت على المسير إلى الإبلة فما زلت أطلب ملاحاً فلا أجد إلى أن رأيت ملاحاً مجتازاً فسألته أن يحملنى فخفف عليَّ الأجرة وقال: أنا أرجع إلى منزلى بالإبلة فانزل فنزلت وجعلت الفوطة بين يدى وسرنا فإذا رجل ضرير على الشط يقرأ أحسن قراءة تكون ، فلما رآه الملاح كبر فصاح بالملاح: احملني فشتمه الملاح فقلت له: احمله فدخل إلى الشط فحمله فرجع إلى قراءته فخلب عقلى بطيبها فلما قربنا من الإبلة قطع القراءة وقام ليخرج فى بعض المشارع بالإبلة فلم أر الفوطة فاضطربت وصحت واستغاث الملاح فقلت: يا هذا كانت بين يدي فوطة فيها خمسمائة دينار ، فلما سمع الملاح ذلك لطم وبكى وتعرى من ثيابه وقال: لم أدخل الشط ولا لى موضع فتتهمني بسرقة ولى أطفال وأنا ضعيف فالله الله

فـى أمـرى وفعـل الضرير مثل ذلك فرحمتها وقلت: هذه محنة لا أدرى كيف التخلص مـنها وخرجنا فعملت على الهرب وأخذ كل واحد منا طريقاً وبت فى بيتى ولم أمض إلى صـاحبى فـلما أصـبحت عملـت عـلى الرجوع إلى البصرة لأستخفى بها أياماً ثم أخـرج إلى بلد شائع فانحدرت وخرجت فى مشرعة بالبصرة وأنا أمشى وأتعثر وأبكى عـلى فـراق أهـلى وولـدى وذهاب معيشتى وجاهى فاعترضنى رجل فقال: ما لك؟ فأخـبرته فقـال: أرد علـيك مـالك ، فقلت: يا هذا إنى فى شغل عن طنزك بى قال ما أقـول إلا حقـاً امـض إلى السـجن ببـنى غـير واشـترى معك خبزاً كثيراً وشواء جيداً وحلـواء وسـل السجان أن يوصلك إلى رجل محبوس هناك يقال لـه: أبو بكر النعاش قـل لـه: أنا زائره فإنك لا تمنع فإن منعت فهب للسجان شيئاً يسيراً حتى يدخلك إليه فـإذا رأيـته فسـلم عليه ولا تخاطبه حتى تجعل بين يديه ما معك فإذا أكل وغسل يديه فإنـه يسألك عن حاجتك فأخبره خبرك فإنه سيدلك على من أخذ مالك ويرتجعه لك ففعلـت ذلـك وطرحـت مـا معى بين يديه فدعى رفقاء لـه فأكلوا فلما غسلوا أيديهم قـال: مـن أنـت ومـا حاجتك؟ فشرحت لـه قصتى فقال: امض الساعة إلى بنى هلال فادخل الدرب الفلانى حتى تنتهى إلى آخره فإنك تشاهد باباً شعثاً فافتحه وادخله بلا اسـتئذان فـتجد دهلـيزاً طويلاً يؤدى إلى بابين فادخل الأيمن منهما فسيدخلك إلى دار فـيها بيـت فيه أوتاد وبواري وعلى كل وتد إزار ومئزر فانزع ثيابك وألقها على الوتد واتزر بالمئزر واتشح بالإزار واجلس فسيجيء قوم يفعلون كما فعلت ثم يأتون بطعام فكل معهم وتعمد موافقتهم فى سائر أفعالهم فإذا أتى بالنبيذ فاشرب وخذ قدحاً كبيراً واملأه وقم قائماً وقل: هذا سهم خالى أبى بكر النعاش فسيفرحون بك ويقولون: أهو خالك؟ فقل: نعم فسيقومون ويشربون فإذا جلسوا فقل لهم: خالى يقرأ عليكم السلام ويقـول: يـا فتيان بحياتى ردوا على ابن أختى المئزر الذى أخذتموه بالأمس فى السفينة بنهر الإبلة فإنهم يردونه عليك فخرجت من عنده ففعلت ما أمر فردت الفوطة بعينها ومـا حـلَّ شرطها فلما حصلت لى قلت: يا فتيان هذا الذى فعلتموه لى هو قضاء لحق خـالى ولى أنـا حاجـة تخصـنى قـالوا: مقضية ، قلت لهم: عرفونى كيف أخذتم الفوطة

فامتنعوا ساعة فأقسمت عليهم بجاه أبى بكر النعاش فقال لى واحد منهم: أما تعرفنى فتأملته جداً فإذا هو الضرير الذى كان يقرأ وإنما كان متعامياً فأومى إلى الآخر وقال: أتعرف هذا فتأملته فإذا هو الملاح فقلت: كيف فعلتما؟ فقال الملاح: أنا أدور المشارع فى أول أوقات المساء وقد سبقت بهذا المتعامى فأجلسته حيث رأيت فإذا رأيت من معه شيء له قدرنا ديته وأرخصت الأجرة وحملته فإذا بلغت إلى القارئ وصاح بى شتمته حتى لا يشك الراكب بأنى أريد حمله فإذا حمله الراكب فذاك وإلا رققته عليه حتى يحمله فإذا حمله وجلس يقرأ ذهل الرجل كما ذهلت فإذا بلغنا الموضع الفلانى فإن فيه رجلا متوقعاً لنا يسبح حتى يلاصق السفينة وعلى رأسى قوصرة فلا يفطن الراكب به فيسلب هذا المتعامى الشيء بخفة فيلقيه إلى الرجل الذى عليه القوصرة فيأخذه ويسبح إلى الشط وإذا أراد الراكب الصعود وافتقد ما معه عملنا كما رأيت فلا يتهمنا فإذا كان من الغد اجتمعنا واقتسمناه فلما جئتنا برسالة أستاذنا خالك سلمنا إليك الفوطة قال: فأخذتها ورجعت . انتهى .

(**روى عن لص تائب**) أنه قال: دخلت مدينة فجعلت أطلب شيئاً أسرقه فوقعت عينى على صيرفى موسر فما زلت أحتال حتى سرقت كيساً له وأسللت فما جزت غير بعيد إذا أنا بعجوز معها كلب قد وقعت فى صدرى تبوسنى وتلزمنى وتقول: يا بنى فديتك والكلب يبصبص ويلوذ بى ووقف الناس ينظرون إلينا وجعلت المرأة تقول: انظروا إلى الكلب كيف عرفه فعجب الناس من ذلك وتشككت أنا فى نفسى قلت: علها أرضعتنى وأنا لا أعرفها وقالت: قم معى إلى البيت أقم عندى اليوم فلم تفارقنى حتى مضيت معها إلى بيتها وإذا عندها أحداث يشربون وبين أيديهم من سائر الفواكه والرياحين فرحبوا بى وقربونى وأجلسونى معهم ورأيت لهم قبرة حسنة فوضعت عينى عليها فجعلت أسقيهم وأرفق بنفسى إلى أن ناموا ونام كل من فى الدار فقمت وكورت كل ما عندهم وذهبت أخرج فوثب علىَّ الكلب وثبة الأسد وصاح وجعل يتراجع وينبح إلى أن انتبه كل نائم فخجلت واستحييت فلما كان النهار فعلوا مثل فعلهم أمس وفعلت أيضاً أنا بهم مثل ذلك وجعلت أوقع الحيلة فى أمر

الكلب إلى الليل فما أمكننى فيه حيلة فلما ناموا رمت الذى رمته فإذا الكلب قد عارضنى بمثل ما عارضنى فجعلت أحتال ثلاث ليال فلما أيست طلبت الخلاص منهم بإذنهم فقلت: أتأذنون لى بالخروج فإنى على وفاق فقالوا: الأمر إلى العجوز فاستأذنتها فقالت: هات الذى أخذته من الصيرفى وامض حيث شئت ولا تقم فى هذه المدينة عملا فأخذت الكيس فعند ذلك أخرجتنى ووجدت مناى حين سلمت من يدها وكان قصاراى أن أطلب منها نفقة فدفعت إلىَّ وخرجت معى حتى أخرجتنى من المدينة والكلب معها حتى بلغت حدود المدينة وقفت ومضيت والكلب يتبعنى حتى بعدت ثم تراجع ينظر إلىَّ ويلتفت وأنا أنظر إليه حتى غاب عنى .

(روى) أن محتالين سرقوا حماراً ومضى أحدهما لبيعه فلقيه رجل معه طبق فيه سمك فقال: تبيع هذا الحمار؟ قال: نعم قال: امسك هذا الطبق حتى أركبه وأنظر إليه قال: فدفع إليه الطبق فركبه ورجع ثم ركبه ودخل زقاقا ففر به فلم يدر أين أخذه قال: فرجع المحتال فلقيه رفيقه فقال: ما فعل الحمار قال: بعناه بما اشتريناه وربحنا هذا الطبق من السمك .

(روى) أنه كان ببغداد رجل يطلب التلصص فى حداثته ثم تاب فصار بزازاً قال: فانصرف ليلة من دكانه وقد أغلقه فجاء لص محتال متزى بزى صاحب الدكان فى كمه شمعة صغيرة ومفتاح فصاح بالحارس فأعطاه الشمعة فى الظلمة وقال: أشعلها وجئنى بها فإن لى الليلة فى دكانى شغلا فمضى الحارس يشعل الشمعة وركب اللص على الأقفال ففتح ودخل الدكان وجاء الحارس بالشمعة فأخذها من يده فجعلها بين يديه وفتح سفط الحساب وأخرج ما فيه وجعل ينظر فى الدفاتر ويرى بيده أنه يحسب والحارس يتردد ويطالعه ولا يشك أنه صاحب الدكان إلى أن قارب السحر واستدعى اللص الحارس وكلمه من بعيد وقال: اطلب حمالا فجاءه بحمال فحمل عليه أربع رزم مثمنة وقفل الدكان وانصرف ومعه الحمال وأعطى الحارس درهمين فلما أصبح الناس جاء صاحب الدكان لفتح الدكان فقام

إلـيه الحـارس يدعـو ويقـول: فعـل الله بـك وصـنع كمـا أعطيتـنى البـارحة الدرهمـين فأنكـر الـرجل بمـا صنعه وفـتح دكانـه فوجـد سيلان الشـمعة وحسـابه مطـروحا وفقـد الأربـع رزم فاستدعى الحـارس وقـال لـه: مـن كـان حمـل الـرزم معـى؟ قـال: أمـا استدعيت حمـالا فجئـتك بـه؟ قـال: بـلى ولكـن كنـت ناعسـا وأريـد الحمـال فجئني بـه فمضـى الحـارس فجـاء بالحمـال وأغلـق الـرجل الدكـان وأخـذ الحمـال معـه ومضـى فقـال لـه: إلى أيـن حملـت الـرزم معى البارحة؟ فقال: أمـا ذهبـت معـك إلى الشـط واستدعيت لـك فلانـاً المـلاح فركبـت معـه فقصـد المشـرعة؟ وسـأل عـن المـلاح فحضـر وركـب معـه وقـال: أيـن رقيـت أخـى الـذى كـان معـه الأربـع رزم؟ قـال: إلى المشـرعة الفلانـية قـال: اطرحـنى إلـيها فطـرحه قـال: مـن حمـلها معـه؟ قـال: فـلان الحمـال فدعـا بـه فقـال لـه: امـش بـين يـدى فمشـى فأعطـاه شـيئاً واسـتدله بـرفق إلى الموضـع الـذى حمـل إلـيه الـرزم فجـاء إلى بـاب غـرفة فـى موضـع بعـيد مـن الشـط قريـب مـن الصـحراء فوجد الباب مقفلاً فاسـتوقف الحمـال وفـش القفـل فدخـل فوجـد الـثلاث رزم بحالهـا وإذا في البيـت كسـاء معلـق عـلى حـبل فلـف الـرزم فـيه ودعـى بالحمـال فحمـلها عـنه وقصـد المشـرعة فحـين خـرج مـن الغـرفة اسـتقبله اللـص فـرآه ومـا معـه فاتـبعه إلى الشط فجـاء إلى المشـرعة ودعـا المـلاح ليعـبر فطلـب الحمـال أن يحـط عـنه فجـاء اللـص فحـط الكسـاد كأنـه مجتاز مقطـوع فـأدخل الـرزم إلى السـفينة مـع صـاحبها وجعل الكسـاد عـلى كـتفه وقـال لـه: يـا أخـى اسـتودعتك الله قـد ارتجعـت رزمـك فدع كسـائى فضـحك وقـال: انـزل فـلا خـوف علـيك فـنزل معـه واسـتتابه ووهـب لـه شيئاً وصرفه ولم يسر إليه .

(**قـال محمـد بـن العقيـلى**) رأيـت رجـلا من بنى عقيل وظهره كله مشروط كشـرطات الحجـام إلا أنهـا أكـبر فسـألته عـن ذلـك فقـال: إنـى كنـت هويـت ابـنة عـم لى فخطبـتها فقـالوا: لا نـزوجك إلا أن تجعـل فـى الصـداق فرسـا سـابقة كانـت لـبعض بـنى أبـى بكـر فـتزوجها عـلى ذلـك وخرجـت فـى أن أحـتال أن

أسل الفرس من صاحبه لأتمكن من الدخول بابنة عمى فأتيت الحى الذى فيه الفرس وما زلت أداخلهم حتى دخلت إلى الخباء واختبيت فلما جاء الليل وافى صاحب البيت وقد زاولت المرأة عشاءه وجلسا يأكلان وقد استحكمت الظلمة ولا مصباح لهم فأخرجت يدى وأهويت إلى القصعة فأكلت معهما وأحس الرجل بيدى فأنكرها فقبض عليها فقبضت على يد المرأة فقالت له المرأة: ما لك ويدى؟ فظن أنه قبض على يد امرأته فخلى يدى فخليت عن يد المرأة وأكلنا ثم أنكرت المرأة يدى فقبضت عليها فقبضت يد الرجل فقال لها: ما لك ويدى؟ فخلت عن يدى فخليت عن يد الرجل وانقضى الطعام واستلقى الرجل نائماً فلما استثقل وأنا مراصدهم والفرس مقيد فى جانب البيت والمفتاح تحت رأس المرأة فوافى عبد له أسود فنبذ حصاة فانتبهت المرأة فقامت إليه وتركت المفتاح مكانه وخرجت من الخباء إلى ظاهر البيت فإذا هو قد علاها فأخذت المفتاح أنا ففتحت القفل وكان معى لجام شعر فأوجزته للفرس وركبتها وخرجت عليها من الخباء فقامت المرأة من تحت العبد ودخلت الخباء وصاحت فأحسوا بى وركبوا فى طلبى وأنا أكد الفرس وخلفى خلق منهم فأصبحت وليس ورائى إلا فارس واحد برمح فلحقنى وقد طلعت الشمس فأخذ يطعننى فهذه آثار طعناته فى جسدى لا فرسه تلحق بى فيتمكن من طعنته ولا فرسى ينجينى إلى حيث لا يمسني الرمح حتى وافينا إلى نهر عظيم فصحت بالفرس فوثبه وصاح الفارس بالذى تحته فقصرت ولم يثب فلما رأيته عاجزاً عن العبور وقفت لأريح الفرس وأستريح فصاح بى فأقبلت عليه بوجهى فقال: يا هذا أنا صاحب الفرس الذى تحتك وهذه ابنتها وإذا قد ملكتها فلا تخدعن فيها فإنها تساوى عشر ديات وعشر ديات وعشر ديات وما طلبت عليها شيئاً إلا لحقته ولا طلبنى عليها أحد إلا فته وإنما سميت الشبكة لأنها لم ترد شيئاً إلا أدركته فكانت كالشبكة فى صيده فقلت له: إذ نصحتنى فوالله لأنصحنك كان من صورتى البارحة كيت

وكيت فقصصت عليه قصة امرأته والعبد وحيلتي في الفرس فأطرق ثم رفع رأسه فقال: لا جزاك الله من طارق خيرا طلقت زوجتي وأخذت فرسي وقتلت عبدي .

(روى) أن رجلا نام في مسجد وتحت رأسه كيس فيه ألف وخمسمائة دينار قال: فما شعرت إلا بإنسان جذبه من تحت رأسي فانتبهت فزعا فإذا شاب قد أخذ الكيس ومر يعدو فقمت لأعدو خلفه فإذا رجلي مشدود بخيط قنب في وتد مضروب في آخر المسجد فإلى أن تخلصت غاب الرجل عن عيني . اهـ .

(روى) إنه كان بالبصرة رجل من اللصوص ينش بالليل فاره جداً مقدام يقال له: عباس بن الخياطة قد غلب الأمراء وأشجى أهل البلد فلم يزالوا يحتالون إلى أن وقع وكبل بمائة رطل حديد وجلس فلما كان بعد سنة من حبسه أو أكثر دخل قوم الإبلة على رجل تاجر كان عنده جوهر بعشرات فسرقوه ألوف دنانير وكان مستيقظاً جداً فجاء إلى البصرة يتظلم وأعانه خلق من التجار وقال للأمير: أنت دسست على جوهرى وما خصمى سواك فورد عليه أمر عظيم وخلا بالبوابين يتوعدهم فاستنظروه فأنظرهم وطلبوا واجتهدوا فما عرفوا فاعل ذلك فراجعهم الرجل وألح فاستأجلوا الأمير مرة أخرى وجاء أحد البوابين إلى الحبس فتخادم لابن الخياطة ولازمه نحو شهر وتذلل له في الحبس فقال له: قد وجب حقك عليَّ فما حاجتك؟ قال: جوهر فلان المأخوذ بالإبلة لابد أن يكون عندك منه خبر فإن دماءنا مرتهنة به وحدثه الحديث فرفع ذيله فإذا سقط الجوهر تحته فسلمه إليه .

وقال: قد وهبته لك فاستعظم ذلك وجاء بالسقط إلى الأمير فسأله عن القصة فأخبره بها فقال: عليَّ بعباس فجاؤوا به فأمر بالإفراج عنه وإزالة قيوده وأدخله الحمام وخلع عليه وأجلسه في مجلسه مكرماً واستدعى الطعام فواكله وبيته عنده فلما كان من الغد خلا به وقال: أنا أعلم أنك لو ضربت مائة ألف سوط ما أقررت كيف كانت صورة أخذ الجوهر قال: على أنني

ومن عاونني عليه آمنون وإنك لا تطالبنا بالقوم الذين أخذوه قال: نعم فقال: إن جماعة اللصوص جاؤوني إلى الحبس وذكروا حاله هذا الجوهر وإن دار التاجر لا يجوز أن يتطرق عليها نقب ولا تسليق وعليها بابان من الحديد والرجل متيقظ وقد راعوه سنة فما أمكنهم وسألونى فساعدتهم ودفعت إلى السجان مائة دينار وحلفت له بالأيمان الغليظة أنه إن أطلقنى عدت إليه من غد وأنه وإن لم يفعل ذلك اغتلته فقتلته فى الحبس فأطلقنى فنزعت الحديد وتركته فخرجت المغرب فوصلنا إلى الإبلة العتمة وخرجنا إلى دار الرجل فإذا هو المسجد وبابه مغلق فقلت لأحدهم: تصدق من الباب فتصدق فلما جاؤوا ليفتحوا قلت له: اختفى ففعل ذلك مرات والجارية تخرج فإذا لم تر أحداً عادت إلى أن خرجت من الباب ومشت خطوات تطلب السائل فتشاغلت بدفع الصدقة إليه فدخلت أنا إلى الدار فإذا فى الدهليز بيت فيه حمار فدخلته ووقفت تحت الحمار وطرحت الجل علىَّ وعليه وجاء الرجل فأغلق الأبواب وفتش ونام على سرير عال والجوهر تحته فلما انتصف الليل قمت إلى شاة فى الدار فعركت أذنها فصاحت فقال الرجل للجارية: اطرحى لها غلفاً ففعلت ونامت فعركت أذنها فصاحت فقال: ويلك أقول لك افتقديها قالت: قد فعلت قال: كذبت وقام بنفسه ليطرح لها علفاً فجالسته إلى السرير وفتحت الخزانة وأخذت السفط فعدت إلى موضعى وعاد الرجل فنام واجتهدت أنا أن أجد لى حيلة بأن أنقب إلى دار بعض الجيران فأخرج فما قدرت لأن جميع الدار مؤزرة بالساج ورمت صعود السطح فما قدرت لأن المغارف مقفلة بثلاثة أقفال فعمدت إلى ذبح الرجل ثم استقبحت ذلك وقلت: هذا بين يدى إن لم أجد حيلة غيرها فلما كان السحر عدت إلى موضعى تحت الحمار وانتبه الرجل يريد الخروج فقال للجارية: افتحى الأقفال عن الباب ودعيه مترساً ففعلت وقربت من الحمار فرفس فصاحت فخرجت أنا ففتحت المترس وخرجت أعدو حتى جئت إلى المشرعة ووقعت

الصيحة فى دار الرجل فطالبنى أصحابى أن أعطيهم شيئاً منه فقلت: لا هذه قصة عظيمة وأخاف أن يتنبه عليها ولكن دعوه عندى فإن مضى على الحديث ثلاثة أشهر فإنكم تصيرون إلىَّ أعطكم النصف وإن ظهر خفت عليكم وعلى نفسى وجعلته حقنا لدمائكم فرضوا بذلك فأرسل الله هذا البواب بلية يخدمنى فاستحييت منه وخفت إن يقتل هو وأصحابه وقد كنت وطنت نفسى للصبر على كل عذاب فدخلتم علىَّ من طريق أخرى لم أستحسن فى الفتوة معها إلا الصدق فقال له الأمير: جزاء هذا الفعل أن أطلقك ولكن تتوب فتاب وجعله الأمير بعض أصحابه وأسنى له الرزق واستقامت طريقته .

(وروى) عن طالوت بن عباد الصيرفي أنه قال: كنت ليلة نائماً بالبصرة فى فراشى وحراسى يحرسونى وأبوابى مقفلة فإذا أنا بابن الخياطة ينبهني من فراشى فانتبهت فزعاً فقلت: من أنت؟ فقال: ابن الخياطة فتلفت فقال لى: لا تخف قد أردت الساعة خمسمائة دينار أفتقرضني إياها وأردها عليك؟ فأخرجت خمسمائة دينار فدفعتها إليه فقال: نم ولا تتبعنى لأخرج من حيث جئت وإلا قتلتك قال: وأنا أسمع صوت حراسى ولا أدرى من أين دخل ولا من حيث خرج وكتمت الحديث خوفاً منه وزدت فى الحرس ومضت ليال وإذا أنا به قد نبهنى على تلك الصورة فقلت: مرحباً ما تريد؟ قال: جئت بتلك الدنانير تأخذها منى فقلت: أنت فى حل منها وإن أردت شيئاً آخر فخذ فقال: لا أريد من نصح التجار شاركهم فى أموالهم ولو كنت أردت أخذ مالك باللصوصية فعلت ولكنك رئيس بلدك وما أريد إذايتك فإن ذلك يخرج عن الفتوة ولكن خذها فإن احتجت إلى شيء بعد هذا أخذت منك فقلت: إن عودك إلىَّ يفزعنى ولكن إذا أردت شيئاً فائتِ إلىَّ نهاراً أو رسولك فقال: أفعل وأخذت الدنانير منه وانصرف وكان رسوله يجيئنى بعلامة بعد ذلك فأعطيه ويرده بعد مدة ما انكسر لى عنده شيء إلى أن قبض عليه . انتهى .

(وروى)أن رجلاً اشترى من مخلطى قطعة صابون ومضى إلى النهر ليغسل ثيابه

فلما وصل أخرجها فإذا هى قطعة آجر فصعب الأمر عليه وقال: هذا يبيع الناس آجرا أو صابونا فمضى إليه ليردها فلما وصل قال: ويحك أتبيع الناس آجراً أو صابونا؟ قال: كيف أبيع آجرا فأخرجها من كمه فإذا هى صابون فاستحى ورجع إلى النهر فأخرجها فإذا هى آجرة فعاد إليه ووبخه وأخرجها فإذا هى قطعة صابون فعاد مرة أخرى كذلك حتى ضجر فقال له المخلطى: لا يضيق صدرك فإن لنا ولد قد أخرجناه نعلمه أن يحتال وإنك كلما مضيت فعل هذا وإذا رآك قد عدت لردها أعادها فى كمك وأنت لا تعلم .

(روى) أن رجلاً جاء إلى بزاز فاستقصى منه ثياباً بثلاثمائة دينار ثم وزنها له فلما تسلمها صاحب الثياب قال له الرجل: لقد غلبتني فعاد وجمع الدنانير وأنزلها في خرقة وختمها ورمى بها في كم غلامه ثم قال: ما أنا إلا متردد أفتأذن لي أن أرى الثياب من اشتريتها له فإن رضى وإلا رددتها؟ قال: نعم فأدخل يده فى كم غلامه فاستخرج الخرقة فرمى بها إلى البزاز وأخذ الثياب ومضى ففتح البزاز الخرقة فإذا بها فلوس وقد جعل فى كم غلامه خرقة مثلها وفيها وزن الثلاثمائة .

(قال أبو الفتح البصرى) اجتمع جماعة من اللصوص فاجتاز عليهم شيخ صيرفي معه كيس فقال أحدهم: ما تقولون فيمن يأخذ كيس هذا قالوا: كيف تفعل؟ قال: انظروا ثم تبعه إلى منزله فدخل الشيخ فرمى بكيسه على الصفة وقال للجارية: أنا حاقن فالحقينى بماء فى الغرفة وصعد فدخل اللص وأخذ الكيس وجاء إلى أصحابه فحدثهم فقالوا: ما عملت شيئاً تركته يضرب الجارية ويعذبها وما هذا بمليح قال: فكيف تريدون؟ قالوا: تخلص الجارية من الضرب وتأخذ الكيس قال: نعم فمضى وطرق الباب فإذا به يضرب الجارية فقال: من؟ قال: غلام جارك فى الدكان فخرج فقال: ماذا تريد؟ فقال: سيدى يسلم عليك ويقول لك: قد تغيرت ترمى كيسك فى الدكان وتمضى ولولا أننا رأيناه كان قد أخذ وأخرج الكيس فقال: أليس هذا هو؟ قال: بلى

والله هو ثم أخذه فقال: لا بل أعطانيه وادخل فاكتب في رقعة أنك قد تسلمت الكيس حتى أتخلص أنا ويرجع إليك مالك فناوله إياه ودخل ليكتب فأخذه ومضى . اهـ .

(وروى) عن رجل من الجند أنه قال: خرجت من بعض بلدان الشام أريد قرية من قراها فلما صرت في الطريق وقد سرت عدة فراسخ تعبت وكنت على دابة وعليها خرجي ورحلي وقد قرب المساء فإذا بحصن عظيم وفيه راهب في صومعة فنزل إليَّ واستقبلني وسألني المبيت عنده وأن يضيفني ففعلت فلما دخلت الدير فلم أجد فيه غيرى فأخذ دابتي وطرح لها شعيراً وعزل رحلي في بيت وجاءني بماء حار وكان الزمان شديد البرد والثلج يسقط وأوقد بين يدى ناراً عظيمة وجاءني بطعام طيب فأكلت ومضت قطعة من الليل فأردت النوم فسألته عن طريق المستراح فدلني على طريقه وكنا في غرفة فمشيت فلما صرت على باب المستراح إذا بارية عظيمة فلما صارت رجلي عليها نزلت فإذا أنا بالصحراء وإذا البارية كانت مطروحة على غير تسقيف وكان الثلج يسقط سقوطاً عظيما فصحت فما كلمني فقمت وقد تجرح بدني إلا أني سالم فجئت فاستظللت بطاق باب الحصن من الثلج فإذا حجارة قد جاءتني لو تمكنت من دماغي لطحنته فخرجت أعدو وأصيح فشتمني فعلمت أن ذلك من جانب طمع في رحلي فلما خرجت وقع الثلج عليَّ وبلَّ ثيابي ونظرت فإذا أنا تالف بالبرد والثلج فولد الفكر أن طلبت حجراً فيه نحو ثلاثين رطلا فوضعته على عاتقي وأقبلت أعدو في الصحراء شوطاً طويلا حتى أتعب وإذا تعبت وحميت وعرقت طرحت الحجر وجلست أستريح فإذا سكنت وأخذني البرد تناولت الحجر وسعيت كذلك إلى الغداة فلما كان قبل طلوع الشمس وأنا خلف الحصن إذ سمعت صوت باب الدير قد فتح وإذا بالراهب قد خرج وجاء إلى الموضع الذى سقطت منه فلما لم يرض قال: يا قوم ما فعل وأنا أسمعه وأظن المشؤوم قد رأى بقربه قرية فقام

يمشى إليها كيف أعمل قال: وأقبل يمشى فخالفته أنا إلى الباب ودخلت الحصن وقد مشى هو من ذلك المكان فطلبني حوالي الحصن فحصلت أنا خلف باب الحصن وقد كان فى وسطي سكين لم يعلم بها الراهب فوقفت خلف الباب فطاف الراهب فلما لم يقف لى على أثر عاد ودخل وأغلق الباب فحين صار من داخل الحصن خفت أن يرانى فبرزت إليه وأوجأته بالسكين وصرعته وذبحته وأغلقت باب الحصن وصعدت إلى الغرفة واصطليت بنار كانت موقودة هناك وطرحت علىَّ من تلك الثياب وفتحت خرجى ولبست منه ثياباً وأخذت كساء الراهب فنمت فيه فما أفقت إلا قريب العصر ثم انتبهت فطفت الحصن حتى وقفت على طعام فأكلت منه وسكنت نفسى ووقعت بمفاتيح بيوت الحصن وأقبلت أفتح بيتاً بيتا فإذا بأموال عظيمة من عين وورق وأمتعة وثياب وآلات ورحال قوم وأخراجهم وحمولاتهم وإذا الراهب من عادته تلك الحال مع كل من يجتاز وحيداً فيتمكن منه فلم أدر كيف أعمل فى نقل المال فلبست من ثياب الراهب شيئاً وأقمت فى صومعته أياماً أترآى لمن يجتاز بى فى الموضع من بعيد لئلا يشكوا فى أنى أنا هو فإذا قربوا لم أبرز لهم وجهى إلى أن أخفى خبرى ثم نزعت تلك الثياب وأخذت جوالقين مما كان فى الدير من تلك الأمتعة وملأتها مالاً وجعلتها على الدابة وسقتها إلى أقرب قرية كانت واكتريت فيها منزلاً ولم أزل أنقل إليه الصامت حتى حملته كله ثم ما خف وكثرت قيمته حتى لم أدع إلا الأمتعة الثقيلة فاكتريت جمالا وحميراً ورجالاً وجئت بهم دفعة واحدة وحملت كل ما قدرت عليه وسرت فى قافلة عظيمة لنفسى بغنيمة هائلة حتى قدمت بلدى وقد حصل لى عشرات ألوف دراهم ودنانير كثيرة مع قيمة الأمتعة وغصت فى الأرض فما عرف خبرى انتهى ، والله تعالى أعلم .

* * * * *

الباب الثانى عشر

فى أخبار النساء المتفطنات

(**روى ابـــن الجوزى**) فى كتاب الأذكياء عن هشام بن محمد الكلبى عن أبيه قال: كـان جذيمـة بن مالك ملكاً على الحيرة وما حولها من السواد ملك ستين سنة وكان به وضـح وكـان شـديد السلطان قد خافه القريب وهابه البعيد فتهيبته العرب أن يقولوا الأبرص فقالوا : الأبرش فغزا مليح بن البراء وكان ملكا على الحضر وهو الحاجز بين الـروم والفـرس فقـتله جذيمة وطرد ابنته الزبا إلى الشام فلحقت بالروم وكانت عربية اللســان حسـنة البـيان شـديدة السلطان كبيرة الهمة قال ابن الكلبى: ولم يكن فى نساء عصـرها أجمـل مـنها وكـان اسمها قارعة وكان لها شعر إذا مشت سحبته وراءها وإذا نشـرته جلـلها فسـميت الـزبا قـال ابن الكلبى: وبعث عيسى ابن مريم بعد قتل أبيها فبلغـت بهـا همـتها أن جمعـت الرجال وبذلت الأموال وعادت إلى ديار أبيها ومملكته فأزالـت جذيمة الأبرش عنها وابتنت على عراقى الفرات مدينتين متقابلتين من شرقى الفـرات وغربـيه وجعلـت بينهما نفقاً تحت الفرات وكان إذا رهقها الأعداء آوت إليه وتحصـنت به وكانت قد اعتزلت الرجال فهى عذراء بتول وكان بينها وبين جذيمة بعد الحـرب مهادنـة فحـدث جذيمة نفسه بخطبتها فجمع خاصته وشاورهم فى ذلك وكان لــه ابـن عـم يقـال لــه: قصير بن سعد وكان عاقلاً لبيباً وكان خازنه وصاحب أمره وعمـيد دولـته فسـكت القـوم وتكـلم قصير فقال: أبيت اللعن أيها الملك إن الزبا قد حرمـت الرجال فهى عذراء بتول لا ترغب فى مال ولا فى جمال ولها عندك ثأر والدم لا يـنام وإنمـا تاركتك رهبة وحذراً والحقد دفين فى سويداء القلب لـه كمون ككمون الـنار فـى الحجـر إن قدحته أورى وإن تركته توارى وللملك فى بنات الملوك الأكفاء متسـع ولهـن فـيه منتفع وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك وعظم شأنك فما أحـد فوقـك فقـال جذيمـة: يا قصير الرأى ما رأيته والحزم ما قلته ولكن النفس تواقة وإلى مـا تحـب وتهـوى مشـتاقة ولكل أمر قدر لا مفر عنه ولا وزر فوجه إليها خاطباً فقـال: ائـت الـزبا فاذكـر لها ما يرغبها وتصبو إليه فجاءها خطيبه فلما سمعت كلامه وعرفـت مـراده قالـت لــه: أنعم بك عيناً وبما جئت به ولـه وأظهرت لـه السرور به

والرغبة فيه وأكرمت مقدمه ورفعت موضعه وقالت: قد كنت أضربت عن هذا الأمر خوفاً أن لا أجد كفؤاً والملك فوق قدرى وأنا دون قدره وقد أجبت إلى ما سأل ورغبت فيما قال ولو أن السعى فى مثل هذا الأمر ليس إلا للرجال لسرت إليه ونزلت عليه ثم أهدت له هدية مثمنة ساقت بها العبيد والإماء والكراع والسلاح والأموال والإبل والغنم وحملت من الثياب والعين والورق فلما رجع عليه خطيبه أعجبه ما سمع من الجواب وأبهجه ما رأى من اللطف وظن أن ذلك لحصول رغبتها فأعجبته نفسه وسار من فوره فيمن يثق به من خاصته وأهل مملكته ومنهم قصير خازنه واستخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عدى وهو أول ملوك الحيرة من لخم وكان ملكه عشرين سنة وهو الذى اختطفته الجن وهو صبى وردته وقد شب فقالت أمه: ألبسوه الطوق فقال خاله جذيمة: شب عمرو عن الطوق فذهب مثلا فاستخلفه وسار إلى الزبا فلما صار قريباً منها نزل وأكل وشرب واستعاد المشورة والرأى على أصحابه فسكت القوم وافتتح الكلام قصير بن سعد فقال: أيها الملك كل عزم لا يؤيد بحزم لا تثق بزخرف قول لا محصول له ولا تعقد الرأى بالهوى فيفسد ولا يأتى بخير ولا الحزم بالمنى فيبعد والرأى عندى للملك أن يعتقب أمره بالتثبت ويأخذ حذره بالتيقظ ولولا أن الأمور تجرى بالمقدور لعزمت على الملك عزماً ثابتاً أن لا يفعل فأقبل جذيمة على الجماعة فقال: ما عندكم أنتم في ذلك فصوبوا رأيه وقووا عزمه؟ فقال جذيمة: الرأي مع الجماعة والصواب رأيتم فقال قصير: أرى القدر يسابق الحذر ولا يطاع لقصير أمر فأرسلها مثلا وسار جذيمة فلما قرب من دار الزبا نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه فرحبت وقربت وأظهرت السرور به والرغبة فيه وأمرت أن يحمل إليه الأنزال والعلوفات وقالت لجندها وخاصة أهل مملكتها وعامة أهل دولتها ورعيتها تلقوا سيدكم وملك دولتكم وعاد الرسول إليه بما رأي وسمع فلما أراد جذيمة أن يسير دعا قصيراً فقال: أنت على رأيك؟ قال: نعم قد زادت بصيرتي فيه وقال: ليست الأمور لصاحب من لم ينظر في العواقب وقد يستدرك الأمر قبل فوته وفي يدي الملك بقية هو بها مسلط على استدراك الصواب فإنك وثقت بأنك ذو ملك وسلطان وعشيرة ومكان فإنك فإنك قد نزعت يدك من سلطانك وفارقت عشيرتك

ومكـانك وألقيـتها في يـد مـن لسـت آمـن عليك مكره وقدره فإن كنت ولا بد فاعلا ولهـواك تابعـاً فـإن القـوم إن تلقـوك غـدا فرقا وساروا أمامك وجاء قوم وذهب قوم فالأمـر في يـدك والأمـر فـيه إليك وإن تلقوك رزماً واحداً وقاموا لك صفين حتى إذا توسـطتهم انقضـوا إليك من كل جانب فأحدقوا بك فقد ملكوك وصرت في قبضتهم وهـذه العصا لا يشق غبارها وكانت لجذيمة فرس تسبق الطير وتجاري الريح يقال لها: العصـا فإذا كان كذلك فتجلل ظهرها فهي ناجية بك إن ملكت ناصيتها فسمع جذيمة كلامـه ولم يـرد جوابـاً وسار وكانت الزبا لما علمت بقدومة ورجوع رسول جذيمة من عـندها قالت لجندها غداً فتلقوه بأجمعكم وقوموا لـه صفين عن يمينه وعن شماله فإذا توسـط جمعكـم فانقضـوا عليه من كل جانب حتى تحدقوا به وإياكم أن يفوتكم وسار جذيمـة وقصـير عـن يميـنه فلما لقيه القوم تجمعوا زردقاً واحداً وقاموا لـه صفين فلما توسـطهم انقضـوا علـيه مـن كـل جانب انقضاض الأجدال على فريسته وأحدقوا به وعـلموا أنهـم قد ملكوه وكان قصير يسايره فأقبل عليه وقال: صدقت يا قصير فقال: أيهـا الملك أبطأت بالجواب حتى فات الصواب فأرسله مثلا فقال: كيف الرأي الآن. فقـال: هذه العصا فدونكها لعلك تنجو بها فأنف جذيمة من ذلك وسارت به الجيوش فـلما رأى قصير أن جذيمة قد استسلم للأسر وأيقن للقتل جمع نفسه وصار على ظهر العصا وأعطاها عنانها وزجرها فذهبت به هوى الريح فنظر إليه جذيمة وهو يتطاول به وأشرفت الزبا من قصرها فقالت: ما أحسنك من عروس تتجلى عليَّ وتزف إليَّ حتى دخلـوا بـه عـلى الـزبا ولم يكن معها في قصرها إلا جوار أبكار أتراب وكانت جالسة عـلى سريرها وحولها ألف وصيفة كل واحدة لا تشبه صاحبتها في خلق ولا زي فهي بينهن كأنها قمر قد حفت به النجوم يزهو فأمرت بالأنطاع فبسطت وقالت لوصائفها: خذوا بيد سيدكن وبعل مولاتكن فأخذن بيده فأجلسنه على الأنطاع بحيث تراه ويراها وتسـمع كلامـه ويسمع كلامها ثم أمرت الجواري يقطعن رواهشه ووضعت الطشت تحـت يديـه فجعلـت دمـاؤه تشـخب في الطشـت فقطـرت قطـرة عـلى النطع فقالت لجواريهـا: لا تضيعوا دم الملك فقال: جذيمة لا يحزنك دم أراقه أهله فلما مات قالت: والله مـا وفّـى دمـك ولا شـفا قـتلك ولكنه غيض من فيض ثم أمرت به فدفن وكان

جذيمة قد استخلف على مملكته ابن أخته عمرو بن عدى وكان يخرج كل يوم إلى ظهر الحيرة يطلب الخبر ويقتفى الأثر من خاله فخرج ذات يوم فنظر إلى فارس قد أقبل يهوى به فرسه هوى الريح فقال: أما الفرس ففرس جذيمة وأما الراكب فكالبهيمة لأمر ما جاءت العصا فأشرف عليهم قصير فقالوا: ما وراءك؟ قال: سعى القدر بالملك إلى الحتف عن رغم أنفى وأنفه فاطلب بثأرك من الزبا فقال عمرو: أى ثأر يطلب من الزبا وهى أمنع من عقاب الجو؟ قال قصير: قد علمت نصحى كان لخالك وكان الأجل رائده وإنى والله لا أنام عن الطلب بدمه ما لاح نجم وطلعت شمس أو أدرك به ثأراً أو تخترم نفسى فأعذر ثم إنه عمد إلى أنفه فجدعه ثم لحق بالزبا هارباً من عمرو بن عدى فقيل لها: هذا قصير ابن عم جذيمة وخازنه وصاحب أمره قد جاءك فأذنت له فقالت: ما الذي جاء بك إلينا يا قصير وبيننا وبينك دم عظيم الخطر فقال: يا ابنة الملوك العظام لقد أتيت فيما يؤتى مثلك فى مثله ولقد كان دم الملك يطلبه حتى أدركه وقد جئتك مستجيراً بك من عمرو بن عدى اتهمنى بخاله ومشورتى عليه والمسير إليك بجدع أنفى وأخذ مالى وحال بينى وبين عيالى وتهددنى بالقتل وإنى خشيته على نفسى فهربت منه إليك مستجيراً بك ومستندا إلى كهف عزمك فقالت: أهلا وسهلاً لك حق الجوار وذمة المستجير وأمرت به فأنزل وأجرت له الأنزال وأوصلته وكسته وأخدمته وزادت فى الإكرام ثم إنه قام مدة لا يكلمها ولا تكلمه وهو يطلب الحيلة عليها وموضع الفرصة منها وكانت ممنعة بقصر مشيد على باب النفق تعتصم به فلا يقدر أحد عليها فقال لها: قصير يوماً إن لى بالعراق مالاً كثيراً وذخائر نفيسة ما تصلح إلا للملوك فإن أذنت لى بالخروج إلى العراق وأعطيتنى شيئاً أتعلل به في التجارة وأجعله سبباً إلى الوصول إلى مالى أتيتك بما قدرت عليه من ذلك فأذنت له وأعطته مالا فقدم العراق وبلاد كسرى فأطرفها من طرائفه وزادها مالا إلى مالها كثيراً وقدم عليها به فأعجبها ذلك وسرها وتربت له عندها منزلة وعاد إلى العراق ثانية فقدم بأكثر من ذلك طرفاً من الجوهر والبز والخز والديباج فازداد مكانه ومنزلته عندها ورغبتها فيه ولم يزل قصير يتلطف حتى عرف موضع النفق الذى تحت الفرات والطريق إليه ثم رجع ثالثة فقدم بأكثر من الأولتين طرائف ولطائف فبلغ

مكانه منها وموضعه عندها إلى أن كانت تستعين به فى مهمها وملمها واسترسلت إليه وعولت فى أمورها عليه وكان قصير رجلا حسن العقل والوجه لبيباً أديباً فقالت له يوماً: إنى أريد أن أغزو البلد الفلانى من أرض الشام فاخرج إلى العراق فائتني بكذا وكذا من الكراع والسلاح والعبيد والثياب فقال قصير: ولى فى بلاد عمرو بن عدى ألف بعير وخزانة من السلاح فيها كذا وكذا وما يعلم عمرو بها ولو علمها لأخذها واستعان بها على حربك وكنت أتربص به المنون فأنا أخرج متنكراً من حيث لا يعلم فآتيك بها مع الذى سألت فأعطته من المال ما أراد وقالت: يَا قصير الملك يصلح بمثلك وعلى يد مثلك يصلح أمره ولقد بلغنى أن أمر جذيمة كان إيراده وإصداره إليك ما تقصر يدك عن شيء تناوله يدى ولما رأى قصير مكانه منها وتمكنه من قلبها قال: الآن صاب المصاع فخرج من عندها فأتى عمرو بن عدى فقال: قد أصبت الفرصة من الزبا فانهض فعجل الوثبة فقال له عمرو: قل ومر أفعل فأنت طبيب هذه الفرحة فقال: الرجال والأموال قال: حكمك فيها مسلط فعمد إلى ألفى بعير وأتى بالرجال فألبسهم السلاح والسيوف والحجب وأنزلهم فى الغرائر السود وجعل على رؤوسهم المسوح من أسافلها مربوطة من داخل وكان عمرو فيهم وساق الخيل والعبيد والكراع والسلاح والإبل محملة فجاءها البشير فقال: قد جاء قصير ولما قرب المدينة حمل الرجال فى الغرائر متسلحين السيوف والحجب وقال: إذا توسطت الإبل المدينة فالإشارة بيننا كذا وكذا فاخترطوا الربط فلما قربت العير من مدينة الزبا كانت الزبا فى قصرها فرأت الإبل تتهادى بأحمالها فارتابت وقد كان وُشى بقصير إليها وحذرت منه وقالت للواشى به إليها: إن قصير اليوم منا وهو ربيب هذه النعمة رضيع هذه الدولة وإنما يبعثكم على ذلك الحسد وأن ليس فيكم مثله فلما قدم ورأت من كثرة الإبل وعظم أحمالها فى نفسها مع ما عندها من قول الواشى به إليها فقالت :

أرى الجمال مشيها وئيداً ::: أجندلاً يحملن أم حديدا
أم صرفاناً بادا شديداً ::: أم الرجال فى المسوح السودا

ثم أقبلت على جواريها فقالت: أرى الموت الأحمر فى الغرائر السود فذهبت مثلا حتى إذا توسطت الإبل المدينة وتكاملت القوم لهم الإمارة فاخترطوا رؤوس الغرائر

فسقط إلى الأرض ألفا ذراع بألفى باتر يقولون: يال ثارت القتيل غدراً وخرجت الزبا تريد تصنع النفق فسبقها إليه قصير فحال بينها وبينه وأدركها عمرو فلما رأت أن قد أحيط بها التقمت خاتماً فى يدها تحت فصه سم ساعة فقالت: بيدى لا بيدك يا عمرو فأدركها عمرو وقصير فضرباها بالسيف حتى هلكت وملكوا مملكتها على نعمتها وخط قصير على قبر جذيمة وضرب عليه فسطاطاً وكتب على قبره:

ملك تمنع بالعساكر والقنا ::: والمشرفية عزة ما توصف
فسعت منيته إلى أعدائه ::: وهو المتوج بالحسام المرهف

(روى أن امرأة) أتت إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قالت: يا أمير المؤمنين إن زوجى يصوم النهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله فقال لها: أى نعم الزوج زوجك فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب فقال له كعب الأسدى: يا أمير المؤمنين هذه المرأة تشكو زوجها فى مباعدته إياها عن فراشه فقال له عمر: كما فهمت فاقض بينهما فقال كعب: علىَّ بزوجها فأتى به فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك قال: أفى طعام؟ قال: لا قال: أفى شراب؟ قال: لا فقالت المرأة :

يا أيها القاضى الحكيم رشده ::: ألهى خليلى عن فراشى سجده
زهده فى مضجعى تعبده ::: نهاره وليله ما يرقده

ولست فى أمر النساء أحمده

فقال زوجها:

زهدنى فى فرشها وفى الحجل ::: أنى امرؤ أذهلنى ما قد نزل
فى سورة النمل وفى السبع الطول ::: وفى كتاب الله تخويف جلل

فقال كعب:

إن لها حقا عليك يا رجل ::: تصيبها فى أربع لمن عقل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله عز وجل أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن ربك ولها يوم وليلة فقال عمر: ما أدرى أى أمريك أعجب من

فهمك أمرهما أم من حكمك بينهما اذهب فقد وليتك قضاء البصرة انتهى .

(**قـــال المفضـــل**): دخلـت على الرشيد وبين يديه طبق ورد وعنده جارية مليحة شـاعرة أديـبة قـد أهديـت إليه فقال: يا مفضل قل فى هذا الورد شيئاً يشبهه فأنشأت أقول:

كأنـــه خـــد مـــرموق يقـــبله ::: فـــم الحبيـــب فقـــد أبـــدى به خجلا

فقالت الجارية :

كأنـــه لـــون خـــدى حـــين يدفعـــنى ::: كـــف الرشـــيد لأمـــر يوجب الغسلا

فقال: يا مفضل قم فاخرج فإن هذه الجارية قد هيجتنا فقمت وأرخيت الستور دونى .

(**قـــال الأصـــمعى**): كنت عند أمير المؤمنين أنشد إذ دخل عليه رجل معه جارية للبيع فتأملـها الرشـيد ثـم قـال: خذ بيد جاريتك فلولا كلف فى وجهها وخلس فى أنفهـا لاشـتريتها فـانطلق بهـا فـلما بلغـت المسير قالت: يا أمير المؤمنين ارددنى إليك أنشدك بيتين حضرانى فردها فأنشأت تقول:

مـــا ســـلم الظـــبى عـــلى حســـنه ::: كـــلا ولا الـــبدر الـــذى يوصـــف
الظـــبى فـــيه خلـــس بـــين ::: والـــبدر فـــيه نكـــتة تعـــرف

فأعجبته بلاغتها فاشتراها وقرب منزلها فكانت أحظى جواريه عنده .

(**ونظير هذه الحكاية**): مـا رواه الصفدى فى تاريخه عن أبى الفرج الأصفهانى فى الأغانى قال: كانت بنان جارية المعتمد مغنية حسنة الغناء شاعرة عرضت على المعتمد على الله فامتحنها فى الغناء والكتابة فرضى بما ظهر لـه من أمرها ثم قال لابن حمدون ماتنها فقال:

وهبت نفسى للهوى

فقالت غير متوقفة : فجار لما أن ملك

فقال:

فصـــرت عـــبدا خاضـــعاً فقالـــت ::: ســـــلك بى حيـــــث ســـــلك

فأمر المعتمد بشرائها فأبيعت بثلاثين ألف درهم .

(روى أن أبـــا نـــواس) حضـر يوماً عند زهير بن المسيب صاحب شرطة الرشيد فأخرج لـه جارية من جواريه شاعرة يقال لها: مجيبة وسأله أن يمتحنها فقال:

للحسـن فـيها صـنيع * لــه القلـوب تريع * فما إليها سبيل * ولا لديها شفيع فقالت الجارية مجيبة لـه:

أبو نواس خليع * لـه أقر الجميع * وواحد الناس طرا * لـه الكلام البديع .

(حكى أن أعرابياً) بعـث غلاماً إلى امرأة يواعدها موضعا يأتيها فيه فذهب الغلام وأبلغهـا الرسـالة فكرهت المرأة أن تقر للغلام بما بينهما فقالت لـه: والله لئن أخذتك لأعـركن أذنـك عـركة تـبكى مـنها وتسـتند إلى تحت الشجرة ويغشى عليك إلى وقت العـتمة فـلم يعرف الغلام معنى هذا الكلام وانصرف إلى صاحبه وحكى لـه الحديث فعلم أنها قد واعدته تحت الشجرة وقت العتمة .

(قال الجاحظ): رأيـت جارية ببغداد فقلت لها: ما اسمك؟ فقالت: مكة قلت: الله أكـبر قـد قرب الله الحج ، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود؟ قالت: إليك عنى ألم تسمع أن الله يقول: ﴿ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ [النحل: ٧] .

(قال الفضل بن إبراهيم): مر شاعر بنسوة فأعجبه شأنهن .

فأنشأ يقول:

إن النســـاء شـــياطين خلقـــن لـــنا ::: نعـــوذ بـــالله مـــن شـــر الشـــياطين

قال فأجابته واحدة منهن:

إن النســـاء ريـــاحين خلقـــن لكـــم ::: وكلكـــم يشـــتهى شـــم الـــرياحين

(وسئل أعرابى) عـن النسـاء وكان ذا تجربة وعلم بهن فقال: أفضل النساء أطولهن إذا قامـت . وأعظمهـن إذا قعـدت . وأصـدقهن إذا قالت . إذا غضبت حلمت . وإذا ضحكت تبسمت . وإذا صنعت شيئاً جودت . التى تطيع زوجها وتلزم بيتها . العزيزة فى قومها . الذليلة فى نفسها؟ الودود الولود . وكل أمرها محمود .

(روى أن بعض العرب) اتهمـته زوجـته بجارية ليلاً فأنكر فقالت: بلى وقد رأيتك

بعينى فلح فى الإنكار فأمرته أن يقرأ من القرآن ما تستدل به على صدقه فقال:

شهدت بأن وعد الله حق ::: وأن النار مثوى الكافرين
وأن العرش فوق الماء طاف ::: وفوق العرش رب العالمين
وتحمله ملائكة شداد ::: ملائكة الإله مسومين

فلم تشك أنه من القرآن وصدقته (ونظيرها ما ذكر ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء) قال: كان عبد الله بن رواحة مضطجعاً إلى جنب امرأته فخرج إلى بعض الحجر فواقع جارية له فانتبهت المرأة من نومها فلم تجده إلى جنبها فإذا هو مع الجارية فأخذت حديدة فالتفتت إليه فلقيته راجعاً فقالت: أما إنى لو وجدتك حيث كنت لفجرت بها بطنك فقال لها: ولم ذلك؟ فقالت: لأنك كنت مع جاريتك فأنكر ذلك فقالت: بلى وقد رأيتك بعينى فلحَّ فى الإنكار فقالت له: فإن رسول الله ﷺ نهى الجنب عن قراءة القرآن فاقرأ إذاً منه ما أعلم به صدقك فقال عبد الله عند ذلك:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ::: كما انشق مشهور من الصبح ساطع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا ::: موقنات أن ما قال واقع
وبات يجافى جنبه عن فراشه ::: إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

قال: فلما سمعت قوله قالت: آمنت بالله وكذبت بصرى قال عبد الله: فغدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك فضحك حتى بدت نواجذه (قال نافع ورأته مرة أخرى) وقد علاها فقالت له فى ذلك فقال: سبحان الله قالت: اقرأ علىّ إذا قال:

شهدت بإذن الله أن محمداً ::: رسول الذى فوق السموات من عل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما ::: له عمل من ربه متقبل

(**روى أن رجلا من تميم**) كانت له ابنة جميلة وكان غيوراً فابتنى لها فى داره صومعة وجعلها فيها وزوجها من أكفائها من بنى عمها وأن فتى من كنانة مر بالصومعة فنظر إليها ونظرت إليه فاشتد كل واحد منهما بصاحبه ولم يمكنه الوصول إليها وأنه افتعل بيتاً من الشعر ودعا غلاماً من الحى فعلمه البيت وقال له: ادخل هذه الدار وأنشد كأنك لاعب ولا ترفع رأسك ولا تصوبه ولا تومئ فى ذلك إلى أحد ففعل الغلام ما أمر به وكان زوج الجارية قد أزمع على سفر بعيد يوم أو يومين فأنشأ الغلام يقول:

لحى الله من يلحى على الحب أهله ::: ومن يمنع النفس اللجوج هواها

قال: فسمعت الجارية ففهمت فقالت:

ألا إن بين الجمع والتفرق ليلة ::: ويوم وتعطى كل نفس مناها

قال: فسمعت الأم ففهمت فأنشأت تقول:

ألا إنما يعنون ناقة رحلكم ::: فمن كان ذا نوق لديه رعاها

قال: فسمع الأب ففهم فأنشأ يقول:

وأنا سنرعاها ونوثق قيدها ::: ونطرد عنها كل وحش أتاها

قال: فسمع الزوج ففهم فأنشأ يقول:

سمعت الذى قلتم فهـا أنا مطلق ::: فتاتكم مهجورة لبلاها

قال: فطلقها الزوج وخطبها ذلك الفتى وأرغبهم فى المهر فتزوجها (قيل: كانت هند بنت الحسن تحاجى الرجال فمر بها رجل فسألته المحاجات فقال لها: كاد . فقالت: كاد العروس أن يكون أميراً فقال: كاد . فقالت: كاد المستعل أن يكون راكباً فقال: كاد . فقالت: كاد الفقر أن يكون كفراً . فقال: كاد ، فقالت: كاد البخيل أن يكون كلباً ثم حاجاها فقالت له: عجبت فقال: عجبت للحجارة لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها فقالت: عجبت . فقال: عجبت لنقرة بين فخديك لا يمل حفرها ولا يدرك قعرها فخجلت وانقطعت (قال ابن السيرافى) عن ابن قطامى كان شن رجل من دهاة العرب فقال: والله لأطرقن حتى أجد امرأة مثلى فأتزوجها فسار حتى لقى رجلا يريد قرية يريدها شن فصحبه فلما انطلقا قال له شن: أتحملنى أو أحملك؟ فقال الرجل: يا جاهل كيف يحمل الراكب الراكب؟ فسارا حتى رأيا زرعا قد استحصد قال شن: أترى هذا الزرع قد أكل أم لا؟ فقال: يا جاهل أما تراه قائماً فاستقبلتهما جنازة فقال: أترى صاحبها حياً أو ميتاً؟ فقال: ما رأيت أجهل منك أتراهم حملوا إلى القبور حياً؟ ثم صار به الرجل إلى منزله وكانت له ابنة يقال لها: طبقة فقص عليها قصته فقالت: أما قوله: تحملنى أو أحملك فإنه أراد تحدثنى أم أحدثك حتى نقطع طريقنا وأما قوله: أترى هذا الزرع أكل أم لا فإنه أراد أباعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا ، وأما قوله فى الميت فإنه أراد ترك عقباً يحيى به ذكره أم لا فخرج الرجل فحادثه ثم أخبره بقول ابنته

فخطبها إليه فزوجه إياها فحملها إلى أهله فلما عرفوا عقلها ودهاها قالوا: وافق شن طبقه .

(وروى) أن امرأة جلست على باب دكان بزاز عزب إلى أن أمست فلما أراد غلق الدكان تراءت له فقال لها: ما هذا المساء؟ فقالت: والله ما لى مكان أبيت فقال: تمضين معى إلى البيت؟ فقالت: نعم فمضى بها إلى بيته وعرض عليها التزويج فأجابت فتزوجها وبقيت عنده أياماً وإذا قد جاء فى اليوم الرابع رجل ومعه نسوة فطلبوها فأدخلهم وأكرمهم وقال: من أنتم منها؟ فقالوا: أقاربها ابن عم وبنات عم وقد سررنا بما سمعنا من الوصلة غير أنا نسألك أن تتركها تزورنا لعرس بعض أقاربها فدخل إليها فقالت: لا تجبهم إلى ذلك وأحلف بطلاقى أنك لا أخرجتنى من دارك شهراً ليمضى زمن العرس فإنه أصلح لى ولك وإلا أخذونى وأفسدوا قلبى عليك فإننى كنت غضبى وتزوجت بغير مشورتهم ولا أدرى من قد دلهم إليك وقد علق قلبه بالمرأة فخرج وحلف كما ذكرت له فخرجوا ميؤوسين وأغلق الباب وخرج إلى الدكان فخرجت وراءه ولم تستصحب من الدار شيئاً فجاء فلم يجدها فقال: ترى ما الذى قصدت؟ قال أبو الوفاء بن عقيل: لعلها مستحلة به لأجل زوج طلقها ثلاثا فليتخوف الإنسان من مثل هذا وليطلع به على غوامض حيل النساء .

(**عرض**) على رجل جاريتان: بكر وثيب فمال إلى البكر فقالت الثيب: لم رغبت فيها دونى وما بينى وبينها إلا يوم؟ فقالت البكر: وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون فأعجبتاه فاشتراهما .

(**روى مؤدب المسترشد**) عن بعض التجارالمسافرين قال: كنا نجتمع من بلاد شتى فى جامع عمرو بن العاص فنتحدث ، فبينما نحن جلوس يوماً وإذا امرأة بقربنا تبكى فى أصل السارية فقال لها رجل من التجار البغداديين: ما شأنك؟ فقالت: امرأة وحيدة غاب عنى زوجى منذ أكثر من عشرين سنة ولم أسمع له خبراً فقصدت القاضى ليزوجنى فامتنع ، وما ترك لى زوجى نفقة وأريد رجلا غريباً يشهد لى هو وأصحابه أن زوجى مات أو طلقنى لأتزوج أويقول: أنا زوجها ويطلقنى عند القاضى لأصبر مدة العدة ، فقال لها الرجل: تعطينى دينارين حتى أسير معك إلى القاضى

وأذكر لـه أنـى زوجـك وأطلقـك فبكت وقالت: والله ما أملك غير هذه وأخرجت أربعة رباعيات فأخذها منها ومضى معها وأبطأ علينا فلما كان من الغداة لقيناه فقلنا: مـا أبطـأ بـك عنا؟ فقال: دعونى فإنى حصلت فى أمر ذكره فضيحة قلنا: أخبرنا قال: سـرت معهـا إلى القاضـى وادعت علىَّ الزوجية والغيبة عشر سنين وسألت أن أخلى سـبيلها فصـدقتها على ذلك فقال لها القاضى: أتبرينه؟ قالت: لا والله لى عليه صداق ونفقـة عشر سنين وأنا مطالبة بذلك فقال: ادفع إليها حقها ولك الخيار فى طلاقها أو إمسـاكها فـورد عـلىَّ ما أبلسنى ولم أتجاسر أن أحكى صورتى معها فلا أصدق فتقدم القاضـى بتسـليمى إلى صـاحب الشـرطة وتقـرر الأمـر على عشرة دنانير أخذتها منى وغرمـت للوكـلاء وأعـوان القاضـى الأربع أرباعيات ومثلها من عندى فضحكنا منه وخرجنا من مصر فلم نعرف لها خبراً .

(**روى الشـــريف محمـــد بن عبد العزيز**) الإدريسى عن أبيه قال: كنا أنا والرشيد والفقـيه سـليمان الديمـى نجتمع بالقاهرة فى منزلـه فغاب عنا الرشيد يوماً وكان ذلك فى عنفوان شبابه فجاءنا وقد مضى معظم النهار فقلنا: ما أبطأ بك عنا؟ فتبسم وقال: لا تسـألوا عمـا جـرى فقلـنا: لابـد وألححنا عليه فقال: مررت اليوم بالموضع الفلانى وإذا امـرأة شـابة صـبيحة الوجه وضيئة المنظر حسنة الخلق ظريفة الشمائل فلما رأتنى نظـرت إلىَّ نظـر مطمـع لى فـى نفسـها فتوهمت أنى وقعت منها بموقع ونسيت نفسى وأشـارت إلىَّ بطرفها فتبعتها وهى تدخل من سكة وتخرج من أخرى حتى دخلت داراً وأشارت إلىَّ فدخلت ورفعت النقاب عن وجه كالقمر فى ليلة تمامه ثم صفقت بيديها منادية يا ست الدار فنزلت إليها طفلة كأنها فلقة قمر فقالت لها: إن رجعت تبولين فى الفـراش سـيدنا القاضـى يأكلك ، ثم التفتت إلىَّ وقالت : لا عدمني الله تفضل سيدنا القاضي أدام الله عزه فخرجت وأنا خزيان خجل لا أهتدى الطريق .

(**ونظـــيره فى محاســـن الغرر ومساوى العرر**) عن الجاحظ قال: كان دميم الصورة قبيح الوجه جاحظ العينين يحكى عنه أنه قال: ما أخجلنى قط إلا امرأة أخذت بيدى وأتـت بـى إلى نجار وقالت: مثل هذا ثم تركتنى ومضيت فبقيت متعجباً من أخذها لى مـثالا فسـألت الـنجار بعد ذلك فقال: إن هذه المرأة سألتنى أن أصنع لها مثال شيطان

تفزع به ولدها فطلبت منها مثالا فجاءتنى بك .

(**روى أن رجلا**) أودع رجلا مالا فلما تقاضاه جحده فقالت لـه امرأته: إنى ذاهبة إلى منزلـه فإذا استقر جلوسى فتعال واطرق الباب وطالبه بمالك ثم أخذت حلياً كثيراً وثياباً فاخرة تساوى مالا عظيما فجاءت هى وجاريتها إلى الرجل فدخلت فقالت: إنى أريـد أن أودعك وديعة لما بلغنى من صلاحك قال: أورينى ما تودعينى فجعلت تخرج الجواهـر الثميـنة والحـلى الكـثير والثـياب الرائعة وإذا بالرجل قد طرق الباب فدخل فطالـبه بالوديعـة فقال الرجل لـه : لقد كنت على انتظارك ، فإن لي مدة ما رأيتك ثم أخرج ماله فدفعه إليه فأخذه ومضى فقالت الجارية لسيدتها: بالله يا سيدتى ما علمت أن غـدا عـرس فلانـة وتحـتاجين أن تلبسـي هذه الثياب وهذا الحلى فإذا انقضى غداً العرس جئنا بالحلى إليه ثم نهضتا ومعهما جميع ما جاءتا به وسلم بذلك مال الرجل .

(**روى أن امــرأة**) كـان لهـا عشيق فحلف عليها إن لم تحتالى حتى أطأك بمنظر من زوجـك لم أكـلمك فوعدتـه أن تفعل ذلك فجعلته عندها يوما وكانت فى دارهم نخلة طويلة فقالت للزوج: أشتهى أصعد هذه النخلة فأجتنى منها رطباً بيدى فقال: اصنعى فلما صارت فى رأس النخلة أشرفت على زوجها فقالت: يا فاعل من هذه المرأة التى معك ويلك أما تستحى من الله تجامعها بحضرتى؟ وأخذت تشتمه وتصيح وهو يحلف أنـه وحده وما معه أحد فنزلت وأخذت تخاصمه فحلف بطلاقها إنه ما كان إلا وحده وقـال لها: اقعدى حتى أصعد أنا فصعد فلما صار فى رأس النخلة استدعت صاحبها فوطـئها فـاطلع الزوج فرأى ذلك فقال لها: جعلت فداك لا يكون فى نفسك شيء مما قذفتينى به فإن كل من يصعد هذه النخلة يرى مثل ما رأيت . انتهى .

(**قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى**) قـال لى ابن أبى وهب: والله لأحدثنك بحديث ما فتق سمعك أعجب منه قلت: وما ذاك؟ قال: بينما أنا بسوق الليل بمكة أيام الموسم وإذا أنـا بامـرأة من نساء مكة معها صبى يبكى وهى تسكته فأبى أن يسكت فأسفرت عـن وجههـا وأخرجـت مـن فمها كسر درهم ودفعته إلى الصبى فسكت فإذا لها وجه رقـيق كأنه قمر وثنايا كالدرر ولسان عذب فلما رأتنى أحدُّ النظر إليها قالت: اتبعنى ، قلـت: بشـرط الحـلال قالت: ومن يريد لك حراماً فخجلت من قولها فغلبت الشهوة

العقل فتبعتها فدخلت زقاق العطارين وصعدت درجة هنالك وقالت: اصعد فصعدت فلما صرت فى مكانها قالت: إنى امرأة مشغولة بزوج ولكن عندى امراة صبية لها هن ضيق ووجه أحسن من العافية بخلق ابن شريح وترنم معبد وتيه ابن عائشة وحنث طوبس أجمع لك هذا بأصفر سليم قلت: وما أصفر سليم؟ قالت: دينار واحد فى يومك وليلتك فإن أقمت جعل الدينار تزويجاً صحيحاً قلت لها: ذاك عندى إن كان ما ذكرت صحيحاً فليس هذه صفة الدنيا بل صفة الجنة فأين هى؟ فصفقت بيدها إلى جارية فأجابتها فقالت: قولى لفلانة البسى عليك ثيابك وعجلى ولا تمسى طيباً فحسبك بدلالك وعطرك فإذا أنا بجارية ما حسبت إلا أن الشمس علىَّ قد طلعت كأنها صورة تمثال فسلمت وقعدت كالخجلة فقالت لها الأولى: إن هذا الذى ذكرت لك وهو فى الهيئة التى ترين فقالت: حياه الله وقرب داره قالت: وقد بذل لك من الصداق ديناراً قالت: هل أخبرتيه بشريطتى؟ قالت: لا والله لقد نسيتها ثم نظرت إلىَّ وغمزتنى وقالت: أتدرى ما شريطتها أكلمك بحضرتها وهو شىء ما أخالك تكرهه منها قلت: وما ذاك؟ قالت: إنها أفتك من عمرو بن معدى كرب وأشجع من عنترة ابن عمرو بن شداد وربيعة بن مكرم ولست تصل إليها حتى تسكر ويغلب على عقلها السكر فإذا بلغت تلك الحال ففيها المطمع للرجال فقال: ما أهون هذا علىَّ وأشهاه إلىَّ وقالت الجارية: تركت له شرطا آخر قالت: نعم إنك لا تقدر عليها أيضاً إلا أن تتجرد من ثيابك وتراك فى المجلس مقبلا ومدبراً قلت: وهذا أيضاً هين ، فقالت: هلم الدينار فأخرجت ديناراً فنقدته إليها فصفقت بيدها الأولى تصفيقة أخرى وقالت لها: امض إلى أبى الحسن وأبى الحسين وقولى لهما: هلما الساعة فقلت فى نفسى: ليت شعرى من هما فإذا أنا بشيخين نظيفين قد أقبلا وقعدا: فقصصت عليهما القصة فخطب أحدهما وأجاز الآخر وأقرت بالتزويج وأقررت المرأة بالرضى ودعوا لنا بالبركة وخرجا فاستقبحت أن أجعل مؤنة المرأة من الدينار فدفعت إليها ديناراً واحداً آخر وقلت لها: هذا لطيبك فقالت: يا فتى لست ممن يمس الطيب لرجل إنما أتطيب لنفسى قلت: فاجعليه لغذائنا قالت: أما هذا فنعم وخرجت من عندهم ومضيت وأمرت بإصلاح ما يحتاج إليه ثم عدت إليهم فأتوا بطعام فتغدينا وأتو

بشراب يسرى فى عروق الشارب كما يسرى السم فى الملدوغ واندفعت تغنى بصوت ما سمعته قط ولا سمعت ترنما مثل ترنمها ولقد ألفت بيوت القيان والمقامات فى الشراب فما رأيت جارية حديثة السن أظرف منها وكلما رمت القيام إليها امتنعت فتأبى علىَّ إلى أن غنت شعراً لم أعرف معناه وهى تقول :

رامــــوا يصـــــيدن الظـــباء وإنـــــى ::: لأرى تصـــــيدها عـــــلىَّ حـــــراما

أعـــزز عـــلى ثـــان أروع ســـر بهـــا ::: أو أن تـــذوق عـــلى لـــدى حمامـــا

فقلت لها: جعلت فداك من غنى بهذا؟ قالت: اشترك فيه جماعة معبد وابن شريح وابن عائشة ويقال: إنه لمجنون بنى عامر فلما قوى علىَّ الشراب وحان المغرب غنت بيتاً لم أعرف معناه للشقاء الذى أعد لى وكتب علىَّ وهى تقول:

كـــأنى بالمجـــرد قـــد علـــته ::: يقـــال القـــوم والحســـب الصـــوارى

فقلت لها: جعلت فداك هذا بيت لا أخ لـه قالت: بلى معه أخ وهو آخر ما أتغنى بـه هـذه الليلة قـال: فبقيت لا أنازعهـا فـى شـيء إجلالا لها وتعظيما فلما أمسيت وصليت العشـاء الأخيرة ولم أعلم مـا صليت مـن الشوق إليها فلما سلمت قلت: أتـأذنى لى جعلـت فـداك بالدنو منك قالت: تجرد ، وذهبت أيضاً كأنها تريد أن تتجرد فكدت أشق ثيابى عجلة للخروج منها فتجردت وقمت بين يديها فقالت لى: امض إلى تلك الزاوية وأقبل حتى أراك مقبلا ومدبرا وهناك قريب الزاوية حصر مبسوطين على خرق نافذ إلى زقاق العطارين فما هو إلا أن وضعت رجلاى عليها وقد سقطت فإذا أنـا قـائم فـى السوق وإذا الشيخان الشاهدان فبينما أنا كذلك إذا أنا بصوت من فوق البيت تغنى وتقول:

ولـــو عـــلم المجـــرد مـــا أردنـــا ::: لـــبادر بالفـــرار إلى الصـــحارى

فقلت فـى نفسـى: هذا والله البيت الذى كانت تعدنى به وهذا وقت غنائه وهو آخر ما قالت فلما كادت نفسى تطفى جاءنى رجل من أهل السوق بقطعة إزار وقال لى: بـادر بالهـرب قبل أن يدرك السلطان الخبر فتفتضح فمضيت إلى رحلى ثم سألت عـن الـدار وصاحبتها وقـالوا: هذه امرأة من ولد أبى لهب لعنه الله ولعنها وهى من أفتك خلق الله تخرج مع الحاج كل سنة ولا ينتصف منها لحسنها اهـ .

(**روى القاضـــى التنوخى**) فى كتابه أخبار المذاكرة ونشوان المحاضرة عن عبيد الله ابـن محمـد الخفاف قال: حدثنى أبى قال: حدثنى صديق لى من أولاد الجند قال: كنت مجتازاً يوماً فى الكرخ ببغداد فرأيت امرأة لم أر أحسن منها قط فوقفت أنظر إليها وإذا بها قد ولت وإذا بعجوز معها قد جاءتنى فمازحتنى عنها وقالت: تقول لك:تجيء فى دعوتـى فقلت: لا يمكننى أن أمضى مع أحد ولكن تجيء فى دعوتى أنا فقالت: لا بل تجيء أنت فحملنى فرط شهوتى لها إلى أن حصلنا فى طرف من أطراف بغداد ووافت إلى باب فدقته فقالوا: من هذا؟ فقالت: أنا صيد فحين قالت ذلك وجب قلبى فوليت فقالـت: إلى أيـن يـا فـتى مـا بدا لك منا . فقلت: خير ودخلت البيت فإذا بدار فارغة قلـيلة الآلات جداً وإذا بجارية سوداء قد جاءت بطشت وماء فغسلت وجهى ورجلى واسترحت وجاؤونى بطعام غير نظيف فأكلت منه لفرط الجوع وخرجت الجارية وإذا هى من أحسن النساء وجهاً وجاؤونى بنبيذ فجلست أشرب وهى معى فأهويت إليها فمكنتـنى مـن عـناقها فـلما تجاوزت ذلك قالت: إنى لا أدخل فى حرام واصبر حتى يجـيء مـن يزوجنى بك وجاءت المغرب وصار الوقت بين الصلاتين وإذا بالباب يدق فقالـت: ويـه ويـه فقلـت لها: ما الخبر؟ فقالت: قد جاء أخى وغلامه وإن رآك لم آمن عليك قم إلى ذلك البيت فاختبئ فيه حتى إذا ناموا جئتك فأدخلتنى بيتاً فلما حصلت فـيه زرقـت بابـه فأيقنت أنه مقفول أن ذلك لغرض كان فى ثيابى ومالى فتبت إلى الله مـن الحـرام وعاهدتـه إن خلصنى لا أدخل فى شيء من ذلك قال: وأقبلت أسمع ما يجـرى مـن خلف الباب فإذا بالداخل غلام أسود لم أر قط أهوال منه خلقة ولا أعظم وهـو يقـبل المـرأة وهـى تترشـفه ترشف عاشقة لـه وجلسا يتحدثان وجاؤوه بما أكله وشـربه ثـم جامعهـا دفعـات وقال لها فى خلال ذلك: إيش حصل اليوم؟ فقالت: ما وقـع الـيوم غـير رجل مخذول لم يكن في كمه شيء قال: وأخرجت ثيابي فسلمتها إليه فشـتمها وضربها وقال: هذا أيش؟ نحن أردنا صاحب كيس كبير فقالت: كما اتفق ولم تزل تقبل رجله وتبكى وتعتذر إليه إلى أن رضى عنها وأيقنت أنا بالهلاك وأقبلت على الدعـاء ومـا زالا يشـربان وهـو يجامعها فى خلال ذلك إلى أن عددت أنه قد جامعها عشـر دفعـات وسـكر فقالـت لـه: قـد أخـذ النبيذ منك يا سيدى قم فافرغ من هذا

الميشـوم حـتى نـتخلص مـنه فتشـهدت حينـئذ ففـتح الباب ودخل الأسود إلىَّ بسيف مسـلول فمـا زال يضـربنى مرشـحاً وأنـا أصيح فما يسمع أحد صياحى إلى أن بردت وانقطع صياحى ولم يشك الأسود فى موتى فجذبنى وطرحنى فى البئر وإذا تحتى فيها أشراف ثلاثة فصرت أنا قريباً من رأسها فوق القوم فخرج ولم يغلق الباب فقالت لـه: مـا عملـت؟ قـال: فرغت منه وأنا أسمع فنام إلى جانبها وقامت العجوز وجللتهم ولم يكـن فـى الـدار غيرهـم فـلما كـان بعد نصف الليل حملتنى حلاوة الحياة على طلب الخـلاص فقمـت فإذا البئر إلى صدرى وإذا أنا قوى فتسلقت وخرجت منها إلى البيت ووقفـت أتسـمع فلم أسمع لهم حساً إلا غطيطاً يدل على نومهم فخرجت قليلا قليلا حـتى فتحـت الـباب وخرجـت مـن الـدار وما شعروا بى فجئت إلى بيتى قبل طلوع الشـمس فقـالوا: مـا دهـاك؟ فقلـت: كنـت البارحة عند صديق لى وبكرت من عنده فلقيـنى لـص يسـتقفينى فمنعته ثيابى فأخذها وعمل بى هذا فأقمت شهوراً أعالج إلى أن عوفيت فلما خرجت وتصرفت لم يكن لى هم إلا طلب المرأة فى الطريق والأسواق فاجـتزت يومـا بالكـرخ فرأيـتها فـلم أكـلمها وعدت إلى منزلى وكنت قد غيرت زيى وطولـت لحيـتى حـتى تغـيرت لحيـتى علـيها ومشيت ويدى مكشوفة إلى ظهرى على مذهـب الخراسـانية فأيقنت الجارية بالهلاك وجئت أطلبها فصادفتها فى الموضع فحين رأتـنى العجوز أقبلت علىَّ وبدأتنى بالكلام فأجبتها بالفارسية وعلمت أنها لم تعرفنى وجئت معها فحملتنى إلى الدار بعينها وجرت القصة على الرسم الأول إلى أن قالت: قـد جـاء أخـى وغلامـه قـم لا يـراك فأقامتـنى إلى البيت بعينه فدخلته وأغلقت علىَّ ووقفـت أسمـع وكـان تحـت ثيابى سيف لطيف ماض فقال لها الأسود بعد أن وطئها خمـس عشـرة مـرة: إيـش جئـت اليوم؟ قالت: بطة سمينة خراسانى معه هميان ملئان قـال: فـأين هـو؟ قالـت: فـى وسـطه فقال: غاية فأخرجت أنا السيف ووقفت خلف الـباب أنـتظره فـأكل وشـرب حـتى سـكر وجاء فدخل فخالفت طريقه ومضى ليريد صدر البيت فصرت خلفه وضربته فى ساقه ضربة محكمة أجلسته منها وثنيتها بأخرى فما قدر أن ينهض وواليت ضربه حتى قطعته فلما برد تقدمت فحززت رأسه وفصلته عـن بدنه لتزول عنى الشبهة فى أمره ووقفت موضعى فلما أبطأ خروجه على الجارية

قالت للعجوز: قومى انظرى أيش خبره فقامت العجوز المسماة صيد تطلبه وجاءت إلى البيت وتقول: يا سيدي لم ليس تخرج؟ أين أنت؟ فما تكلمت فدخلت إلى البيت فضربتها فى ساقها أيضاً فقعدت زمنة فحين جلست جررت برجلها فأخرجتها إلى برا وقلت: مرحبا يا صيد إلى كم تصطادين ولا تصادين وقتلتها وخرجت إلى الدار وتكلمت بلسان فصيح وقد كنت أكلمهم بلسان الخراسانية فأيقنت الجارية بالهلاك ثم قلت لها: أنا الرجل الذى فعلت بى كذا وكذا قالت: فأين الأسود؟ فقلت: قتلته وهذا رأسه قالت: سألتك بالله إلا قتلتنى بعده فلا حاجة لى فى الحياة فقلت: ليس تحتاجين إلى مسألتي في هذا فإني أفعله ولكن أين الأموال وإلا عذبتك ولم أقتلك وأخرجك إلى السلطان فحصلت فى العقوبات؟ فقالت: افتح ذلك البيت وذلك البيت ففتحت أبواباً فخرج على منها أمر عظيم فقلت: الأموال وما زلت أكررها وكلما امتنعت ضربتها بالسيف إلى أن عرفتنى مواضع الدفائن وأوقفتنى على جميع ما عندها من الذخائر فقتلتها حينئذ وخرجت سحراً وقد قلعت الدفائن وأخذت منها ما أطقت حمله من فاخر ما وجدته ولم أقرب الناحية إلى الآن ولا أدرى إلى أى شيء انتهى خبر القتلى والأسود والدار فكان ما وصل إليَّ من ذلك ما قيمته ألوف دنانير كثيرة . اهـ .

(**وحكى أن هند بنت النعمان**) كانت من أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنها فأنفذ إليها يخطبها وأبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها بعد الصداق مائتى ألف درهم ودخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة وأقام بها الحجاج فى المعرة مدة طويلة ثم دخل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله ثم دخل عليها فى بعض الأيام وهى تنظر فى المرآة وتقول شعرا:

وما هند إلا مهرة عربية ::: سلالة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلا فلله درها ::: وإن ولدت بغلا فقد جاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها فأرسل إليها عبد الله بن طاهر وقال: طلقها بكلمتين ولا تزد عليها فدخل عبد الله بن طاهر على هند وقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنتى فبنتى وهذه المائتا ألف درهم التى كانت لك عنده قالت: اعلم يا ابن طاهر أنا كنا والله ما حمدنا وبنَّا فما

ندمنا وهذه المائتا ألف درهم بشارة لك لخلاصى من كلب ثقيف ثم بلغ عبد الملك بن مروان خبرها ووصف جمالها لـه فأرسل إليها يخطبها فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه: اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فاغسلوه سبعا وعفروه الثامنة بالتراب فاغسلى الإناء يحل الاستعمال فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة وكتبت إليه بعد الثناء عليه تقول: والله يا أمير المؤمنين لا أحل العقد إلا بشرط وهو أن يقود الحجاج محملى من المعرة إلى بلدك التى أنت فيها ويكون ماشياً حافياً بحالته التى كان فيها أولا فلما قرأ عبد الملك ذلك ضحك ضحكا شديداً وأنفذ إلى الحجاج يأمره بذلك فأجاب ولم يخالف وامتثل الأمر وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهيز فتجهزت فسار الحجاج فى موكبه حتى وصل بلد هند فركبت هند فى المحمل وركب حولها جواريها وخدمها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير فجعلت هند تتواعد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ثم إنها قالت للهيفاء: يا دايتى اكشفي لى المحمل فكشفته فوقع وجهها فى وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول :

فإن تضحكى منى فيا طول ليلة ::: تركتك فيها كالقباء المفرج

فأجابته تقول :

وما نبالى إذا أرواحنا سلمت ::: إذ النفوس وقاها الله من عطب
فالمال مكتسب والعز مرتجع ::: بما عدمنا من مال ومن حسب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة فرمت بدينار على الأرض فنادت يا جمال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا دينارا فقال: إنما هو دينار فقالت: بلى هو درهم فقال: بل دينار فقالت: الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله عنه بدينار فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جواباً ثم دخل بها على عبد الملك فتزوج بها فكان من أمرها ما كان . انتهى والله أعلم .

* * * * *

الباب الثالث عشر

فى حكايات العشاق وكل صب مشتاق

(**ذكر محمد بن واسع الأزدى**) أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج ابن يوسف أما بعد إذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته فسيِّر لى ثلاث جوار مولدات أبكار يكون إليهن المنتهى فى الجمال واكتب إلىَّ بصفة كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فلما ورد الكتاب على الحجاج أمر النخاسين بما أمر به عبد الملك وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض ثم أعطاهم المال وأمرهم وكتب لهم كتاباً إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد عبد الملك ولم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثل قال: وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر فى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها من المال فوجدهن لا يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك يقول فيه بعد الثناء الجميل: وصلنى كتاب أمير متعنى الله ببقائه يذكر فيه أن أشترى له ثلاث جوار مولدات أبكار وأن أكتب له بصفة كل واحدة منهن وثمنها فأما الجارية الأولى فإنها غليظة السوالف . عظيمة الروادف . كحلاء العينين . حلوة الوجنتين قد انهد نهداها . والتف فخذاها . كأنه ذهب قد شيب بفضة فهى كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج ::: كأنها فضة قد شابها ذهب

وثمنها ثلاثون ألف درهم . .

وأما الجارية الثانية فإنها فائقة الجمال . معتدلة القد والكمال . يشفى السقيم كلامها الرخيم . وثمنها ستون ألف درهم . . وأما الثالثة فإنها فاترة الطرف لطيفة الكف ، عظيمة الردف شاكرة للقليل ، مساعدة للحليل ، بديعة الجمال ، كأنها خشف غزال ، وثمنها ثمانون ألف درهم . ثم أطنب فى الشكر والثناء عليه وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين . فقال لهم: تجهزوا للسفر بهذه الجوارى لأمير المؤمنين فقال

أحد النخاسين: أيد الله الأمير إنى رجل كبير ضعيف عن السفر ولى ولد ينوب عنى أفتأذن لى؟ قال: نعم فتجهزوا وخرجوا ففى مسيرهم نزلوا منزلا يوماً ليستريحوا فى بعض الأماكن فنامت الجوارى فهبت ريح فانكشف بطن إحداهن وهى الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلا ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابه وقال:

أمكتوم عينى ما تمل من البكا ::: وقلبى بأسهام الهوى يترشق
أمكتوم كم من عاشق قتله الهوى ::: وقلبى رهين ليت لا أتعشق

فأجابته تقول :

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا ::: ليلا إذا هجعت عيون الحسد

قال: فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب بها ففطن به أصحابه فأخذوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك فلما مثلت الجوارى بين يديه وأخذ الكتاب وفضه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى ولم توافق الثالثة وهى الكوفية فقال للنخاسين: ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها ما ذكره الحجاج فى كتابه؟ وما هذا الاصفرار الذى بها وهذا الانتحال؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان؟ فقال: إن صدقتم أمنتم وإن كذبتم هلكتم فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد فلما قدموه بين يديه بكى بكاء شديداً وأيقن بالعذاب وأنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيت رغماً ::: وقد شدت إلى عنقى يديا
مقر بالقبيح وسوء فعلى ::: ولست بما رميت به بريا
فإن تقتل ففوق القتل ذنبى ::: وإن تعفو فمن جود عليا

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت أستخفافاً بنا أم هوى للجارية؟ فقال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى للجارية فقال: هى لك بما أعد لها فأخذها الغلام بكل ما أعد لها من الحلى والعقيان وسار بها فرحاً

مسروراً نحو أهله حتى إذا كان ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلا وتعانقا وناما فلما أصبح الصباح وأراد الناس المسير نبهوهما فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما فى الطريق ومضى خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك عجباً كثيراً .

(**كان المستعين بالله سليمان بن الحكم**) أحد خلفاء المغرب من خلفاء بنى أمية شغف بثلاث جوار لم ير قبلهن ولا بعدهن أجمل منهن وفيهن يقول:

عجباً يهاب الليث حد سنانى ::: وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيبا ::: منهم سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدما ::: زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى ::: من فوق أغصان على كثبان
هذا الهلال وتلك بنت المشترى ::: حسنا وهذى أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلو إلى الهوى ::: فقضى بسلطان على سلطان
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ::: كلفا بهن فلست من مروان
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى ::: ذل الهوى قدر وملك ثان

(**وكان هارون الرشيد العباسى**) شغف أيضاً بثلاث جوار وفيهن يقول:

ملك الثلاث الآنسات عنانى ::: وحللن من قبلى بكل مكان
ما لى تطاوعنى البرية كلها ::: وأطيعهن وهن فى عصيان
ما ذاك إلا سلطان الهوى ::: وبه قوين أعز من سلطان

(**وكان عبد الله المأمون بن هارون الرشيد**) شغف بجارية وفيها يقول:

أنا المأمون والملك الهمام ::: ولكنى بحبك مستهام
بحقى عليك فلا تقتلينى ::: فيبقى الناس ليس لهم إمام

(**ويحكى أن يزيد بن عبد الملك بن مروان**) اشترى جارية فائقة الجمال بارعة الغناء كاملة أديبة فأعجب بكلامها وأدبها وأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم: ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أصطنعه وأسدى إليه معروفاً؟ فقالت: أما قرابة فلا ولكن فى المدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاى وأحب أن ينالهم من خير ما صرت إليه

فكتب إلى عامله بالمدينة فى إحضارهم إليه وأن يدفع لكل واحد منهم عشرة آلاف درهم فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم عليه فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم فأما الاثنان فذكروا حوائجهما فقضاها وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال: يا أمير المؤمنين ما لى حاجة قال: ويحك ألست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ولكن حاجتى ما أظنك تقضيها قال: ويحك اسألنى فإنك لا تسلنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها قال: علىَّ الأمان؟ قال: نعم قال: إن رأيت أن تأمر جاريتك فلانة التى أكرمتنا بسببها أن تغنى ثلاث أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل قال: فتغير وجه يزيد وقام من مجلسه ودخل على الجارية وأعلمها فقالت: وما عليك يا أمير المؤمنين؟ فأمر بالفتى فأحضر ثلاثة كراسى من ذهب فنصبوا وقعد يزيد على أحدهم والجارية على الآخر والفتى على الثالث ثم دعا بصنوف من الرياحين والطيب فوضعت ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ثم قال للفتى: سل حاجتك فقال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى:

لا أستطيع سلوا عن مودتها ::: ويصنع الحب بى فوق الذى صنعا
أدعو إلى هجرها قلبى فيسعدنى ::: حتى إذا قلت هذا صادق بدعا

فأمرها فغنت فشرب يزيد والفتى والجارية ثم أمر بالأرطال فملئت وقال: سل حاجتك قال: تأمرها أن تغنى:

تخيرت عن نعمان عود أراكة ::: لهند ولكن من يبلغه هندا
إلا عرجا بى بارك الله فيكما ::: وإن لم يكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها فغنت فشربا كذلك ثم أمر بالأرطال فملئت وقال للفتى: سل حاجتك قال: تأمرها أن تغنى:

منى الوصال ومنكم الهجر ::: حتى يفرق بيننا الدهر
والله لا أسلوكم أبداً ::: ما لاح بدر أو بدا فجر

قال: فلم تتم الأبيات حتى خر الفتى مغشياً عليه فحركته فإذا هو ميت فقال لها يزيد: ابكيه ، فقالت: لا أبكيه وأنت حى فقال لها: ابكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا

بك فبكت الجارية وبكى يزيد وأمر بالفتى فجهز ودفن وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت ، اهـ .

(**وحكى عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب**) أنه قدم على عبد الله بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكروا الغناء والجوارى والمغنيات والعشق فقال عبد الملك: حدثنى بأعجب ما مر بك قال: نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم وكانت جميلة مطبوعة فرفعت ليزيد بن معاوية وكتب إلىَّ يقول: إما أن تهديها أو تبيعها بحكمك فكتبت إليه أنها والله لا تخرج عن ملكى بيع ولا هبة فبينما أنا ذات يوم إذ أتتنا عجوز من عجائزنا فذكرت لى أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ويراها وتراه وأنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب ويسمع غناها شغفاً بحبها فراعيت ذلك الوقت الذى قالت العجوز فإذا به قد أقبل مقنعاً رأسه حتى قعد محتفياً فلم أدع بها تلك الليلة وجعلت أتأمل وضعها وموضعه فإذا به تكلمه ويكلمها ولم أر بينهما إلا عبثاً فلم تزل كذلك حتى أسفر الصباح فدعوت بها وقلت لقّيمة الجوارى: أصلحى فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزينتها فلما جاءت بها قبضت يدها وفتحت الباب وخرجت وجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً فقلت: لا بأس عليك ولا خوف هى هبة منى إليك فدهش الفتى لما رآها ولم يجبنى فدنوت إلى أذنه قلت: أظفرك الله ببغيتك فقم وانصرف بها إلى منزلك فلم يرد جواباً فحركته فإذا هو ميت فلم أر شيئاً قط أعجب من أمره فقال عبد الملك: والله لقد حدثت بعجيب فما صنعت الجارية قلت: ماتت بعده بأيام بعد نحول عظيم وتعليل ماتت كمداً ووجدا على الغلام . انتهى .

(**ويحكى أن إبراهيم بن المهدى**) فى هربه من المأمون اختفى عند عمته زينب بنت أبى جعفر المنصور فوكلت بخدمته جارية اسمها ملكة وكانت واحدة زمانها فى الحسن والأدب طلبت منها بخمسمائة ألف درهم فأبت فعشقها إبراهيم وكره أن يطلبها ففى ذات يومٍ وهى قائمة على رأسه أنشد:

يا غزالاً من إليه ::: ـه شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزا ::: ء الضيف إحسان إليه

ففهمت الجارية ما أراد فحكت لمولاتها فقالت: اذهبي إليه فأعلميه أنى قد وهبتك لـه فعادت إليه فلما رآها أعاد الأبيات فانكبت عليه فقال: كفى فلست بخائن فقالت: وهبتنى لك مولاتى وأنا الرسول فقال: أما الآن فنعم .

(ويحكى أنه كان ببغداد) جاريـة تسمى دلال وكانت من أحسن الناس وهى لبعض الأمراء فلما سمع الخليفة بها التمس حضورها فلم يقدر على ذلك فقال لبعض ندمائه: انهـض بـنا نمـش إلى منزل الأمير صاحب الجارية ونسمع صوتها فلما وصلوا إلى منزلـه وهـم متنكرون طرقوا الباب فقال لهم غلامه: من بالباب؟ فقالوا: ضيوف فأذن لهم فلما دخلـوا أكـرمهم فـلما غنـت الجاريـة وسمعهـا الخلـيفة أعجبته فطلب شراءها فقال لـه صـاحبها: إنهـا معـتوقة فمـا زال السـاقى يمـيل إلى صـاحب المنزل حتى أسكره . وأنفذ الخلـيفة أحضـر مـن أخذهـا إلى قصـر الخلافة فلما أصبح الصباح وأفاق مولاها طلبها فأخبر أن ضيوفك البارحة كان الخليفة ونديمه فلان وقد بعث من حملها إلى منزلـه فحين سمـع الكـلام ضـاقت عليه الدنيا وأقام مهموماً مغموماً فلم يلبث إلا قليلا حتى وصل إلـيه رسـول الخلـيفة يسـتدعيه فأحضر زورقاً صغيراً فلما آلى عنده أخرج جاريته فغنت فـلما مضـى صاحب الجارية أمر لـه بملء المركب دراهم فكان ملؤها عشرين ألف ألف فقبضـها صـاحب الجاريـة ثـم إنه فى بعض الأيام أحضر الخليفة الجارية وأمرها بالغناء فغنت وتذكرت ما مر عليها من فراق سيدها الأول ومن قبلها إليه فغنت ثانياً تقول:

الســن تضـحك والأحشـاء تحـترق ::: وإنمـــا ضـــحكها زور ومخـــتلق
لـــولا مراقـــبة الأعـــداء لاســـتبقت ::: مـــنى الدمـــوع كمـــا فى السر تستبق
فـــرب بـــاك بقلـــب غـــير ذى حزن ::: ورب ضـــاحك ســـن مـــا بـــه رمـــق
ليـــت الذيـــن رأونى ضـــاحكا زعموا ::: رأوا بكـــاى إذا مـــا أظـــلم الأفـــق

قـالوا :فـلما فرغـت الصـوت رمـت العـود مـن يدها وبكت بكاء شديداً وبكى الخلـيفة وندمـاؤه ومـن كـان معهمـا لبكائها وقال لها الخليفة: يا جارية إلى الآن قلبك معلـق مـع صـاحبك الأول؟ قالـت: نعـم يا أمير المؤمنين فأرجعها بجميع ما معها إلى صاحبها الأول .

(**حكـى عمـر ابن مسعدة**) قـال: كان أبو عيسى أخو المأمون عاشقاً لقرة العين جاريـة عـلى بـن هشام وكانت هى لـه أيضاً كذلك وكان لا يرى أن يبوح بذلك ولا يشـكو إلى أحـد ويطلعـه على سره لأنه كان يأنف الشكوى ويستقبح إذاعتها من قلبه واجـتهد على ابتياعها منه فلم يقدر على ذلك فلما عيل صبره واشتد وجده وأعوزته الحيلة فـيها دخـل عـلى المـأمون فـى يوم نوروز بعد انصراف الناس من عنده وقال: يـا أمـير المؤمـنين إنـك لو امتحنت فؤادك فى هذا اليوم على حين غفلة منهم لتعرف أهـل المـروآت من غيرهم ومحل كل رجل منهم على قدر همته وكان قصد أبى عيسى أن يتوصـل بذلـك إلى الجلـوس مـع قـرة العـين فـى دار على بن هشام فقال المأمون: جـواب ذلـك قدموا الطيارة فركب المأمون وأبو عيسى ومعه جماعة من خواصه فأول قصـر وردوا عليه قصر حميد الطوسى فدخلوا عليه فى القصر على غفلة منه فوجدوه جالسـاً فـى مجلـس لـه وبين يديه المغنون بعيدان وطنابير فجلس المأمون ساعة وتأمل السـقف ثـم نظـر إلى جوانـب المجلس وإلى الفرش ثم أحضر بين يديه طعاما من لحوم الـدواب فـلم يلتفـت المـأمون إلى شـيء مـن ذلك ثم قال: قم بنا يا أبا عيسى فقاموا ونـزلوا في الطيارة حتى انتهوا إلى قصر على بن هشام فدخلوا عليه على غفلة منه فإذا هـو جـالس وحولـه قـواده وخواصـه فحـين رأى المـأمون قـام إليه واستقبله وقال: إلىّ مجلـس يليق بك وهو معد لك يا أمير المؤمنين فدخلوا إلى مجلس أرضه من الرخام الملـون وسـقفه من الساج المصفح بالذهب وأرضه مفروشة بالحصر السندسية وعليها فـرش بصـرية وفـيه مروحة متخذة على طول البيت وعرضه ثم جلس ساعة ثم تأمل السـقف والبيـت والفـرش ثم قال: أطعمنا شيئا فقدم إليه من وقته قريباً من مائة لون مـن الدجـاج سوى ما معها من المزائد والقلائد والبوارد فلما أكل قال: اسقنا يا على شيئا فأحضـر نبـيذاً مثلثاً مطبوخاً بالفواكه والأبازير الطيبة في أوانى الذهب وبالبلور وأقـبل غـلمان لـه علـيهم الثياب المنسـوجة بالذهب وعلى صدورهـم بواطئ البلور وفـيها مـاء الـورد الممسك ومعهم ذراقات ذهب يذرقون فيها حافتى المروحة فتحمل المسـك والمـاورد فـتروح الحاضـرين وتمطـر المسـك والماورد مع الترويح قال: فعجب

المأمون من ذلك عجباً شديداً ولما رأى من مروءته وكرمه على حين غفلة منه فقال: يا أبا الحسن ولم يكن كناه قبل ذلك الوقت فوثب إلى البساط قبله ووقف بين يديه وقال: لبيك يا أمير المؤمنين فقال: أسمعنا شيئا فأقبل على الخادم وقال: عليَّ بالجوارى فوافاه الخدم بعشرة كراسى فنصبوها وجاءت عشر وصائف كأنهن البدور عليهن الديباج وعلى رؤوسهن تيجان الذهب فجلسن على الكراسى فنظر إلى وصيفة منهن تفتن بدلالها وقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: شجاع قال: غنى يا شجاع فغنت وقالت:

أقبلت أمشى على خوف مخاتلة ::: مشى المذل رأى شبلين قد وردا
سيفى ردائى وقلبى مشفق وجل ::: أخشى العيون من الأعداء والرصدا
حتى دخلت على خود منعمة ::: كصلتة الدعص لما تسلم الولدا

فقال: أحسنت يا جارية لمن الشعر؟ فقالت: لعمرو بن معدى كرب والغنا لمعبد فشرب المأمون وأبو عيسى وانصرفن الجوارى، وجاءت عشرة أخرى عليهن الوشى اليمانى فجلسن على الكراسى فنظر إلى واحدة منهن كأنها غصن بان فقال: ما اسمك يا جارية؟ فقالت: ظبية فقال: غنى يا ظبية فغنت وقالت:

حرحر آير ما هممن بريبة ::: كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الحديث زوانيا ::: ويصدهن عن الزنا الإسلام

فقال: لله درك لمن الشعر؟ فقالت: لجرير والغنا لشريح، فشرب المأمون وأبو عيسى وعلى بن هشام ثم انصرفن، وجاءت عشرة أخرى كأنهن اليواقيت عليهن الديباج الأحمر ومناطق الذهب مكشوفات الرؤوس فجلسن على الكراسى فنظر إلى وصيفة منهن وقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: فاتن قال: غنى يا فاتن فغنت:

بنات كرام لم يرعن بنظرة ::: ويلبسن وشياً بالحرير موادعا
يسارقن بالأبصار طرفاً مفتراً ::: ويبدين من فتق الستور الأصابعا

قال: أحسنت يا جارية لمن الشعر؟ فقالت: لعدى بن زيد والغنا قديم فشرب المأمون وأبو عيسى وعلى بن هشام وانصرفن، وجاءت عشرة أخرى عليهن الوشى المنسوج بمناطق الذهب فجلسن على الكراسى فنظر إلى واحدة منهن كأنها غصن بان

فقال لها: ما اسمك يا جارية؟ قالت: رشا قال: غنى يا رشا فغنت:

وأحـور كالغصـن يشـفى الجـوا ::: ويحكـى الغـزال إذا مـا رنى
شـربت المـدام عـلى وجهـه ::: ونازعـته الكـأس حـتى انـثنى
فـبات ضـجيعى وبتـنا معـا ::: وقلـت لنفسـى هـذا المـنى

فقال: أحسنت يا جارية زيدينا فغنت شعراً:

خرجـت تشـهد الـزقاق رويـداً ::: في قمـيص مضـمخ بعـبير
قلـت مـن أنـت يـا خلوب فقالت ::: أنـا مـن جـن بيـتك المعمـور

فطـرب المأمون لذلـك وهى تردد الصوت ثم قال: قدموا لنا الطيارة حتى نركب فقـام عـلى بـن هشـام وقـال: يـا أمير المؤمنين جارية اشتريتها بأربعة آلاف دينار وقد كانـت أخـذت بمجـامع قلـبى وأريد أعرضها على أمير المؤمنين إن رضيها وإلا سمع مـنها قـال: هاتهـا فخرجـت جاريـة كأنهـا قضيب ياقوت لها عينان فَتَّانتان وحاجبان كأنهمـا قوسـان أحسـن مـن سكت وأفتن من نطق عليها ثياب مضاعفة وعلى رأسها تاج من الذهب تحته عصابة مكتوب عليها بماء الفضة شعراً:

جنـية لهـا جـن يعـلمها ::: تـرمى القلـوب بقـوس ما لـه وتر

قـال: فجـاءت كأنهـا النشـوان فجلست على الكرسى وبهت الناس إليها وجعل أبـو عيسى يتوجع من فؤاده واصفر لونه وتغير حاله وأخذه القلق فالتفت إليه المأمون وقـال: مـا لـك؟ قـال: علـة تعترينى في بعض الأوقات قال: أفتعرف هذه قبل اليوم؟ قـال: نعـم يـا أمـير المؤمـنين وهل يخفى القمر؟ فقال لها المأمون: ما اسمك يا جارية؟ فقالت: قرة العين فقال: غنينا يا قرة العين فغنت:

بكـر الأحـبة عـنك بـالإدلاج ::: وغـدوا بهـا سـحراً مـع الحجـاج
نصـبوا خـيام الـبذل حـول قبابهم ::: وتسـتروا بأكلـة الديـباج

فقـال: لله درك لمـن الشـعر؟ قالـت: لدعبل الخـزاعى قال: فنظر إليها أبو عيسى وخنقـته العبرة حتى فطن به أهل المجلس وتأوه ساعة ثم فاضت عيناه فالتفتت الجارية إلى المأمون وقالت: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في الكلام قال: قولى ، فغنت:

ولا خـير فـيمن وده بلسـانه ::: ويظهـر في المكـنون مـنه لك الغدرا

ويظهــر بـــالدمع الســكوب لإلفــه ::: وفــاء لـــه والقلــب منشــعر خبرا

فقـال أبـو عيسـى: أتـأذن لـي يـا أمير المؤمنين في جوابها؟ قال نعم: قل ما شئت فأنشد يقول :

ســــكتُ ولم أقـــل إنى محـــب ::: وأخفيـــت المحـــبة في ضـــميرى
فــإن ظهـــر الهـــوى في العـــين مـــنى ::: فمـــا ذنـــبى إلى القمـــر المـــنير

ثم جعل ينتحب ويبكى ورفع رأسه إليها وأنشد يقول:

تحـــت ثـــيابى بـــدن نـــاحل ::: وفى فـــؤادى شـــغل شـــاغل
ولى فـــــــــؤاد داؤه لازم ::: ومقلـــــة مدمعهـــا هـــاطل
وكـــلما ســـألنى عـــاذل ::: قـــام لحـــينى في الهـــوى عـــاذل
يـــا رب لا أقـــوى عـــلى كـــل ذا ::: مـــوت وإلا فـــرج عـــاجل

فوثب على بن هشام إلى رجل أبى عيسى وقبلها وقال: يا سيدى قد استجاب الله دعـاءك وسمـع نجـواك وأجـابك إلى أخذهـا إن لم يكـن لأمير المؤمنين فيها رأى فقال المـأمون: ولـو كـان ذلـك لآثـرنا أبا عيسى على نفوسنا وأخذ قرة العين وانصرف بها قرير العين . ا هـ .

(وحكى أبو القاسم أحمد بن [illegible] عن الأصمعي) قـال: دخلت البصرة وأنا أريد باديـة بـنى سـعد وكـان عـلى البصرة يومئذ خالد بن عبد الله فدخلت عليه ذات يوم فرأيـت قومـاً مـتعلقين بشاب ذى جمال وكمال وأدب ظاهر ووجه زاهر وعليه سكينة ووقـار فقدمـوه إلى خـالد فسـأل عن قصته فقالوا: هذا لص أصبناه البارحة في منزلنا فـنظر خـالد إلى الفـتى فأعجـبه حسـن هيئته ولطافته فقال لهم: خلوا عنه ثم أدناه منه وسـأله عـن قصـته فقـال: إن القول ما قالوه والأمر مثل ما الذي ذكروه فقال لـه: ما حملـك على ذلك وأنت في هيئة جميلة وصورة حسنة؟ قال: حملنى عليه الشره في الدنيا وكـذا قضى الله تعالى قال لـه: ثكلتك أمك أما كان لك في كمال عقلك وحسن أدبك زاجـراً عـن السـرقة؟ فقـال: دع عـنك هذا أيها الأمير وأنفذ ما أمرك به الله فذاك بما كسـبت يـداى ومـا الله بظلام للعبيد ، فسكت خالد مفكراً في أمره ساعة ثم أدناه منه وقال: إن اعترافك بالسرقة على رؤوس الملأ رابنى ما أظنك سارقاً وإن لك قضية غير

السرقة فأخبرنى بها فقال الفتى: أيها الأمير لا يقع في نفسك شيء غير ما اعترفت به عندك وليس عندى قصة أشرحها لك إلا أنى دخلت دار هؤلاء القوم منها فسرقت منها مالا فأدركونى فأخذوه منى وحملونى إليك فأمر الخادم بحبسه وأمر مناديا ينادى: من أحب أن ينظر إلى عقوبة الشاب فلان اللص فليحضر من الغداة فلما استقر الفتى في الحبس ووضع في رجليه الحديد تنفس الصعداء وأنشأ يقول:

هددنى خالد بقطع يدى ::: إن لم أبح عنده بقصتها
فقلت هيهات إن أبوح بما ::: تضمن القلب من محبتها
قطع يدى بالذى اعترفت به ::: أشهى إلى القلب من فضيحتها

فسمعه الموكلون به وأخبروا بذلك خالدا فلما جن الليل أمر بإحضاره عنده فلما حضر أمر له بطعام فأكل وتحدثا ساعة ثم قال له خالد: قد علمت أن لك قصة غير السرقة فإذا كان وحضر الناس وسألتك عن السرقة فأنكرها واذكر فيها شبهة تدرأ عنك القطع ثم أمر به فأعيد إلى الحبس فلما أصبح جاء الناس ولم يبق بالبصرة رجل ولا امرأة إلا حضروا ليروا عقوبة ذلك الفتى وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم فالخاصة عن يمينه والعامة عن يساره وبقية الناس بين يديه ثم دعا بالقضاة والفقهاء وأمروا بإحضار الفتى فأقبل يحجل في قيوده فما بقى أحد من الناس إلا بكى عليه حين عاينوه فأمر بتسكين الناس ثم قال له خالد: إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم قال: صدقوا أيها الأمير دخلت دارهم وسرقت مالهم فقال له خالد: لعلك سرقت دون النصاب قال: بل سرقت نصاباً كاملاً قال: لعلك أخذته من غير حرز قال: بل أخذته من حرز قال: فلعلك شريك القوم في شيء منه قال: بل هو جميعه لهم ولا حق لي فيه فغضب خالد وضرب وجهه بالسوط وقال:

يريد العبد أن يعطى مناه ::: ويأبى الله إلا ما يشاء

ثم دعا بالجزار ليقطع يده فحضر وأخرج السكين ومد يده وأشرف عليها بالسكين فبادرت جارية من صف النساء عليها إزار وسخ فصرخت ورمت بنفسها عليه وأسفرت عن وجه أضوء من الشمس فارتفعت للناس ضجة عظيمة كاد أن تقع

منها فتنة ثم نادت بأعلى صوتها: أيها الأمير لا تعجل عليه حتى تقرأ هذه الرقعة ثم دفعت إليه الرقعة ففضها خالد فإذا فيها مكتوب:

أخالد هذا مستهام متيم ::: رمته لحاظ عن قسي الحمالق
فأصماه سهم اللحظ مني فقلبه ::: حليف الجوى من دائه غير فائق
أقر بما لم يقترفه لأنه ::: رأى ذاك خيراً من فضيحة عاشق
فمهلا على الصب الكئيب فإنه ::: كريم السجايا في الورى غير سارق
فأنت الذي لا يرتجى اليوم غيره ::: لرفع ملمات الخطوب الطوارق

فلما قرأ الأبيات تنح عن الناس وأحضر المرأة وسألها عن القصة فأخبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهى له كذلك وأنه أرادها وأراد أن يعلمها بمكانه فرمى حجرا إلى الدار فسمع أبوها وإخوتها صوت الحجر فصعدوا وهو في الحجرة فلما أحس بهم جمع أثاث البيت ككرة وحمله على قفاه فأخذوه وقالوا: هذا لص وأتو به إليك فاعترف بالسرقة وأصر على ذلك حتى لا يفضحنى بين إخوتى وقد هان عليه قطع يده لكى يسترنى كل ذلك لغزارة مروءته وكرمه فقال خالد: إنه لخليق به ثم دعا به وقبّله بين عينيه وأمر بإحضار أبى الجارية فقال له: يا شيخ إنا كنا قد عزمنا على إنفاذ الحكم في هذا الفتى بقطع اليد إلا أن الله تعالى عصمه من ذلك وقد أمرت له بعشرة آلاف دينار لبذله يده حفظاً لعرضك وعرض ابنتك وصيانة لكما من الفضيحة وقد أمرت لابنتك أيضا بعشرة آلاف دينار وأنا أسألك أن تأذن لي في تزويجها منه فقال له الشيخ: قد أذنت لك أيها الأمير فأمر بإحضار المال ثم خطب وقال للفتى: زوجتك هذه الجارية بعشرة آلاف دينار فقال: قبلت التزويج وأمر بحمل المال إلى دار الفتى وانصرف الناس مسرورين ولم يبق أحد في أسواق البصرة إلا نثر عليهم اللوز والسكر والدراهم قال الأصمعي: فما رأيت أعجب من ذلك أوله بكاء وقرح وآخره سرور وفرح .

(وحكى عن الأصمعى أنه قال): بينما أنا أسير بالبادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت المفرد:

ألا معشر العشاق بالله خبروا ::: إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع

فكتبت تحته:

يــداري هـــواه ثم يكـــتم ســـره ::: ويخشـــع في كـــل الأمـــور ويخضـــع

ثم غدوت في اليوم الثانى فوجدت مكتوبا تحته:

وكـــيف يـــدارى والهـــوى قاتل الفتى ::: وفى كـــل يـــوم روحـــه تـــتقطع

فكتبت تحته:

إذا لم يجـــد صـــبراً لكـــتمان ســـره ::: فلـــيس لـــه شـــيء سوى الموت أنفع

وفى بعض الروايات أنه كتب هذا البيت:

سمعـــنا أطعـــنا ثم متـــنا فـــبلّغوا ::: رســـالتنا لمـــن كـــان بالوصـــل يمـــنع

ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شابا مكفى تحت ذلك الحجر ميتا .

(**ويحكى أنه كان بالبصرة**) فتى من أبناء النعم فغدره زمانه وكان لـه جارية حسناء محسنة في الغناء والأدب بارعة الجمال فضاق بهما الحال في عدم ما يتقوتون به فقال لها: ما ترين فيما قد نزل بنا وما صرنا إليه من هذا الحال السيئ والله العظيم لموتى وأنت معى لأهون مما أذكره لك فيسوءنى أن أراك على غير الحال التي تسرنى فيك ونهاية الأمر بنا أن يموت أحدنا فيقتل الآخر نفسه عليه فإن رأيت أن أبيعك لمن يحسن إليك فيغسل عنك ما أنت فيه من الضر وانتفع: أنا بما لعله يصير إليَّ من الثمن لعلك تحصلين إليَّ عند من تتوصلين إلى نفعى معه فقالت: والله لموتى على هذه الحالة معك آثر عندى من انتقالى إلى غيرك ولو كان ملكا لكن اصنع ما بدا لك فخرج وعرضها على النخاس للبيع فأشار عليه بعض أصدقائه ممن لـه رأى أن يحملها إلى ابن معمر أميراً كان بالبصرة قال: فحملها إليه صحبة النخاس فأعرضت عليه فاستحسنها وقال لمولاها: كم شراؤها عليك؟ قال: مائة ألف درهم فقال: قد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرة أسقاط من الثياب وعشرة رؤوس من الخيل وعشرة من الرقيق أرضيت؟ قال: نعم أرضى الله الأمير فأمر بالمال فأحضر وأمر بتسليم المال إليَّ وأمر بإدخال الجارية إلى دار الحرم فحين قال لها: انهضى إلى دار الأمير قامت وأمسكت جانب الستر وبكت وأنشأت تقول:

هنيـنا لـك المـال قـد أفدتـه ::: ولم يـبق في كفـي غـير التفكرى
أقـول لنفسـي وهـي في ضيق كربها ::: أقـلي بقـربان الحبيـب أو أكـثرى
إذا لم يكـن للأمـر عـندك حـيلة ::: ولم تـر بـدا مـن الصـبر فاصـبرى

فأجابها مولاها بقولـه:

فلـولا قعـود الدهـر لي لم يكـن إذا ::: لفرقتـنا شـيء سـوى الموت فاعذرى
أروح وإنى مـن فـراقك موجـع ::: أنـاجى بـه قلـبا قلـيل التصـبرى
علـيك سـلام لا زيـارة بينـنا ::: ولا وصـل إلا أن يشـاء ابـن معمرى

فقـال ابن معمر: قد شئت بارك الله لك فيها وما صار إليك منا فأخذها وأخذ المال والرقيق والثياب والخيل وعاد إلى منزلـه وقد أثرى وحسنت أحواله واستغنى . ا هـ .

(**قـال الجـاحظ**): انحـدرت مـع محمد بن سليمان الهاشمى فلما صرنا في وسط الـرحلة دعـا بالطعـام فأكلنا ثم دعا بالشراب فشربنا فحول إلى الخزانة جاريتين عوادة وطنبورية فغنت الطنبورية:

وارحمـة للعاشـقين ::: مـا إن أرى لهـم معيـنا
كـم يهجـرون ويـبعدون ::: ويطـردون فيغضـبون
فـتراهم ممـا بهـم ::: بـين الـبرية خاضـعين

فقالت لها العوادة: فيصنعون ماذا؟ قالت: يصنعون هكذا وهتكت الستارة وألقت نفسها في الدجلة وكان على رأس محمد بن سليمان غلام يضاهيها في الحسن والجمال وبيده مذبة فلما رآها صنعت ذلك رمى بالمذبة وقال:

أنـت الـتي أغرقـتنى ::: بعـد القضـا لـو تعلميـنا
لا خـير بعـدك في الحـيا ::: ة ولا يقيـنا إن بقيـنا

ثـم ألقـى نفسه بعدها فغطس ثم صعدا متعانقين ثم غطسا فكان آخر العهد بهما فاشـتد ذلـك على محمد بن سليمان وقال: يا جاحظ إن لم تحدثنى بما يسلينى عن فعل هذيـن العبدين وإلا ألحقتك بهما وليكن ما تحدثنى به من أعجب ما رأيت وأظرف ما لقيـت فقلـت: أجـل نخـوف تقـول وتفعـل فخفـته على نفسى فقلت: يا ابن عم أمير المؤمـنين خرجـت يومـا مـن الأيام فسرت حتى أدركنى المساء فوصلت إلى راع يرعى

غـنما فسـلمت عليـه فرد عليَّ السلام فقلت: هل من قرى؟ فقال: انزل فنزلت فأخذ راحلـتى فقـيدها وطـرح لها علفا وعمد إلى شاة من ذلك الغنم فذبحها وكشط جلدها عـن لحمهـا وأضرم نارا عظيمة وجعل يشوى ويلقى بين يدى ثم بعد ذلك أتانى بتمر وزبـد ولـبن فأكلـت حـتى انتهيت ثم اضطجعت وأنا بين النائم واليقظان إذ سمعت شـيئا لــه حـس فإذا جارية قد أقبلت تفضح البدر حسنا وجمالا فسلمت وسلم عليها وجعـل يحدثهـا فقلت في نفسي: رجل أعرابى ولعلها حرمته فتناومت وما بى من نوم وهما في أحسن حديث ولذة فلما قرب طلوع الفجر أردت الانصراف فمنعنى وأقسم عـليَّ وقـال: أقـم عندنا وكنت معلق القلب بها فأقمت عنده أحدثه وأوانسه حتى دنا الليل فأحسن ضيافتى فبينما أنا كذلك نائم كما كنت في الليلة الماضية إذ أتانى الرجل فحركـنى فقال: أنائم أنت؟ فقلت: وما تريد؟ فقال: ألم تر الجارية التي كانت عندى في الليلة الماضية فأنكرت أن أقول: رأيت شيئا خوفا من غيرته فقلت: لا فقال: بلى تلك ابـنة عمـى وأحـب الـناس إليَّ وأنا من أشرف بنى عذرة وكنت خطبتها إلى أبيها فأبى عليَّ لقلة ذات يدى وخطبها رجل غريب فزوجها منه رغبة في ماله وارتحل بها إلى دار قومـه فلما عيل صبرى تنكرت حتى صرت لزوجها راعيا لكى أرى ابنة عمى وترانى وقـد أبطأت الليلة عن وقتها التي كانت تجيء فيه وأخاف أن يكون الأسد قد اعترض لها وأنشأ يقول:

مـــا بـــال مـــية لا تـــأتى كعادتهـــا ::: أعاقهـــا عـــائق أم صـــدها عـــذل
مســـكن قلـــبى لم يشـــغله غيركـــم ::: إلى الممـــات ومـــا بى غيركـــم شـــغل
لـــو تعـــلمين الـــذي بى مـــن فراقكم ::: لمـــا اعتللـــت ولا طالـــت بـــك العلل
نفســـى فـــداك لقـــد أحللت بى سقما ::: تكـــاد مـــن حـــره الأعضـــاء تنفصل
لـــو حمـــل العشر من وجدى بهم جبل ::: لانهـــد وانـــدك مـــن أركانـــه الجـــبل

* * * * *

الباب الرابع عشر
في نوع آخر من الحكايات

(**ومــن غريـــب ما يحكى**) عن المعتضد بالله أحمد أبو العباس ابن ولى العهد الموفق طلحة ابـن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد العباسى ما ذكره ابن بدرون في شرح قصيدة ابـن عبدون أن أحد وزرائه كان قد بنى بناء عاليا مشرفا على منازل جيرانه فلم يعارضه أحد فيه لمكانه من سلطانه وعزه فكان يجلس كثيرا في ذلك البناء فرأى يوما من الأيـام في دار مـن دور جيرانـه جارية بارعة الجمال فولع بها فسأل عنها فأخبر أنها بنت أحـد الـتجار فأرسـل إلى والدهـا خاطـباً فقـال لــه أبوها وكان من أهل اليسار: لست أزوجهـا إلا مـن تاجـر مثـلى فإنه إن تزوجها من هو مثلى لم يظلمها وإن ظلمها قدرت عـلى النصـفة منه وإن ظلمتها أنت لم أقدر على ذلك فلم يزل يرومه في ذلك بكل مرام ويوسـط لــه الأكابر والأماثل من الناس وهو مع ذلك ممتنع فلما عيل صبره ويئس من أن يجيـبه شـكا ذلـك إلى أحـد خواصـه فقـال لـه: ألف مثقال يقوم لك هذا فقال: أنى وكـيف؟ والله لـو علمـت أنـى أنفـق عليها مائة ألف وأنالها لفعلت فقال لـه: لا عليك تحضـرنى ألـف دينار فأمر بإحضارها فمشى بها ذلك الرجل إلى عشرة كانوا عدولا عند القاضـى في شهادتهم وذكر لهم الأمر وقال: هذا شيء ليس عليكم من الله فيه تبعة فإنه يصـدقها كـذا وكـذا ألـف وأغلى لهم المهر ثم إنكم تحيون نفسا قد أشرفت على الهلاك ويكـون لكـم مـع هذا عنده من الجاه ما ترغبون فيه وأبوها إنما هو عاضل لها في الزواج وإلا فمـا يمـنعه مـن ذلـك وقـد خطـبها مثل فلان في جلالة قدره ومكانه من أمره وقد أعطاه صداقا لا يعطى إلا لبنت ملك ثم هو مع هذا يتأبى هل هذا إلا عضل بيِّن ولكن لكـم مائـة مثقال لكل واحد منكم وتشهدون أنه قد زوجها منه فإنه إذا علم أبوها أنكم قـد شـهدتم عليه رجع إلى هذا إذ ليس فيه إلا الخير والعز فأخذ الشهود كل واحد منهم مائـة مثقال وشهدوا بأن أباها زوجها على صداق مبلغه كذا وكذا ورفعوا قدر الصداق إلى غايـة ما يرفع إليه صداق الملوك فلما علم أبوها بذلك زاد نفوراً وتأبيا فمشى الوزير وذلـك القـائد إلى القاضـى وقال لـه: إنى تزوجت ابنة فلان على هذا الصداق وهؤلاء

الشهود عليه وقد ناكرنى وأنكر الشهود وقد أردت أن أدفع له حق ابنته وأخذها فأمر القاضى بإحضار الشهود فشهدوا في الصداق وأحضر الرجل مال النقد بين يدى القاضى والرجل على إنكاره متماد فيه فأمر القاضى بإمضاء الحكم عليه وأن تؤخذ ابنته منه أحب أم أكره وأمر بحمل المال إليه فلما حصلت الجارية إلى الوزير لم يزل أبوها يروم الوصول إلى المعتضد وكان المعتضد غليظ الحجاب لا يصل أحد إليه غير الخاصة فقيل للرجل: إنه يحضر كل يوم ساعة من النهار على بنيان يبنى له بقصره فإن استطعت أن تكون في جملة رجال الخدمة للبناء فافعل تصل إليه وتكلمه بما أردت ففعل الرجل ذلك وغير شكله ودخل في جملة رجال الخدمة للبناء فلما كان في ذلك الوقت الذي كانت عادة المعتضد يقف على ذلك البناء خرج فترامى الرجل على الأرض وجعل ينثر التراب على رأسه ويستغيث به فسأله عن شأنه فقص عليه القصة فأرسل المعتضد في ذلك المقام إلى ذلك الوزير وأغلظ عليه في القول فحملته هيبته له وقلة إقدامه على الكذب عليه أن وصف له الصورة على ما كانت عليه وهو يطمع أن يعذر في ذلك أن جعل من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها وأمر بإحضار الشهود فاعترفوا مثل ما اعترف الوزير وذلك كله رهبة له وإجلالا أن يخاطبوه بكذب على تخيلهم أنه يتجافى لهم عن هذه الذلة إذ قد أرادوا بها إحياء نفس ذلك الوزير وأيضا فقد دفع له بين يدى القاضى نقدا لا يكون إلا في صداقات بنات الملوك وقد جعل لها معلوما على نفسه إضعاف ذلك فكأنه قد أخذها بحقها أو بأكثر من حقها فلما تحقق عنده جلية خبرهم أمر أن يصلب كل شاهد منهم على باب داره وأن يوضع ذلك الوزير في جلد ثور طرى السلخ ويضرب بالمرازب حتى يخلط عظمه ولحمه بدمه ثم أمر به لما صنع به ذلك أن يفرغ بين يدى نمور كانت عنده فلما لعقت تلك النمور الدم أمر الرجل أبا البنت أن يأخذ ابنته ويأخذ لها كل ما ذكر ذلك الوزير في صداقها من مال وعقار اهـ.

ومن المنقول عنه أيضاً

(روى ابن الجوزى) في كتاب الأذكياء عن ابن المحسن عن أبيه قال: بلغنى عن المعتضد بالله أحمد أنه كان يوما جالسا في بيت يبنى له يشاهد الصناع فرأى في جملتهم

غلاما أسود منكر الخلقة يصعد له السلالم مرقاتين مرقاتين ويحمل ضعف ما يحملوه فأنكر أمره فأحضره وسأله عن سبب ذلك فلجلج فقال ابن حمدون وكان حاضراً: أي شيء يقع لك في أمره؟ فقال: ومن هذا حتى قد صرفت فكرك إليه ولعله لا عيال له فهو خالي القلب قال: ويحك قد خمت في أمره تخميماً ما أحسبه باطلا إما أن يكون معه دنانير قد ظفر بها دفعة من غير وجهها أو أن يكون لصا يستتر بالعمل في الطين فلاحاه ابن حمدون في ذلك فقال: عليَّ بالأسود فأحضر فقال: أعطوه مقارع فضربه مائة مقرعة وقرره وحلف أنه إن لم يصدقه ضرب عنقه فأحضر السيف والنطع فقال الأسود: الأمان فقال: لك الأمان إلا ما يجب عليك من حد فلم يفهم ما قال له وظن أنه قد أمنه فقال: أنا كنت أعمل في أتاتين الآجر سنين وكنت منذ شهور هنالك جالسا فاجتاز بي رجل في وسطه هميان فتبعته فجاء إلى بعض الأتاتين فجلس وهو لا يعلم مكاني فحل الهميان وأخرج منه دنانير فتأملته فإذا كله دنانير فثاورته وكتفته وشددت فاه وأخذت الهميان وحملته على كتفي وطرحته في نقرة الأتون وطينته فلما كان بعد ذلك أخرجت عظامه فطرحتها في الدجلة والدنانير معي يقوى بها قلبي فأنفذ المعتضد من أحضر الدنانير من منزله وإذا على الهميان مكتوب فلان ابن فلان فنودي في البلدة باسمه فجاءت امرأة فقالت: هذا زوجي ولي منه هذا الطفل خرج وقت كذا ومعه هميان فيه ألف دينار فغاب إلى الآن فسلم الدنانير إليها وأمرها أن تعتد وضرب عنق الأسود وأمر أن تحمل جثته إلى ذلك الأتون . ا هـ .

ومن المنقول عنه أيضاً

قال المحسن: بلغنا عن المعتضد بالله أحمد أن خادما من خدمه جاء يوما فأخبره أنه كان قائما على شاطئ الدجلة في دار الخليفة فرأى صياداً وقد طرح شبكته فثقلت فجذبها وأخرجها فإذا فيها جراب وأنه قدره مالا فأخذه وفتحه وإذا به أجزاء وبين الأجزاء كف مخضوبة بحناء قال: فأحضر الجراب والكف والرجل فهال المعتضد ذلك وقال: قل للصياد: يعاود طرح الشبكة فوق الموضع وأسفله وما قاربه قال: ففعل فخرج جراب آخر فيه رجل قال: فطلبوا أيضا فلم يخرج شيء فقال: معي في البلد من

يقتل إنساناً ويقطع أعضاءه ويفرقه ولا أعلم به ما هذا إلا ملك قال: وأقام يومه كله ما طعم طعاما فلما كان من الغد أحضر ثقة لـه وأعطاه الجراب فارغاً وقال: طف به على كل من يعمل الجرب ببغداد فإن عرفه رجل منهم فاسأله على من باعه فإذا دلك عليه فسل المشترى من اشتراه منه وتجسس على خبره أبدا قال: فغاب وجاء بعد ثلاثة أيام فزعم أنه لم يزل يتلطف في الدباغين وأصحاب الجرب إلى أن عرف صانعه وسأله عنه ففكر أنـه باعه على عطار بسوق يحيى وأنه مضى إلى العطار وعرضه عليه فقال: ويحك كيف وقع هذا الجراب في يدك؟ فقلت: أو تعرفه؟ فقال: نعم اشترى منى فلان الهاشمى منذ ثلاثة أيام عشرة جرب لا أدرى لأى شيء أرادها هذا منها فقلت: ومن فلان الهاشمى هذا؟ قال: رجل من ولد على ابن رابطة من ولد المهدى يقال: فلان عظيم إلا أنه شر الناس وأظلمهم وأفسدهم لحرم المسلمين وأشدهم تسرعاً إلى مكائدهم وليس في الدنيا من ينهى خبره إلى المعتضد خوفا من شره ولفرط تمكنه من الدولة والمال ولم يزل يحدثنى وأنا أسمع بأحاديث لـه قبيحة إلى أن قال: فحسبك أنه كان يعشق فلانة المغنية وكانت كالدينار المنقوش وكالقمر الطالع في غاية حسن الغناء فساوم مولاتها فيها فلم تقاربه فلما كان منذ أيام بلغه أن سيدتها تريد بيعها على مشترى قد حضر يبذل فيها ألف دينار فدفع إليها أقل فلم تبعها فأرسلها يطلبها منها ليراها فأنفذتها إليه بعد أن أنفذ إليها جذوها لثلاثة أيام فلما انقضت الأيام الثلاثة غصبها عليها وغيبها عنها فما تعرف لها خبراً وادعى أنها هربت من داره وقال لجيران أنه قتلها وقال قوم: لا بل هى عنده وقد أقامت سيدتها عليها المآتم وجاءت وضجت على بابه وسودت وجهها فلم ينفعها شيء، فلما سمع المعتضد سجد شكراً لله تعالى على انكشاف الأمر له وبعث في الحال من كبس على الهاشمى وأحضر المغنية وأخرج اليد والرجل إلى الهاشمى فلما رآها انتقع لونه وأيقن بالهلاك واعترف فأمر المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاتها من بيت المال وصرفها ثم حبس الهاشمى فيقال: إنه قتله ويقال: إنه مات في الحبس. انتهى.

ومن المنقول عنه أيضاً

روى أن أبا محمد عبد الله بن حمدون قال: كنت عند المعتضد بالله أحمد فقال: وقد قدم له العشاء: لقمنى وكان الذي قدم لي فزاريج ودراريج فلقمته من صدر فروج فقال: لا لقمنى من فخذه فلقمته ثم قال: هات من الدراريج فلقمته من أفخاذها فقال: ويلك هات من صدرها فقلت: يا مولاى ركبت القياس فضحك فقلت: إلى كم أضحكك ولا تضحكنى قال: شيل المطرح وخذ ما تحته قال: فشلته فإذا تحته دينار واحد قلت: آخذ هذا؟ قال: نعم قلت: يا أمير المؤمنين خليفة يجيز نديمه بدينار فقال: ويلك لا أجد لك في بيت المال حقا أكثر من هذا ولا تسمح نفسى أن أعطيك من مالى شيئا ولكن أحتال لك بحيلة فتأخذ فيها خمسة آلاف دينار فقبَّلت يده فقال: إذا كان غداً وجاءنى القاسم أعنى ابن عبيد الله أسارك حين تقع عينى عليه سراراً طويلاً وألتفت إليه كالمغضب وانظر أنت إليه في خلال ذلك كالمخالس لي نظر المترشح له فإذا انقطع السرار تخرج ولا تبرح من الدهليز حتى يخرج فإذا خرج خاطبك بخطاب جميل وأخذك إلى دعوته وسألك فاشك الفقر والخلة وقلة حظك منى وثقل ظهرك بالدين والعيال وخذ ما يعطيك واطلب كلما تقع عينيك عليه فإنه لا يمنعك حتى تستوفى الخمسة آلاف دينار فإذا أخذتها فسيسألك عما جرى بيننا فاصدقه وإياك أن تكذبه وعرفه أن ذلك حيلة منى عليه وحدثه بالحديث كله ليكن إخبارك إياه بذلك بعد امتناع شديد وإحلاف منه بالطلاق والعتاق بعد أن يخرج من داره كلما يعطيك إياه ويجعله في بيتك .

فلما كان من الغد حضر القاسم فحين رآه بدأ يسارنى وجرت القصة على ما وضعنى عليه فخرجت فإذا القاسم في الدهليز ينتظرنى فقال: يا أبا محمد ما هذا الجفا لا تجيئنى ولا تزورنى ولا تسألنى حاجة فاعتذرت إليه باتصال الخدمة علىَّ فقال: ما يقنعنى إلا أن تزورنى اليوم فقلت: أنا خادم الوزير فأخذته إلى طيارة وجعل يسألنى عن حالى وأخبارى وأشكو إليه القلة والفاقة والدين والبنات وجفاء الخليفة وإمساك يده فيتوجع ويقول: يا هذا مالى لك ولن يضيق عليك ما يتسع علىَّ أو يتجاوزك نعمة

حصلت لي ولو عرفتنى لعاونتك على إزالة هذا كله عنك فشكرته وبلغنا داره فصعد ولم ينظر في شيء وقال: هذا يوم أحتاج أن أختص فيه بالسرور بأبى محمد فلا يقطعنى عنه قاطع وأمر كتابه بالتشاغل بالأعمال وخلا بى في دار الخلوة فجعل يحادثنى ويبسطنى وقدمت الفاكهة فجعل يلقمنى بيده وجاء الطعام فكان هذا سبيله فلما جلس للشرب وقع لي بثلاثة آلاف دينار فأخذتها في الوقت وأحضر لي ثيابا وطيبا ومركوبا فأخذت ذلك وكان بين يدى صينية فضة فطلبتها منه فأعطانى إياها وأقبلت كلما رأيت شيئا حسنا له قيمة وافرة أطلبه وحمل إلىَّ فرشا نفيسا وقال: هذا للبنات فلما تقوض أهل المجلس خلا بى وقال: يا أبا محمد أنت عالم بحقوق أبى عليك ومودتى لك .

فقلت: أنا خادم الوزير فقال: أريد أن أسألك عن شيء واحلف لي أنك تصدقنى منه فقلت: السمع والطاعة فأحلفنى بالله والطلاق والعتاق على الصدق ثم قال لي: بأى شيء سارك الخليفة اليوم في أمرى فصدقته في كل ما جرى حرفا بحرف فقال: فرَّجت عنى وليكون هذا هكذا مع سلامة نيته لي أسهل علىَّ فشكرته وانصرفت إلى منزلى فلما كان من الغد باكرت للمعتضد فقال: هات حديثك فسقته عليه فقال: احفظ الدنانير ولا يقع لك أنى أعمل معك مثلها بسرعة انتهى .

ومن المنقول عنه أيضاً

قال ابن حمدون: كنت حلفت وعاهدت الله أن لا أعقد مالا من القمار وأنه لا يقع في يدى منه شيء إلا صرفته في ثمن شمع يحترق ونبيذ يشرب أو أجر مغنية فجلست يوما ألاعب المعتضد فقمرته سبعين ألف درهم فنهض المعتضد يصلى قبل العصر ركعات من قبل أن يأمر لي بها فجلست أفكر وأندم على ما حلفت عليه وقلت: كم أشترى من هذه السبعين ألف درهم شمعاً وشراباً وما كانت هذه العجلة في اليمين ولو لم أكن حلفت لكنت الآن اشتريت بها ضيعة وكانت اليمين بالطلاق والعتاق فلما سلَّم من الصلاة قال لي: في أى شيء تفكرت؟ فقلت: خير ، فقال: بحياتى اصدقنى فصدقته فقال: وعندك أنى أريد أن أعطيك سبعين ألفا في القمار

فقلت لـه: فتصغوا؟ قال: نعم قد صغوت قم ولا تفكر في هذا قال: ودخل في صلاة الفرض فلحقني غم أكثر من الأول وندم على فوت المال وجعلت ألوم نفسى لم صدقته فلما فرغ من صلاته قال: يا أبا عبد الله بحياتى اصدقنى عن هذا الفكر الثانى فصدقته فقال: أما القمار فقد قلت أنى صغوت ولكن أهب لك سبعين ألفا من مالى ولا يكون عليَّ إثم في دفعها ولا عليك إثم في أخذها وتخرج على يمينك فتشترى بها ضيعة حلالا فقبَّلت يده وأخذت المال فأعقلت به ضيعة .

ومن المنقول عن عضد الدولة

روى أن بعض التجار قدم من خراسان ليحج فتأهب للحج وبقى معه من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها فقال: إن حملتها خاطرت بها وإن أودعتها خفت جحد المودع فمضى إلى الصحراء فرأى شجرة خروع فحفر تحتها ودفنها ولم يره أحد ثم خرج إلى الحج وعاد فحفر المكان فلم يجد شيئا فجعل يلطم ويبكى فإذا سئل عن حاله قال: الأرض سرقت مالى فلما كثر ذلك منه قيل لـه: لو قصدت عضد الدولة فإن لـه فطنة فقال: أو يعلم الغيب؟ قيل لـه: لا بأس بقصده فقصده فأخبره بقصته فجمع الأطباء فقال: هل داويتم في هذه السنة أحدا بعروق الخروع فقال أحدهم: أنا داويت فلانا وهو من خواصك فقال: عليَّ به فجاء فقال لـه: هل تداويت في هذه السنة بعروق الخروع؟ قال: نعم قال: من جاءك به؟ قال: فلان الفراش فقال: عليَّ به فلما جاء قال: من أين أخذت عروق الخروع؟ قال: من المكان الفلانى فقال: اذهب بهذا معك وأره المكان الذي أخذت منه فذهب معه صاحب المال إلى تلك الشجرة وقال: من هنا أخذت ، فقال الرجل: ها هنا والله تركت مالى فرجعا إلى عضد الدولة فأخبره فقال للفراش: هلم بالمال الذي وجدته تحت شجرة الخروع فأعاد الألف دينار بعينها . انتهى .

(ومن المنقول عن جلال الدولة)

ذكر جلال فى تاريخه قال: حدثنى بعض التجار قال: كنت فى العسكر واتفق أن ركب السلطان جلال الدولة يوماً إلى الصيد على عادته فلقيه سوادى يبكى فقال: ما

لـك؟ فقال: لقيني ثلاثة غلمان أخذوا حمل بطيخ كان معي وهو بضاعتي فقال: امض إلى العسكر فهناك قبة حمراء فاقعد عندها ولا تبرح إلى آخر النهار فأنا أرجع وأعطيك مـا يغنـيك فـلما عاد السلطان قال لشرابيه: قد اشتهيت بطيخاً ففتش العسكر خيمهم عـلى شـيء مـنه ففعـل وأحضر البطيخ؟ فقال: عند من رأيتموه فقيل في خيمة فلان الحاجـب فقـال: أحضـروه فأحضـروه فقـال لــه: من أين هذا البطيخ فقال: الغلمان جـاؤوا به فقال: أريدهم الساعة فمضى وقد أحس بالشر فهرب الغلمان خوفاً من أن يقتـلهم فعـاد وقـال: قـد هربوا لما علموا بطلب السلطان لهم فقال أحضروا السوادي فقال لـه: هذا بطيخك الذي أخذ منك؟ قال: نعم فقال: خذه وهذا الحاجب مملوك لي وقـد سـلمته إلـيك ووهبـته لـك حـين لم يحضـر الذيـن أخـذوه منك والله لئن خليته لأضـربن عـنقك فـأخذ السـوادي بـيد الحاجـب فأخـرجه فاشترى الحاجب نفسه منه بـثلاث مائـة دينار فعاد السوادي إلى السلطان فقال: يا سلطان قد بعت المملوك الذي وهبـته لي بـثلاثمائة ديـنار فقـال: ورضـيت بذلـك؟ قـال: نعم، قال: اقبضها وامض مصاحباً. اهـ.

(ومن المنقول عن جلال الدولة أيضاً)

قــال الصابي: حكى من كان حاضراً بأصفهان قال: جاء إليه تركماني قد لزم بيد تـركماني فـلما دخلا إليه قال: قد وجدته أبني بابنتي وأريد أن أقتله بعد إعلامك قال لا بـل تزوجها به ونعطي المهر من خزانتنا فقال: لا أقنع إلا بقتله فقال: هاتوا السيف فجـيء به فسلمه وقال للأب: تعال، فلما قرب منه أعطاه السيف وأمسك بيده الجفن وأمـره أن يعـيد السيف إلى الجفن فلما رام الرجل ذلك قلب السلطان الجفن ولم يمكنه مـن إدخال السيف فقال: يا سلطان ما تدعني فقال: كذاك ابنتك لو لم ترد ما فعل بها هـذا فـإن كنـت تـريد قـتله لأجـل فعلـه فاقتـلهما جميعاً ثم أحضر من زوجه بها هذا وأعطاه المهر من خزانته.

(وذكر محمد بن عبد الملك الهمداني) أن أحمـد بن طولون جلس يوماً في منتزه لـه يـأكل فـرأى سائلا في ثوب خلق فوضع بيده في رغيف ودجاجة وقطعة لحم وقطعة

فالوذج وأمر بعض الغلمان بمناولته فرجع الغلام وذكر أنه ما هش له فقال ابن طولون للغلام: جئنى به فمثل بين يديه فاستنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيبته فقال له: أحضرنى الكتب التى معك وأحضرنى من بعث بك فقد صح عندى أنك صاحب خبر فأحضر السياط فاعترف له بذلك فقال بعض من حضر: هذا والله السحر ، فقال أحمد: ما هو بسحر ولكنه قياس صحيح رأيت سوء حال هذا فوجهت إليه بطعام يشره إلى أكله الشبعان فما هش له ولا مد إليه فأحضرته فتلقانى بقوة جأش فلما رأيت رثاثة حاله وقوة جأشه علمت أنه صاحب خبر .

(**رأى ابن طولون**) يوماً حمالا يحمل صناً وهو يضطرب تحته فقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال وأنا أرى عنقه بارزة وما هذا إلا من خوف ما يحمل فأمر فحط الصن فوجد فيه جارية قد قتلت وقطعت فقال: اصدقنى عن حالها فقال: أربعة نفر فى الدار الفلانية أعطونى هذه الدنانير وأمرونى بحمل هذه المقتولة فضرب الحمال مائتى سوط وأمر بقتل الأربعة . اهـ .

(**وكان ابن طولون**) يبتكر ويخرج فيسمع قراءة الأئمة فى المحاريب فدعا بعض أصحابه يوماً وقال: امض إلى المسجد الفلانى واعط إمامه هذه الدنانير قال: فمضيت وجلست مع الإمام وباسطته حتى شكى إلىَّ أن زوجته ضربها الطلق ولم يكن معه ما يصلح به شأنها وأنه صلى فغلط مراراً فى القراءة فعدت إلى ابن طولون وأخبرته فقال: صدق لقد وقفت أمس فرأيته يغلط كثيراً فعلمت شغل قلبه .

(**حكى**) أن غلامين أخوين كانا لبعض الملوك فمضى أحدهما إلى وزير الملك يطلب منه شيئاً فلم يعطه فقال لأخيه: لأزيلن الوزير عن ملكه فقال له أخوه: من أنت حتى تقدر على هذا؟ قال: سترى فلما جاء الليل جلس عند الملك يغمز رجليه فلما قارب النوم قال لأخيه: يا أخى علمت أنى رأيت البارحة الوزير خارجا من عند الملك داخلا إلى عند نسائه فلحقته فقلت: إلى أين؟ فقال: غلطت ولم أدر أين آخذ فعلمت أنه لم يسلك تلك الطريق إلا وقد تعود ذلك فلما أصبح الملك قبض على وزيره استأصله فمر به الوصيف يوماً وقال: يا فلان أيما كان خيراً تعطينى ما طلبت أو

هذه الحال قال: وإنك لصاحبى؟ قال: نعم قال: الله حسبك قال: فما تقول تعطينى ما طلبت ثم انصرف إلى أخيه المملوك فحثه فقال: كيف لك بأن تصلح ما أفسدت قال: دعنى والأمر فلما كان الليل وقارب الملك النوم قال الوصيف لأخيه: وددت ولو كنا لرجل من السوقة قال: ولم قال: إن السوقة إذا غضبت علينا وجدنا من ينصفنا أويشفع إليهم والملك إذا سخط لم يكن فى سخطه إلا العطب قال: وما ذاك؟ قال: الوزير قد عرفت أمانته ونصيحته وما آل إليه ولم أعرف لحاله سبباً فاستوى الملك جالساً وقال: أيها الملك وإنما هذا لذاك قال: نعم قال: إنما كانت مناماً رأيته فندم الملك على ما صنع فلما أصبح أعاده إلى مكانه (ويشبه هذا) ما حكى أن مزيداً كان يدخل على بعض ولاة المدينة فأبطأ عليه ذات يوم ثم جاء فقال: ما أبطأ بك عنى؟ قال: جارة لى كنت أهواها منذ حين فظفرت بها ليلتى وتمكنت منها فغضب الوالى وقال: والله لأخذتك بإقرارك فلما رأى مزيد الجد منه قال: فاسمع تمام حديثى قال: وما هو؟ قال: فلما أصبحت خرجت أطلب مفسراً يفسر لى رؤياى فلم أقدر عليه إلى الساعة قال: ويلك أفى المنام رأيت هذا؟ قال: نعم فسكن غضبه .

(روى أن رجــلا من تميم) يقال لـه: حنظلة وكان لـه ولد يسمى مرة وكان الولد مطيعاً لأبيه حتى إذا كان شاباً عصاه وخالفه فقال لـه أبوه: إنك لمر يا مرة . فقال: أعجبتنى حلاوتك يا حنظلة . قال: إنك لخبيث كاسمك قال: أخبث منى من سمانى به . قال: ما أحوجك إلى الأدب . قال: الذى نشأت على يديه أحوج منى إليه . قال: عقمت أم ولدتك قال: نعم إذا لقحت منك قال: إنك لمشئوم على أخوتك إذ دفنتهم وبقيت قال: قد أعجبتنى كثرة عمومتى يا مبارك . قال: ما أراك من الناس . قال: أجل لأنى أشبهت والدى . قال: قد حزمت عليك جهدى . قال: ما أتيت إلا من عجزك . قال: أمان لأدعون الله عليك بالجزاء . قال: الذى تدعوه عالم بك . قال: أمان الله ما جرأك على هذا الكلام أحد غيري . قال: فنفسك إذا فلم لأستقلن من أمرى ما كنت مصنعاً لا ترد فى يديك إلا الخيبة . قال: إنك لكثير العيوب . قال: إلا ما فضلك الله به يا أبت قال: ما أرى أحدا أعرف بك منى . قال: فكيف ترى معرفتي بك إذا؟ قال:

لقد كنت آمناً أن تجاوبني بمثل هذه . قال: ما كلامك فى كلام من يخاف الجواب؟ قال: إنك لشبيه بأمك . قال: ما كنت بأشر من زوجها . قال: أراحنى الله منك . قال: ذلك إليك . قال: ومن لى بذلك؟ قال: اختنق حتى تموت وتسترح منى . قال: ما يزداد كلامك علىَّ إلا غيظاً . قال: فهل يجنى من الشوك العنب؟ قال: أمان الله إنى لعارف بك آنفاً . قال: وأنا والله ما أنكرك . قال ما أجد لك خيراً من السكوت . قال: أجد لك خيرا من السكوت . قال: فأراك لا تترك أذاك . قال: ومن يمنعني من ذلك؟ قال سوء خلقك يمنعك من السكوت قال: لقد آيست من فلاحك . قال: كيف يفلح من أنت أبوه؟ قال: لئن قمت إليك لأوجعنك ضرباً . قال: لقد تقدم إلىَّ من هو أشد منك ضرباً وبطشاً . قال: لقد هممت أن آخذ نصف هذه الأجرة فأضرب بها رأسك . قال: فما أصنع بنصفها الآخر؟ قال: لا جازاك الله خيراً . قال: لست مستجاب الدعوة قال: وما أكثر ما أعرف من مساويك . قال: ما عرف الله منك أكثر . قال: ما يعرف منى إلا خيراً . قال: مادح نفسه يقرئك السلام . قال: لأشكونك إلى القاضى . قال: القاضى بك أعرف . قال: ما يعرف منى؟ قال: حيث لا يجيز شهادتك . قال: سود الله وجهك . قال: بيض الله عينيك . قال: ألم الله بك البلاء . قال: وأحل بك الفناء . قال: ولد الناس أولادا وولدت شيطاناً . قال: العصا من العصية ولا تلد الحية إلا حية . انتهى .

(**ومن النوادر الغريبة**) ما حكاه بعض الكتاب قال: اجتزت يوما بسوق الرقيق وأنا إذ ذاك شاب وكنت لهجاً بالغلمان فرأيت غلاماً أمرد فى نهاية الحسن والجمال والملاحة ينادى عليه بنيف وخمسين دينارا وهو يساوى على حسن وجهه ثلاثمائة دينار فقلت للنخاس: أتبيع هذا الغلام؟ فقال: إنه طباخ شرابى حاسب كاتب يحسن كل صنعة حسنه كامل من غلمان الملوك إلا أن له عيباً قد نقص فى ثمنه وليس يخليه عنده أحد فقلت: وما عيبه؟ قال: يطنز بمولاه . قلت: هل غير هذا شيء؟ قال: لا قلت: لا يكون هذا إلا من إفراط البطر وخفة الروح وأنا أرضى أن يطنن بى ألف لون من الطنز وأتمتع به

وحدث له فى قلبى عشق شديد فقلت له: يا غلام ما عندك فيما قال النخاس؟ قال: يا مولاى الذى عرفك من صنائعى صحيح وأنا أحسن أكثر منه ولكن عيبى قد سمعته قلت: فمن أى جنس تطنز بمواليك قال: هذا لا يكون له جنس ولكن لا أزيد على أن أطنز بك وبكل ما يمكنني على مرة من النهار ولا أزيد على ذلك فقلت: قد رضيت بهذا العيب قال: فاستخرت الله فابتعته بستين دينارا وحملته إلى دارى فما بان منه بقية نهاره شيء فلما كان من الغد حضرت وضيفى من الطعام وعدت نصف النهار وقد جعل دارى كافورة بالكنس والغسل والفرش وحضر فرشى وآلات الشراب والفاكهة وأصلح مشموماً لم أر مثله قط وبخر الدار والآلات وأقام الدنيا على ساق بأحسن خدمة فى الدنيا فاحتوى على مجامع قلبى فلما قدمت وجلسنا نأكل رأيت مائدة ما رأيت لنفسى أحسن منها تعبية ولبس هو ثيابا نظافا ووقف يكرر ما على رأسى وأنا آكل إلى أن قدمت أسفيدباجة فأحسست بشيء ينزل فى مرقها فيطلع على وجهى وقماشى ويرشش فى وجهى وأوجه الحاضرين فتصير ثيابنا بالمرق شهرة فرفعت رأسى أنظر ما هو فإذا الغلام بيده كف حمص يرميه إلى المرق فيرشش المرق علينا فقلت: ما هذا ويلك؟ قال: الشرط أما هذا من الطنز الذى برئ إليك منه النخاس قلت: ففى عزمك أن تطنز اليوم غير هذا؟ قال: لا فقمت وسهل علىَّ حمل ذلك القدر منه وغسلت يدى ولحيتى وغيرت قماشى ودخلت إلى مرقدى ودخل معى فكبسنى أطيب تكبيس وخدمنى أحسن خدمة يومى وليلتى وصار كل يوم يستعمل معى شيئاً من الطنز جارياً هذا المجرى وكله يسهل علىَّ ومحله يقوى فى نفسى ومحبته تتمكن من قلبى ومضيت أياماً وكنت قريب عهد بزفاف فدعانى صديقاً لى فى دعوة فمضيت إليه فلما حصلت عنده قلت للغلام: خذ قماشى فارده وجئنى بمنديل وإذا كان وقت المغرب فدع الغلام يحمل شمعة واحضر إلى بدابة لأنصرف إلى منزلى فمضى وغاب إلى أن انتصف النهار وعاد وأنا

أغسل يدى وأريد الشرب وهو مستعجل يصيح: يا سيدى يا سيدى فارتعدت وقلت له: ما لك؟ فقال: ليس يصلح أن أحدثك بحضرة الجماعة فقمت وقلت: ما لك؟ فقال: ستى لما ركبت أدخلت إلى البيت عشيقا لها ففطن الجيران وأنكروا عليها فشتمتهم فكبسوا الدار وأخرجوا الرجل وجاء أبوها وأخوها وصاحب الشرطة وارتج الشارع بخبرهم قال: فدخل قلبى أمر عظيم لأنها امرأة قريبة عهد بنقلة ولا علم لى بها ولم أظن أن هذا مما يبلغه طنزه إليه فخرجت من عند صاحبى أمشى فى الشمس حتى جئت فوجدت السكة منقلبة على الحقيقة فحين جئت بدأنى الأب وقال: يا عدو الله هبك لم تشفق على محلك وصناعتك وعلى ما بيننا من المصاهرة ما خفت الله تمضى وتحصل فى بيت قواد مع قحبة حتى تكبس بالشرط حتى بلغنا خبرك وخرجت أهلك حاسرات فى طلبك وشاع مثل هذا فى جيرانك فقلت: يا فاعل يا صانع ابنتك أنت أدخلت رجلا إلى دارى حتى كبسها الجيران وأنت تنسب إلىَّ مثل هذا؟ فقالت الجماعة: شه عليك أف عليك هذا الكلام وتردد الكلام فانكشف بطلان ما بلغنى وما بلغهم وإذا الغلام أخبرنى بهذا على امرأتى وأخبر امرأتى عنى أننى فى منزل قواد وأننى كبست بالشرطة وقال لزوجتى: قومى فاخرجى أنت وأهلك خلفه وامض إلى الحبس وأغرموا عنه وخلصوه فلما انكسرت ثورة الغضب تأملت ما جرى وإذا أقل ما فى القضية أنى أطلق امرأتى وأتعجل سوء السمعة لى ولأهلى فبادرت لأوقع بالغلام فوجدته قائماً يضحك فقلت: ما هذا ويلك؟ قال: من الطنز الذى برئ إليك منه النخاس فلعظم ما كان فى قلبى فى محبته رجعت بالندم على نفسى وعملت على بيعه ولم يرض القوم منى إلا بذلك أيضاً فقلت: يوم السبت أنادى عليه وأبيعه وقلت فى نفسى: أتمتع به إلى يوم السبت فلعل أن يخف ما بقلبى منه ثم أبيعه وداريت أهلى ووهبت لهم دارهم وثياباً واعتذرت من أبيها وأخيها فلما كان من الغد ركبت واستقبلنى رجل من وجوه القضاة

وكانت بيننا مودة فوقف يحادثني وقال لي: إلى أين عزمت؟ فقلت: إلى دار الوزير فقال: نتصاحب جميعاً فتسايرنا وتحدثنا واستقبلنا صديق لنا فوقفنا نحدثه ساعة ثم فارقنا وأردنا نسير فلم نقدر ومالت دابتى على دابته فكدنا نسقط وسقطت قلنسوة القاضى وطيلسانته وتشوش ودابته ترمح دابتى وصرنا حكاية فلويت وجهى أتأمل السبب فإذا ذنب الدابتين قد ربطا ربطاً محكماً كل واحد منهما بالآخر فكلما همت الدابة بالمسير فلم تقدر وترمح الأخرى فنزلت من على دابتى وقلت للقاضى: انزل ففعل وجاء الغلمان إلى الدابتين فحلوهما وطلبت الغلام فإذا هو مستند إلى الحائط يضحك فعدت إلى منزلي وخلوت بالغلام وقلت: يا هذا إنى عاشق لك ومحب فيك فيجب أن لا تفارقنى وقد كنت تستعمل معى ضروباً مثل حديث الحمص والمرقة فاحتملته وقد حالت الفريضة فإنك سعيت بالأمس على خراب منزلى وطلاق زوجتى وجعلتنى وإياها فضيحة وإن كان باطلا فالأعداء لا يكذبونه واليوم سعيت على دمى وعلى دم قاض من قضاة المسلمين وهذا خارج عن الطنز فهل يمكنك ترك هذه الأفاعيل وأنا أعطيك مائة دينار وأعطيك من الثياب كذا وأجرى عليك فى كل شهر كذا؟ وأوسعت له المواعيد فقال: يا مولاى ما ظننت عقلك هكذا؟ فقلت: كيف؟ فقال: كم أساوى على حسن وجهى لو لم أحسن الصنائع التى شاهدتها؟ قلت: ثلاثمائة دينار فقال: وعلى هذه الصنائع؟ قلت: ضعف الثمن فقال: لو علمت أني أقدر على مفارقة هذه الأخلاق لوجدت ألف قائد ووزير وحاجب وأمير وصاحب ديوان أكون عنده فى السماء لا تقدر أنت ولا نظراؤك على رؤيتى إلا من بعيد فضلا عن ملكى وهو نقص ثمنى حتى أتضع محلى ولن تقدر أنت على شرائى إلا بهذه العيوب حتى صار مثلك يشترينى وكم حسبت وضربت وقيدت وعوقبت وألبست الصوف وبت فى الكنيف ولم أقدر فرفق بى وأحسن إلىَّ وخلع علىَّ ووهب لى الذهب لأدع هذه الخصال فما قدرت وهل

ببغداد رئيس لا يعرفني أو قد ملكني يوماً لفرط عشقهم لى وشغفهم بى فحين أبتدى معهم بشيء من هذا الخبر يعاقبوني أو يتوعدوني أو يعجلون ذلك إلىَّ وأنا لا أقدر على ترك هذا وما كان من عجبى إلا من صبرك على اليوم شهراً فإنه منذ حدثت إلىَّ هذه العيوب ما صبر أحد على ملكى أكثر منك قلت: فاعتمد من الطنز ما يخف ولا يبلغ إلى خراب البيوت وذهاب الأموال والجاه والخوف على النفوس وأضعف لك ما وعدتك فقال: يا مولاى هذا طويل وأحتاج إلى كاتب ومشير يميز لى ما أعمله من الطنز مما لا أعمله وليس إلى الاشتغال من ذلك سبيل فإن صبرت وإلا فالسوق فأخرجته إلى النخاسين وقد استطال مكثه عندى فبعته بنيف وأربعين ديناراً انتهى.

(**يحكى أن رجلاً**) كان فى جوار أبى عمر القاضى وقد ظهر فى يده مال جزيل بعد مضايقة شديدة فسأله القاضى عن سبب ذلك فقال له الرجل: إننى قد ورثت مالاً كثيراً من أبى فأسرفت فيه وأتلفته جميعه حتى احتجت إلى بيع سقوف البيت وأبوابه ولم يبق لى فى البيت حيلة وبقيت لى مدة لا قوت لى إلا من بيع أمى من ثمن الغزل وتطعمنى وإياها منه فتمنيت الموت كى أستريح فنمت ليلة من الليالى فرأيت فى منامى كأن قائلا يقول لى: غناك بمصر اخرج إليها فبكرت بالخروج إليها فلما وصلت إلى مصر سد الله علىَّ الوجوه ولم أظفر بأحد يطعمنى كسرة خبز فبقيت متحيراً فقلت فى نفسى: بعد المساء أدور فى السوق لعل الله يرزقنى بإنسان يطعمنى فما زلت أمشى بعد المساء إلى أن مضى من الليل ثلثه فلقينى العسس وأنا دائر جيعان حيران تعبان عريان فقبض علىَّ واحد فأنكر حالتى فسألنى فقلت: غريب ضعيف فلم يصدقنى وبطحنى وضربنى فصحت من شدة حرقان الضرب فقلت: أصدقك قال: هات فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها وحديث المنام فقال: ما رأيت رجلاً أحمق منك والله لقد رأيت أنا منذ كذا وكذا سنة فى النوم قائلاً يقول لى: غناك ببغداد فى الشارع الفلانى فى المحلة الفلانية فى دار

فلان فذكر شارعى ومحلتى ودارى فسكتُ وأتم الشرطى الحديث إلى أن قال فى بستان فى الدار سدرة وتحتها مدفون ثلاثون ألف دينار فامضِ فخذها فما فكرت فى هذا المنام ولا التفت إليه وأنت رجل أحمق فارقت وطنك وأهلك وجئت إلى مصر بسبب حلم فقوى قلبى بذلك وأطلقنى الطائف فنمت فى مسجد وخرجت من غد من مصر فقدمت بغداد ودخلت الدار فقلعت السدرة وحفرت مكانها فوجدت فيها قمقماً نحاسيا فيه ثلاثون ألف دينار فأخذتها وأمسكت يدى ودبرت أمرى والآن أعيش فى تلك الدنانير وأحمد الله تعالى على هذه الحالة . انتهى .

(**روى العماد الكاتب**) فى كتابه روضة المحبين عن المدائنى قال: امتدح ربيعة الرقى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بقصيدة نادرة جيدة مختارة عند الشعراء لم يسبق إليها أحسن منها قوله :

لو قيل للعباس يا ابن محمد ::: قل لا وأنت مخلد ما قالها
ما إن أعد من المكارم خصلة ::: إلا وجدتك عمها أو خالها
وإذا الملوك تسايروا فى بلدة ::: كانوا كواكبها وكنت هلالها
فإن المكارم لم تزل معقولة ::: حتى حللت براحتيك عقالها

قال: فبعث إليه العباس بدينارين وكان ربيعة قدر أن يعطيه ألفين فلما نظر إلى الدينارين كاد أن يجن وقال للرسول: خذ الدينارين وهما لك وعلىَّ أن ترد الورقة من حيث لا يدرى العباس فأخذ الرسول الدينارين ورد الورقة من حيث لا يدرى العباس فأخذ الرسول الدينارين ورد الورقة إليه فأخذها ربيعة وكتب فى ظهرها هذه الأبيات:

مدحتك مدح السيف المحلا ::: لتجرى فى الكرام كما جريت
فهبها مدحة ذهبت ضياعاً ::: كذبت عليك فيها وافتريت
فأنت المرء ليس له وفاء ::: كأنى إذ مدحتك قد زنيت

ثم دفع الرقعة إلى الرسول وقال له: ضعها فى الموضع الذى أخذتها منه فأخذها الرسول وردها إلى موضعها فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها فإذا فيها

الأبيات الأخيرات فغضب من ذلك وسأل عن محضرها فلم يقع على خبره فأتى الرشيد وكان أحد عمومته وكان أثيراً عنده يبجله ويعظمه ويكرمه وقد كان هم أن يخطب منه ابنته فرأى الكراهة فى وجهه فقال له الرشيد: ما شأنك وما خبرك؟ قال: هجانى ربيعة الرقى فقال الرشيد: علىَّ بابن الخنا أيهجو أحد عمومتى وأعزهم عندى؟ فأحضروه بين يديه فقال له: يا ابن الخنا تهجو أحد عمومتى؟ والله لقد همت أن أضرب عنقك فقال: يا أمير المؤمنين والله لقد مدحته بقصيدة ما لأحد من الشعراء فى أحد من الخلفاء مثلها ولقد بالغت فى الثناء وأكثرت من الوصف فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضارها فلما سمع الرشيد ذلك سكن غضبه وأحب أن ينظر فى القصيدة فأمر العباس بن محمد بإحضارها فتلكأ عليه العباس فقال الرشيد: سألتك بحق أمير المؤمنين إلا ما أمرت بإحضارها فعلم العباس أنه قد أخطأ على نفسه وغلط فأحضرت فأخذها الرشيد فإذا فيها هذه الأبيات لو قيل للعباس يا ابن محمد حتى أتى على الأبيات فأعجب بها وقال: لقد صدق ربيعة الرقى فى قوله ما قال أحد من الشعراء فى أحد من الخلفاء مثلها ثم قال للعباس: كم أثبته عليها؟ فسكت العباس حياء من الحاضرين فقال ربيعة: أثابنى عليها دينارين يا أمير المؤمنين فتوهم الرشيد أنه يقول ذلك من الوجدة فقال: ويحك يا رقى كم أثابك على هذه الورقة؟ واصدق قال: وحياة رأس أمير المؤمنين ما أثابنى عليها سوى دينارين فغضب الرشيد لذلك ونظر فى وجه العباس وقال سوءة لك فضحت آباءك وأجدادك وفضحت نفسك بين الناس فتكسر العباس رأسه حياء من الخليفة والحاضرين ولم يجد جواباً فقال الرشيد: يا غلام أعط ربيعة الرقى ثلاثين ألف درهم فلمَّا همَّ ربيعة الرقي بالرواح قال له الرشيد: يا رقي لا تذكره فى شعرك بعدها وفترت همة الرشيد عما كان به من التزويج وأبعده وأقصاه . انتهى .

(روى عن الأصمعى) أنه قال: ما شعرت فى بعض الأيام إلا وقد جاءنى أربعة رجال أدباء شعراء حداد وقصَّار وخباز وطبيب وقالوا: جئناك لتحكم بيننا وتنظر فى أشعارنا فقد ضمَّن كل واحد منا صناعته فى أبيات من الشعر

فقلت: هاتوا فأنشأ الحداد يقول:

مطارق الشوق فى قلبى لها أثر ::: يطرقن سندان قلب حشوه فكر
ونار كير الهوى فى القلب مضرمة ::: ومبرد الشوق لا يبقى ولا يذر
كيف احتيال فتى لاقى على مضض ::: فى لوعة الشوق ما لم يلقه بشر
قد جللت كلبة التجرار مقلته ::: لأن ثقل الهوى عن بابها عسر

قال الأصمعى: فاستحسنت ما قاله ثم أنشأ القصار يقول:

غسلت بصابون الهوى شقة الوصل ::: وأخلفتها بالدق والجد والهزل
وأغلقت أشنان القطيعة والجفا ::: لأنقى أثواب السماحة والبذل
ومن بعد ذا يضرب ذابياً ::: فؤادى يكر دين الصبابة والمطل
لئن دام منك لا شك أننى ::: سأبسط أثواب السلو على حبل

قال الأصمعى: فاستحسنت قوله ثم أنشأ الخباز يقول:

عجنت دقيق الوصل فى جفنة الود ::: وخمرته ماء الغرام على عهد
وألقيت شوك البين فى مخبز الهوى ::: واتعبت فيه من بلاء ومن جهد
فكرهته والشوق ينحل من يشاء ::: ليجعله تحت الرغيف على ند
فلما تدانى قلعه ونضاجه ::: تساقط فى الشور من شدة الوجد

قال الأصمعى: فأعجبنى ما قال ثم أنشأ الطبيب يقول:

شربت فكم فى القلب من كرب شربه ::: لتطفى بها نارى وقد وساوسى
بعناب بين سيسبان لسلوة ::: وآجاص هجران مع ترنداسى
وصفيته حتى إذا عمل الدوا ::: طرحت هواكم بين خمس مجلس

فقال لهم الأصمعى: امرأة من يحكم بينكم طالق كلكم والله لقد أجاد فى شعره.

(قال الأصمعى) بينا أنا فى بعض أسفارى إذ رأيت أعرابياً فى أيام البرد الشديد وقد أوقد نارا وهو يصطلى بها وعليه عباءة مخرقة وهو شيخ كبير وهو ينشد ويقول:

إذا الله أعطانى قميصاً وجبة ::: أصلى له حتى أغيب فى القبر
وإن لم يكن إلا بقايا عباءة ::: مخرقة ما لى على البرد من صبر
أيحسب ربى أن أصلى عارياً ::: ويكسو غيرى كسوة البرد والحر
فوالله لا صليت لله مغربا ::: ولا أختها الأخرى ولا مطلع الفجر

ولا الظهـر إلا يـوم شمـس دفـية ::: فـإن غيمـت فـالويل للظهر والعصر

فقـال الأصـمعي: فقلـت: يـا أخـا العرب فإن كساك الله تصلى؟ قال: أى ورب الكعبة قال: فأعطيته فضل كساء كان عليَّ فأخذه ولبسه وتيمم والماء بين يديه فقلت: يـا هذا لا يجوز لك التيمم والماء قريب منك فقال: أنا أعلم منك بهذا ثم توجه يصلى قـاعداً فقلـت: يـا هذا لا يجوز لك أيضاً أن تصلى قاعداً وأنت تقدر على القيام قال: بـلى فـإنى أجـد الاعتذار إلى ربى ثم كبر وقال: بسم الله الرحمن الرحيم وجعل يقول فى صلاته:

إلـيك اعـتذارى فى صـلاتى قـاعداً ::: عـلى غـير طهـر مومـيا نحو قبلتى
فمـا لى بـبرد المـاء يـا رب طاقـة ::: ورجـلي لا تقـوى عـلى حمل ركبتي
ولكـنني أحصـي صـلاتي قـاعدا ::: وأقضـيكها يـا رب فى وقـت صحتى
فـإن أنـا لم أفعـل فأنـت محكـم ::: بصـفعك رأسـى ثم نـتفك لحـيتى

قال الأصمعي: فضحكت ثم قلت: إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

(قال بعض العطارين): جاءنـا أبو العتاهية إلى دكاننا فتحدث وكتب الناس عنه ثم تناول دفترا وكتب على ظهره:

أيـا عجـبا كـيف يعصـى الإلـه ::: أم كـيف يجحـده الجـاحد
ولله فى كـل تحـريكة ::: وتسـكينة أبـدا شـاهد
وفى كـل شـيء لـه آيـة ::: تـدل عـلى أنـه الواحـد

ثـم مضـى وجاء أبو نواس فنظر إلى الدفتر وقال: من كتب هذين البيتين قلنا: أبو العتاهية فقال: والله لوددت أنها لى بجميع ما قلت ثم تناول الدفتر وكتب ظهره:

سبحان من خلق الخلق من ضعيف مهين ::: فسـاقه مـن قـدر إلى قـرار مكـين
يحـول شيئاً فشيئاً فى الحجر دون العيون ::: حـتى بدت حركات مخلوفة من سكون

ثـم مضى وخلفه أبو العتاهية فقال: من كتب هذه الأبيات؟ قلنا: أبو نواس قال: والله لوددت أنها لى بجميع ما قلت .

(قيل: لما قدم أبو نواس مصر) كـان يجلس فى الجامع والناس حولـه وهو ينشدهم الأشـعار وهـم يكتـبون عنه وكان بمصر رجل يعرف بالحسن بن عمر الأجهرى يقول

الشعر الضعيف وكان ناقص العقل فقيل: إن أردت أن يعلو شأنك فى الشعر فاهج أبا نواس فأتاه وهو جالس فى المسجد والناس عنده فأنشده:

ألا قـــل للنواســـى ::: الضـــعيف الحـــال والقـــدر
خـــبرنا مـــنك أحـــوالا ::: فـــلم نحمـــدك فى الخـــبر
ومـــا إن زعـــت بالمـــنظر ::: ولكـــن زعـــت بالذكـــر

قـال: وكـان هـذا الشاعر أوحش الـناس صورة فنظر إليه أبو نواس فقال: بماذا أهجـوك وأى شـيء أصـفك وقـد سبقنى الله تعالى إلى توحيش منظرك وتقبيح مخبرك وهل أكون إن قلت شيئاً إلا سارقا من ربى ومتكلفا ما قد كفانى؟ فقال لـه بعض من معه: على كل حال لا يقول هذا أنه أفحمك فقال فى وزن شعره:

بمـــا أهجـــوك لا أدرى ::: لســـانى فـــيك لا يجـــرى
إذا فكـــرت فى هجـــوك ::: أبقيـــت عـــلى شـــعرى

قال: فقاموا إلى أبى نواس فقبلوا رأسه وضعفوا الأجهرى .

(ودخـــل الجـــامع مرة يطوف فيه) فانـتهى إلى رجـل فقيل لـه: لم سميت السماء سمـاء؟ قـال: لأنهـا سمـت فعلـت فصـارت سماء قال: والأرض قال: لأنها أرضت فأرضـت فعـادت أرضـاً ثـم قـام وعـدل عـنه إلى مجلس يتناشد فيه الشعر وبين القوم رجـلان فقـال لأ كـبرهما: مـا اسمـك؟ قـال: اسمـى عمرو وكنيتى أبو النجم واسم صـاحبى دل ونحـن شـعراء مصر فقال لـه: كيف بصرك بالنحو؟ قال: منى يؤخذ هذا العـلم فقـال: كـيف تقـول أكلت خردلا؟ فقال: أكلت خردلا يا هذا قال: فثنهِ . قال: أكلـت خـردلين قـال: فاجمعـه قـال: أكلت خرادل قال: وما الذى دعاك إلى أكل خرا صاحبك؟ ففطن لما قال وقام عنه خجلا .

(قيل: خرج أبو نواس يوماً) من دار الرشيد فقفاه الرقاشى فتبعـه فقـال: أبشـر أبا عـلى بولايـة وَلاَّكهـا أمـير المؤمـنين فـى هذه الساعة قال: وما هى؟ قال: ولاك على القردة والخنازير فقال أبو نواس: فاسمع الآن وأطع فإنك من رعيتى .

(ومـــر بـــأبى نواس) عثمان بن حفص الثقفى وهو ناقه من علة قد صفرت لونه

فقال: ما لى أراك مصفرا يا أبا على؟ قال: لما رأيتك ذكرت ذنوبى فقال: ولماذا تذكر ذنوبك عند رؤيتى؟ قال: خشية أن يعاقبنى الله فيمسخنى مثلك .

(**قيل: أتى أبو العتاهية**) الحسن بن هانى فقال له: أنت الذى لا تقول الشعر حتى تؤتى بالرياحين والزهر فتوضع بين يديك؟ فقال: وما ينبغى للشعر أن يقال إلا على هكذا فقال: أما أنا فلا أقوله إلا على الكنيف قال: وكيف يوجد فيه الرائحة .

(**حدث النفرى عن على بن يوسف**) قال: كنا ندور مع أبى نواس بالليل فى شهر رمضان فانتهينا ليلة إلى مسجد السلولى فإذا ابنه يؤم بهم كأنه الشمس الطالعة له غرة كغرة القمر ليلة البدر وهو يريد أن يختم القرآن وقد ابتدى عند انتهائه إليه فى سورة ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ فقال أبو نواس: قراءته والله أحسن من وجهه وإن كان لا يعدل وجهه شيء حسنا ثم قال على البديهة شعرا:

وقرأ معلنا ليصدع قلبى ::: والهوى يصدع الفؤاد السليم
أرأيت الذى يكذب بالد ::: ين فذلك الذى يدع اليتيم

(**قال إبراهيم بن جرير**) الكوفى: أخبرنى ابن الذاية أن أبا نواس اجتمع يوماً مع صريع الغوانى والخليع والرقاشى فى مجلس بعض الرؤساء فاقترح صاحب المجلس عليهم شعراً تضمن القرآن فقال أبو نواس :

وفتية فى مجلس ريحانهم ::: ووجوههم قد عدموا المثيلا
دانية عليهم ظلالها ::: وذللت قطوفها تذليلا

فبلغ خبر المجلس دعبلا فتكلف سلوك طريق أبى نواس فقال:

ويخزهم وينصركم عليهم ::: ويشف صدور قوم مؤمنين

ومن شعر أبى نواس قوله:

لولا تأنيك ما اغتررت ولا ::: حط ركابى بأرض مغترب
ولا تخطيت فى الصلاة إلى ::: قراءة تبت يدا أبى لهب

وهذه أرجوزة أتى بها عام حجه:

لبيك إن الحمد لك ::: والملك لا شريك لك

والسابحات فى الفلك ::: على مجارى المنسلك
والليل لما أن حلك ::: إلهنا ما أعدلك
مليك كل من ملك ::: وكل من أهل لك
ما خاب عبد سالك ::: يا خاطئاً ما أغفلك
اعمل وبادر أجلك ::: واختم بخير عملك
لبيك قد لبيت لك ::: لبيك إن الحمد لك

(قيل: خرج أبو نواس يوما) مخمورا بنسم الصبا فانتهى إلى الكناسة فتلقاه أعرابى ومعه غنم يسوقها فناداه أبو نواس:

أيا صاحب الذود اللواتى يسوقها ::: بكم ذاك الكبش الذى قد تقدم

قال الأعرابي

أبيعكه إن كنت تبغي ابتياعه ::: ولم تك مزاحا بعشرين درهما

فقال أبو نواس:

أجدت هداك الله رد جوابيا ::: فأحسن إلينا إن أردت تكرما

فقال الأعرابى

أحط من العشرين خمسا فإننى ::: أراك ظريفا فاحملنها مسلما

فأعجب أبا نواس الأعرابى فقال: ممن أنت؟ قال: من باهلة فأنشأ أبو نواس:

وباهلى من الأعراب منتخب ::: جادت يداه بوافى القرن والذنب
فإن يكن باهليا عند نسبته ::: ففعله قرشى كامل النسب

* * * * *

الباب الخامس عشر

فى ذكر طرف من النوادر

صـــعد بعض الولاة المنبر ليخطب يوم جمعة فحمد الله ثم قال: أتـدرون ما أريد أن أقـول لكم؟ قالوا: لا قال: فإذا لم تدروا فلماذا أتعب نفسى؟ ونزل وصعد فى الجمعة الثانـية فقال: أتدرون ما أريد أن أقولـه لكم؟ قالوا: نعم قال: فإذا كنتم تدرون فلماذا أوذى نفسـى؟ فـلما كانـت الجمعة الثالثة صعد فقال: أتدرون ماذا أريد أن أقول لكم فقال بعضهم: نعم وقال بعضهم: لا ، قال: فليقل من يعلم لمن لا يعلم ونزل . انتهى .

(**اختصم رجلان فى شاة**) وكـل مـنهم قد أخذ بأذنها فجاء رجل فقالوا: قد رضينا بحكـم هـذا فقـال: إن رضـيتما بحكمى فليحلف كل منكما بالطلاق أن لا أراجع فيما أحكـم بـه فحلفـا فقـال: خلياها فخلياها فأخذ بأذنها وساقها فجعلا ينظران إليه ولا يقدران على كلامه . انتهى .

(**نـــادرة**) وقف أعرابى على قوم فسألهم عن أسمائهم فقال أحدهم: اسمى وثيق وقـال الآخـر: اسمـى منـيع ، وقال الآخر: اسمى ثابت ، وقال الآخر: اسمى شديد ، فقال الأعرابى: ما أظن الأفعال عملت إلا من أسمائكم . انتهى .

(**نادرة**) قـال أبو بكر الخطاط: كان رجل فقيه خطه فى غاية الرداءة وكان الفقهاء يعيـبونه بخطـه ويقولون: لا يمكن أن يكون خطاً أردأ من خطك فضجر من عيبهم إياه فـرأى يومـاً مجلـدا يـباع فـيه خط أردأ من خطه فبالغ فى ثمنه فاشتراه بدينار وقيراط وجـاء بـه ليحـتج علـيهم إذا قرؤوه فلما حضر معهم أخذوا يذكرون قبح خطه فقال لهـم: قـد وجـدت أقـبح مـن خطـى بالغت فى ثمنه حتى أتخلص من عيبكم فأخرجه فتصفحوه وإذا فى آخره اسمه وأنه كتبه فى شبابه فخجل من ذلك .

(**نـــادرة**) روى الأصـمعى عن أبيه قال: أتى عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعـض مـن خـرج علـيه فقـال: اضربوا عنقه فقال: يا أمير المؤمنين ما هو جزائى منك قـال: ومـا جـزاؤك؟ قـال والله: مـا خرجت مع فلان إلا بالنظر لك وذلك أنى رجل مشـؤوم ما كنت مع رجل قط إلا وغلب وهزم فقد بانت لك صحة ما ادعيت وكنت

لك خيراً من مائة ألف معك فضحك وخلى سبيله .

(نادرة) قال رجل لهشام بن عمرو الفرطى: كم تعد؟ قال: من واحد إلى ألف ألف وأكثر قال: لم أرد هذا قال: فما أردت؟ قال كم تعد من السن؟ قال: اثنتين وثلاثين ؛ ستة عشر من أعلا وستة عشر من أسفل قال: لم أرد هذا ، قال: فما أدرى قال: كم لك من السنين قال: ما لى منها شيء كلها لله عز وجل قال: فما سنك؟ قال: عظم قال: فابن كم أنت؟ قال: ابن اثنين أب وأم ، قال: فكم أتى عليك؟ قال: لو أتى على شيء لقتلنى ، قال: فكيف أقول؟ قال: قل: كم مضى من عمرك؟

(نظيرها) قال خالد بن الوليد رضى الله عنه لعبد المسيح بن عمرو الغسانى وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة من أين أفضيت؟ قال: من صلب أبى قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمى قال: فعلام أنت؟ قال: على الأرض قال: ففيم أنت؟ قال: فى ثيابى قال: أتعقل؟ قال: أى والله وأقيد قال: ابن كم أنت قال: ابن رجل واحد قال: فما سنك قال: عظم قال: فما تريد فى مسألتك إلا عيا قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك .

(نادرة) قال أبوالعباس المبرد: ضاف رجل قوماً فكرهوه فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه؟ فقالت: الق بيننا شراً حتى نتحاكم إليه ففعلا ، فقالت للضيف: بالذى يبارك لك فى غدوك غداً أينا أظلم؟ فقال الضيف: والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهراً لا أعلم .

(نادرة) حكى أن رجلا أضاف رجلا فانتبه صاحب الدار بالليل فسمع ضحك الرجل من الغرفة فصاح به فلان قال: لبيك قال: أنت كنت فى الدار فما الذى رقاك إلى الغرفة قال: تدحرجت فقال: الناس يتدحرجون من فوق إلى أسفل فكيف تدحرجت أنت إلى فوق؟ فقال: من هذا أضحك .

(نادرة) وصف لشاعر طيب خراسان فلما سافر إليها لم تعجبه فقال فى شأنها:

تمنينا خراسان زماناً ::: فلم نعط المنى والصبر عنها
فلما أن أتيناها سراعاً ::: وجدناها بحذف النصف منها

(ونظيرها) لجعفر بن زبيد الكاتب:

وكـــم قـــائل لى ســـافر إلى ::: بـــلاد العـــراق تقـــع فى الـــرخا
لعمـــرى لقـــد صـــدقوا فى الـــرخا ::: وقعـــت ولكـــن بـــتقديم خـــا

(نـــادرة) قيل: إن بعض السؤَّال وقف على باب نحوى فقرعه فقال النحوى: من بالباب ينصرف قال: اسمى أحمد ، فقال النحوى لغلامه: أعط سيبويه كسرة .

(نادرة) يحكـى أن بعضـهم صحب رجلا نحوياً فى بعض الطريق فمرض النحوى وأراد الرجل أن يفارقه فقال لـه: ما أقول لأهلك إذا قدمت عليهم؟ قال: قل: صدعه رأسـه . وأوجعـته أضراسـه . ووهنـت يـداه . وتورمـت قدماه . وأصابه ثقل فى بدنه ووجـع فـى بطنه . وانحناء فى ظهره . وضرب فى صدره . ورِيح بين وركيه ورمد فى عينيه . فقال: لست أكمل حفظ هذا كله بل أذهب وأقول: قد مات والسلام .

(نادرة) اكـترى نحوى حمالا ليحمل لـه زيرا فلما وصل إلى البيت وفيه بركة فقال لـه الـنحوى: اقفـزن فقفز فوقع فانكسر الزير قال النحوى: ما هذا؟ قال: لام البركة ساكن والـنون فـى اقفـزن سـاكنة فالـتقى ساكنان وهل يجوز عند التقاء الساكنين إلا الكسر فقال النحوى: أحسنت يا سيبويه الحمالين .

(نادرة) حكـى أن بعضهم كان إذا لعب الشطرنج ضارب خصمه فوصف لبعض الظـرفاء فقـال: أنا ألتزم اللعب معه وما يحصل بيننا ضراب فلما أتى به ولعبا قال لـه فى أثناء اللعب: شاه استر فقال: والله مليح القرنين أنت ، فقال: يا أخى ما الذى قلت لـك؟ قـال: قلـت اسـتر ولا يسـتر إلا الجمـل والجمل تصحيفه حمل والحمل نجم فى السماء يقارنه الجدى والجدى الكبش والكبش القرنان هو الذى يقود فقال: يا أخى ما رأيت من يضارب بتصحيف وتفسير إلا أنت .

(نادرة) سـأل بعـض ألاكابر إنسانا فقال لـه: تعرف تلعب الشطرنج؟ فقال: لا يا مولانـا ولكـن لى أخ اسمـه عـز الدولة كان حصل بينى وبينه خصومه فسافر من مدة عشـرة أعـوام وسكن مدينة قوص وبلغنى أنه فتح دكان عطارة وإلى الآن ما ورد على الملوك منه كتاب وهو أيضا ما يعرف يلعب الشطرنج .

(نـــادرة) قـيل: اتفـق أن أبـا الحسـين الجزار قام مرة إلى بيت الخلا فناولـه فسأله

السراج الوراق شمعة فقال الجزار: ما عادتي أقضى الشغل إلا على السراج .

(**نادرة**) يحكى أن بعض السحاقات راودها رجل عن نفسها فقالت: أنا ما أفضل الصحابى على النبى تريد بذلك قول الشاعر:

ولـيس عـلىٌّ فى هـذا مـلام ::: إذا اخترت النبى على الصحابى

فأرادت بالنبى إسحاق تشير به إلى السحق وتريد بالصحابي الزبير تشير به إلى الزبرة الذكر والإير .

(**نـادرة**) روي أن النملة التى خاطبت سليمان عليه السلام أهدت له نبقة فوضعها فى كمه وأنشأت تقول:

ألم ترنا نهدى إلى الله ما له ::: وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
ولو كان يهدى للجليل بقدره ::: لقصر عنه البحر حين يساحله
ولكننا نهدى إلى من نحبه ::: فيرضى به عنا ويشكر فاعله
وما ذاك إلا من كريم فعاله ::: وإلا فما فى ملكنا ما يشاكله

فقال عليه السلام: بارك الله فيكم فهم بتلك الدعوة أكثر خلق الله .

(**نادرة**) حكى القزوينى أن الهدهد قال لسليمان عليه السلام: أريد أن تكون فى ضيافتى؟ قال: أنا وحدى قال: لا أنت وعسكرك فى جزيرة كذا فى يوم كذا فحضر سليمان بجنوده وطار الهدد فاصطاد جرادة وخنقها ورمى بها فى البحر وقال: كلوا يا نبى الله من فاته اللحم فله المرق فضحك سليمان وجنوده حولا كاملا وقال الشاعر:

جاءت سليمان يوم العرض هدهدة ::: أهدت إليه جرادا كان فى فيها
وأنشدت بلسان الحال قائلة ::: إن الهدايا على قدر مهديها
لو كان يهدى إلى الإنسان قيمته ::: لكان قيمتك الدنيا وما فيها

(**نـادرة**) يروى أنه كان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم فخرج فى بعض منتزهاته ومعه ندماؤه فتخلف منهم واحد فدخل على زوجته فأكلا وشربا واضطجعا فوثب الكلب عليهما فقتلهما فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين فعرف الأمر وأنشأ يقول :

وما زال يرعى ذمتى ويحوطنى ::: ويحفظ عرسى والخليل يخون

فياعجبا للخل بهتك حرمتى ::: ويا عجبا للكلب كيف يصون

يقال: من طبع الكلب أنه يكرم أهل الوجاهة من الناس ولا ينبحهم وينبح أهل الرثاثة وإليه أشار الشاعر:

يمشى الفقير وكل شىء ضده ::: والخلق تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتاً وليس بمذنب ::: ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا بزة ::: هشت إليه ولوحت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيرا معدما ::: وثبت إليه وكشرت أنيابها

(نادرة) سئل بعض القصاص عن لوط عليه السلام فقال: كان رجلا لوطيا نعوذ بالله من فعله فلما انصرف عنه لامه بعض أصحابه وأعلمه أن لوطا كان مرسلا إلى قوم وكان ذلك القوم فعلهم هذا وإن لوطا نهاهم عنه فندم على ما قاله فلما كان فى مجلس آخر سئل عن فرعون فقال: دعونا من حديث الأنبياء واسألوا الله العافية قوم لا رأيناهم ولا رأونا كيف نتكلم فى أعراضهم.

(نادرة) روى أن قاصًّا كان يتكلم فأقبل عليه جماعة من المرد فقال : ها هو قد جاءنا العدو امِّنوا وجعل يقول: اللهم امنحنا أكتافهم وكبهم على وجوههم . وأولنا أدبارهم واكشف لنا عن عوراتهم ومكن رماحنا من ظهورهم والناس يؤمنون ولا يدرون .

(ومن نوادر نوح أبى الغصن المعروف بجحا) بكسر الجيم وفتح الحاء المهملة قال الجاحظ: إنه أربى على المائة وفيه يقول عمر بن أبى ربيعة :

ذهلت عقلى وتلعبت بى ::: حتى كأنى من جنونى جحى

ثم أدرك أبا جعفر ونزل الكوفة (فمنها) قيل له يوما: نقلت الحساب قال: نعم ولم يشكل علىَّ منه شىء قيل له: اقسم أربعة دراهم على ثلاثة أنفس فقال: لكل رجل منهم درهمان وليس للثالث شىء .

(وأراد المهدى) أن يعبث به فدعى بالنطع والسيف فلما أقعد فى النطع وقام السياف على رأسه وهز السيف فرفع رأسه وقال: انظر لا تصب محاجمى بالسيف فإنى قد احتجمت فضحك المهدى وأجازه .

(وماتـــت) لأبـيه جارية حبشية فبعثه إلى السوق ليشترى لها كفنا فأبطأ عليه حتى أنفـذ غيره فحملت جنازتها فجاء جحا فوجدها حملت فجعل يعدو إلى المقابر ويقول: هل رأيتم جنازة جارية حبشية وكفنها معى .

(وجمحمت) بـه بغلته يوما فأخذت به فى غير الطريق الذى أراده فلقيه صديق لـه فقال لـه: إلى أين عزمت يا أبا الغصن؟ فقال: فى حاجة البغلة .

(وحمـــل) مـرة جرة خضراء إلى السوق يبيعها فقيل لـه: إنها مثقوبة فقال: لا إنها كان فيها قطن لأمى وما سال منه شيء .

(ونظـــر) يومـا إلى رجل مقيد وهو مغتم فقال: ما غمك؟ إذا نزع عنك فثمنه فيه ولبسه ربح .

(وتبخر) يوماً فاحترقت ثيابه فقال: والله لا أتبخر إلا عريانا .

(وعجن) فى منزلـه فطلبوا منه حطبا فقال: إن لم تجدوا حطبا فاخبزوه فطيرا .

(وأكل يوماً) مع أناس رؤساء فلما فرغ قال: أطعمكم الله من رؤوس أهل الجنة .

(وقـــيل) لــه يوماً: ما لوجهك يرى مستطيلا؟ قال: ولدت في الصيف ولولا أن الشتاء أدركه لسال وجهى .

(وخـــرج يوماً) بقمقـم يستقى فيه من ماء النهر فسقط من يده وغرق فقعد على شـاطئ الـنهر فمـر بـه صـاحب لــه فقال لـه: ما يقعدك هاهنا؟ فقال: غرق لى هاهنا قمقم وأنا أنتظر أن ينفتح ويطفو .

(واشـــترى يوماً) نقانق فانقض عليه عقاب فاختطفه فقال لـه: يا مسكين من أين لك خردل تأكله؟

(نادرة) قـدّم بعض المغفلين ولده إلى القاضى وقال: يا مولانا إن ابنى يشرب الخمر ولا يصلى فاحجر عليه فقال لـه القاضى: ما تقول يا غلام؟ فقال: إنه يدعى علىَّ باطلا إننى أصلى ولا أشرب الخمر فقال أبوه: أعز الله القاضى أتكون صلاة بغير قراءة؟ فقال القاضى: يا غلام اقرأ شيئاً من القرآن قال الصبى: بسم الله الرحمن الرحيم:

علـــــق القلـــــب الـــــربابا ::: بعدمـــــا شـــــابت وشـــــابا
إن ديـــــن الله حـــــق ::: لا أرى فـــــيه ارتـــــيابا

فقال أبوه: يا مولاى والله ما تعلَّم هذه الآيات إلا البارحة فإنه سرق مصحفاً من بيوت الجيران فحفظها فضحك القاضى وحجر على الأب والابن .

(**نـــادرة**) قـال الأصـمعى: مـررت بأعـرابى يصـلى بالناس فصليت خلفه فقرأ: والشـمس وضـحاها . والقمر إذا تلاها كلمة بلغت منتهاها لن يدخل النار ولن يراها عـبد نهـى الـنفس عن هواها فقلت: إنه ليس من كلام الله تعالى فقال: علمنى فعلمته الحمد لله وسورة الإخلاص ومضيت إلى حال سبيلى ثم مررت به بعد أيام فرأيته يقرأ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وحدهـا فقلـت وأين السورة الأخرى أنسيتها؟ قال: لا ولكن لى ابن عم طلبها منى والكريم لا يرجع فى هبته

(**نادرة**) أم رجـل من الظرفاء بقوم وكانوا من التغفل بمكان فكانوا يطعمونه الخبز والكامخ ولا يزيدون عليه فصلى بهم يوماً الصبح فقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة: يـا أيهـا الذيـن آمـنوا اتقـوا الله ولا تطعمـوا أئمـتكم كامخاً بل لحماً فإن لم تجدوا لحماً فشـحماً فـإن لم تجدوا شحماً فبيضاً فإن لم تجدوا بيضاً فسمكاً فإن لم تجدوا سمكاً فلبناً ومـن لم يفعـل ذلك فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسراناً مبيناً وقرأ فى الركعة الثانية بعـد الفاتحة: يا أيها الذين آمنوا اطبخوا سكباجاً ولا تحمضوا تحميضاً ومن يفعل ذلك فقد افترى إثماً عظيما فلما فرغ من صلاته جاؤوه واعتذروا إليه من التقصير فى حقه وأنهـم لم يكـن عـندهم عـلم بـأن الله أنـزل فى ذلك قرآناً وسألوه فى أى سورة هذه الآيات فقال: فى سورة المائدة .

(**ومـــن النكت الهزلية**) أن فقيراً وقف يسأل على باب بعض الفقهاء وكان ظريفاً فقـال: يـا جاريـة أعطـى هـذا الفقير رغيفاً قالت: ما عجنا شيئاً قال أعطه قدح دقيق قالت: مفتاح الطبقة مع ستى قال: فأعطه صدقة عنك وعنى وكان الفقير يسمع فقال: بالله يا سيدى قل لها: من وراء لئلا تقول على العيض .

(**نـــادرة**) تقدم رجلان إلى بعض القضاة فقال أحدهما: هذا باعنى ثوباً ووجدت فـيه عيباً وسألته أن يقيلنى فأبى فالتفت القاضى إلى الخصم وقال: أقله عافاك الله فإن

رسول الله ﷺ يقول: «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل» .

(نادرة) تقدم جماعة إلى قراقوش وكان عاملا على مصر من جهة السلطان صلاح الدين بن أيوب ومعهم قتيل وثور ورجل مكتوف فقالوا: أيها الأمير إن هذا الثور مال على هذا الرجل فقتله وهذا مالكه وهو العلاقة ففكر ساعة ثم أمر بالثور أن يشنق ويطلق صاحبه فقالوا: ما هذا حكم الشريعة فقال: لو جرى هذا فى زمن فرعون ما فعل غير هذا فلا بد من شنق الثور وهو القاتل ولا يحل أن أقتل غير القاتل .

(نادرة) روى أن نصر بن مقبل كان عاملا لهارون الرشيد على الرقة فأتى برجل من الظرفاء وجدوه ينكح شاة فقال له: أيها الأمير إنها والله ملك يمينى وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فأطلقه وأمر أن تجلد الشاة الحد فإن ماتت وإلا تصلب قالوا: إنها بهيمة قال: وإن كانت بهيمة فإن الحدود لا تتعطل وإن عطلتها فبئس الوالى أنا فانتهى خبره إلى الرشيد ولم يكن رآه قبل ذلك فدعا به فلما حضر بين يديه قال له: من أنت؟ قال: مولى الكلب فضحك الرشيد ثم قال له: كيف بصرك بالحكم؟ قال: يا أمير المؤمنين البهائم عندى فيه والناس سواء ولو وجب على بهيمة حد وكانت أمى لحددتها ولم تأخذنى فى الله لومة لائم فأمر الرشيد أن لا يستعان به فى عمل ولم يزل معطلا إلى أن مات .

(نادرة) يحكى أن بعضهم مر بامرأة من بعض أحياء العرب فقال لها: ممن المرأة؟ قالت: من بنى فلان وكانوا يكسرون أول المضارع فأراد العبث بها فقال: أتكتنون؟ فقالت: نعم نِكتنى فقال لها: معاذ الله ولو فعلته لاغتسلت فأجابته على الفور وقالت له: دع هذا أتعرف العروض قال: نعم قالت: قطع لى قول الشاعر :

حولوا عنا كنيستكم ::: يا بنى حمالة الحطب

فأخذ يقطعه فقال: حولوا عن (فاعلا تن) (ناكنى) فاعلن فقالت: له من هو الفاعل ولكن للباغى مصرع .

(نادرة) حكى أن بعضهم كان يكتب كتابا وإلى جانبه آخر فكتب عمرا بغير واو فقال له: يا مولانا زدها واواً للفرق فقال له: والله لقد تفضل مولانا بزيادة الواو

يعنى أنه تغوط .

(ونظيرهـــا) مـا يحكـى أن رجلا قال لسعيد بن عبد الملك تأمرنا بشىء قال: نعم بتقوى الله عز وجل وإسقاط هذه الألف .

(نـــادرة) قـيل: أن رجـلا رمى عصفورا فأخطأه فقال لـه آخر: أحسنت فغضب وقال: أتهزأ بى قال: لا إنما قلت: أحسنت إلى العصفور .

(نادرة) قيل: إن بعضهم كان واقفاً بعرفة فرأى إنسانا يتضرع وينتحب ويبالغ فى الدعاء ويقول بتحرق وتوجع: اللهم اغفر لى فقال لـه: يا أخى إن الله قد تصدق على عـباده فـى هـذا اليوم وقد غفر لأهل عرفة فقال: يا أخى دعنى فإن ذنبى عظيم فقال: هل قتلت أحد والديك؟ قال: لا فقال: هل وطئت أحدا من محارمك ؟ قال: لا فقال: هـل كفـرت؟ قـال: لا قـال: فهل دللت على سرية من سرايا المسلمين قال: لا وأخذ يعـدد علـيه كـبائر الذنـوب وهـو يقول: لا قال: فما الذى فعلت؟ قال: نكت خنزيرة فقـال: الأمـر سـهل إن الله يغفـر الذنوب جميعاً ولكن أخبرنى كيف وقفت لك حتى فعلـت؟ قـال: كانـت ميـتة قال: فكيف قام عليك؟ قال: مصصت لسانها قال لـه: لا غفر الله لك ولا تجاوز عنك ولا سامحك يا أنجس العالم .

(نادرة) سأل بعضهم شيخاً من أهل الفسوق قال: بت البارحة فى مجلس قوم وفيهم أمـرد مثل القمر فلما ناموا حاولت البيت عليه فلم أصل إليه وأصبحنا فما لم يتفق لى نيكه فقال الشيخ: لك نيتك فقد حسبت لك فسقه (ومن هذا قول النور الأشعرى):

ولى صـــاحب قـــال نلـــت المـــنى ::: بمـــن هـــو دون الـــورى منـــيتى
فقلـــت أتـــى زائـــراً قـــال لا ::: ولكـــن جلـــدت ولى نـــيتى

(قـــيل: إن بعضـــهم كان) نائماً فى مجلس قوم فما شعر بنفسه إلا وقد دخل فيه شـىء كـذراع الـبكر فقام إليه منكراً وقال: ما هذا؟ فقال: الدباب يا أخى لك المعذرة فإنه قام علىَّ ولم يكن إلى جانبى غيرك فقال: يا أحمق كنت جلدت فقال: والله ما يسعه خفى فكيف يسعه كفى؟ فقال: أبهذا الزب تريد أن تدب .

(نـــادرة) حكـى أن أبـا نواس كان فى يوم شديد البرد وعليه فروة فمر به بعض

السؤَّال فطلب منه ما يلبسه فقال: ما أملك غير هذه الفروة فقال له السائل: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] فقال: أبو نواس هذه الآية أنزلها الله فى الحجاز فى شهر تموز فيما يؤكل ولم ينزلها فى شهر كانون فى الرها فيما يلبس .

(نـــادرة) سأل بعض السؤَّال من آخر فقال: يفتح الله فألحَّ فى السؤال ولم يحصل لـه منه شيء فقال: أين الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ فقال: ذهبوا مع الذين لا يسألون الناس إلحافا .

(نـــادرة) وحكى أن بعضهم رأى امرأة حسناء فى طاقة فأحبها ولازم الوقوف ببابها والمرور تحت طاقتها ووصل إلى أن أعيا وقل صبره وحصل على اليأس منها فدق الباب عليها فخرجت الجارية إليه فدفع إليها صحفة وقال: دعى سيدتك تَبُلْ فى هذه: فبالت لـه فى الصحفة وقالت للجارية: أتبعيه وانظرى ما يصنع بذلك فلم يزل إلى أن وصل بعض الخرابات فوضع إيره فى ذلك البول وقال: يا ميشوم إذا فاتك اللحم فاشرب المرق .

(نادرة) أدخل مخنث على العريان بن الهيثم وهو أمير الكوفة فقال: عدو الله كيف تتخنث وأنت شيخ؟ فقال: مكذوب علىَّ كما كذب على الأمير أعزه الله فاستوى الأمير جالساً وقال: وما قيل فىَّ؟ قال: يسمونك العريان وأنت صاحب عشرين جبة فضحك وخلاه .

(نادرة) دخل بعض شعراء الهند على أمير فمدحه فقال لـه الأمير: تقدم يا زوج القحبة وقال: هذا بلغة العرب كناية عن من لـه قدر جليل ومحل كبير ومال ودواب وجمال وغلمان وقدر ومنزلة فقال: أنت أيها الأمير أكبر زوج قحبة فى الدنيا فخجل وعلم أن مزاحه جر إلى شتمه .

(نـــادرة) حكى عن أحمد بن المدبر أنه كان إذا كان مدحه شاعر ولم يرض شعره قال لغلامه: امض إلى المسجد ولا تفارقه حتى يصلى مائة ركعة ثم خله فتحاماه الشعراء إلا المجيدين منهم فجاء الحسين بن عبد السلام المبصرى فاستأذنه فى النشيد

فقال لـه: أعرفت الشرط؟ قال: نعم وأنشأ يقول :

أردنـــا مــــن أبى حســـن مديحـــاً ::: كمـــا بـــالمدح تنـــتج الـــولاة
فقلــــنا أكـــرم الـــثقلين طـــراً ::: ومـــن كفـــيه دجلـــة والفـــرات
فقـــالوا يقـــبل المدحـــات لكـــن ::: جوائـــزه عـــلى المـــدح الصـــلاة
فقلـــت لهـــم ومـــا تغـــنى صـــلاتى ::: عـــيالى إنمـــا تغـــنى الـــزكاة
فأمـــــا إذا أبى إلا صـــــلاتى ::: وعاقـــتنى الهمـــوم الشـــاغلات
فـــيأمر لى بكســـر الصـــاد مـــنها ::: لعـــلي أن تنشـــطني الصـــلاة
فيصـــلح لي عـــلى هـــذا حـــياتى ::: ويصـــلح لى عـــلى هـــذا الممـــات

(نـــادرة) دخل بعض الظرفاء على بعض الأكابر وعلى رأسه غلام جميل الصورة فأطال المتظرف النظر إليه فقال لـه: ما لك أطلت النظر إلى هذا الغلام؟ فقال: يعجبنى حسنه فقال: عينيك فى استك فقال: لا والله بل عينى فى استه .

(نادرة) سئل أبو نواس عن العباس بن الحسن فقال: هو أرق من الوهم وأحسن مـن الفهـم وأمضى من السهم وسئل العباس عنه فقال: لهو أحسن من وفاء بعد غدر ووصل بعد هجر .

(نادرة) قال بعضهم: بت عند رجل من أهل الكوفة من الموسرين المعروفين بحسن الكمال ولـه صبيان قيام بحيث أراهم فرأيته فى الليل يقوم فيقلبهم من جنب إلى جنب فلما أصبحنا قلت: رأيتك البارحة تفعل كيت وكيت قال: نعم هؤلاء الصبيان يأكلون وينامون على اليسار فيصبحون جياعاً فأنا أقلبهم من اليسار إلى اليمين لئلا ينهضم ما أكلوه سريعاً .

(نادرة) قـال بعض الحكماء: البخلاء بمنزلة البغال والحمير تحمل الذهب والفضة وتأكل التبن والشعير .

(وســئل) الحسـن البصـرى رحمة الله عليه عن البخل ما هو؟ فقال: هو أن يرى الرجل ما أنفقه سرفا وما أمسكه شرفاً .

(وقـــال) رجـل مـاجن لصديق لـه بخيل: لم لا تدعونى إلى طعامك؟ فقال: لأنك شديد المضغ سريع البلع إذا أكلت لقمة هيأت لك أخرى فقال لـه: جعلت فداك تريد

إذا أكلت لقمة أصلى ركعتين ثم أعود إلى ما بعدها؟ .

(قيل) لبخيل من أشجع الناس؟ فقال: من يسمع وقع أضراس الناس على طعامه ولا تنشق مرارته .

(وكان) العزيزى شديد البخل جداً فمن ظريف ما حكى عنه أنه ركب يوماً دابته لمهم لـه فلما بعد عن منزلـه ثنى رأس دابته وعاد يطرد الدابة إلى منزلـه فقدر غلامه أنه نسى كيساً أو شيئاً خاف عليه فلما دخل منزلـه أطلعت الجازية فقالت: من؟ فقال: أنـا قولى لستك أنى أكلت قبل ركوبى وطرحت للسنور لقمة فإن أكلت هى فلا تطعم السـنور شـيئاً لئلا نمحق وظيفتنا وتفسد عادة السنور علينا فقال الغلام: الطلاق لازم لـه ثلاثاً إن أقمت عندك أبداً .

(نادرة) قال جحظة البرمكى أخذنى بعض المخنثين فقال: يا أبا الحسن وفى الدنيا مثل المخنثين قلت: كيف؟ قال: إن حدثوا ضحكتم وإن غنوا طربتم وإن ناموا فعلتم .

(نادرة) قـيل لرجل يكثر اللحن فى كلامه: لو كنت إذا شككت فى إعراب كلمة عبرت عن معناها بكلمة أخرى لاسترحت فإن الكلام واسع فقال الرجل: أفعل ذلك فلقـى رجـلا كـان مشـهوراً بـالأدب فأراد أن يسأله عن أخيه فقال لـه: أخوك أخيك أخـاك هاهـنا فقـال لـه الأديب: لا . لو . لى . ما هو حاضر (وقال) أبو العنبرى رأيت رجلا يعرج فقلت لـه: ما لك؟ فقال: غداً تريد أن تدخل فى رجلى شوكة .

(نـــادرة) أحـدث إمـام فى الصلاة فتأخر وقدم رجلا وذهب يجدد الوضوء فقدر الإمـام الـثانى أنه لا يجوز لـه أن يصلى فوقف ينتظر صاحبه فلما طال قيامه تنحنحوا من خلفه فالتفت إليهم وقال: ما لكم إنما قدمنى رجل لأحفظ مكانه إلى أن يرجع؟ .

(نـــادرة) قـرأ إمـام فـى الصلاة القارعة فلما بلغ قولـه: ﴿ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٨ ، ٩] قال: فأمه زانية فقطع القوم صلاتهم وأنكروا عليه فقال: يا قوم لِمَ تمنعونى أنى أشتم الكفار .

(رأى) أبـو حنـيفة رجـلا يصـلى ولا يـركع فقال: يا هذا لا صلاة لك يعنى بغير ركوع فقال: إنى رجل عظيم البطن فإذا ركعت ضرطت فصلاتى قائماً بلا ركوع خير

من صلاة مع ركوع بضراط .

(**وقال**) بعضهم: رأيت شيخاً طويل اللحية وقد اجتاز بقاض وهو يقول: يتجرعه ولا يكاد يسيغه فقال: اللهم اجعلنا ممن يتجرعه ويسيغه .

(**رأى ابــن خلف**) الهمدانى امرأته وقد أخذها الطلق فدخل على القابلة وقال: بالله أخرجيه ابناً وأنا أعطيك ديناراً ولا أحتاج أوصيك .

(**ورث**) بعضــهم نصــف دار فقــال يومــاً: قــد عزمــت على بيع نصف الدار الذى لى وأشترى به النصف الآخر لتصير كلها لى .

(**ركـــب**) بعضــهم مركـبا وفـى يـده ثلاثة عشر درهما فرأى على ثوب شخص جـالس بـرغوثاً فأخذه بالسبابة والإبهام من اليد التى فيها الدراهم ثم مد يده إلى الماء ليرمـى فـيه الـبرغوث فـرمى بالدراهم وبقى البرغوث فالتفت إلى أصحابه وقال: هل رأيتم مثل هذا البرغوث يقوم علىَّ بثلاثة عشر درهما؟

(**أخـــرج صبى**) رأسه من منظرة والمطر نازل فوقعت بردة فأوجعته فظن أن أحداً رمـاه فشـتم مـن رمـى فاطلع أبوه من الطاق لينظر من رمى ابنه فرأى البرد نازلا من السماء فقال: ارم يا سيدى ما عرفك الصبى .

(**وعظ**) مغفل آخر فقال لـه: الزم السنة فإنك إن لازمت السنة دخلت الجنة فقال لـه الآخر: وما السنة؟ قال: حب أبى بكر بن أبى طالب وعمر بن أبى قحافة وعثمان بـن سـفيان وأسـتاذهم كـلهم معاوية قال: ومن معاوية هذا؟ قال ويلك لا تعرفه هذا كان من حملة العرش فزوجه النبى ﷺ ابنته عائشة .

(**قـــال**) بعـض المتحـنين: من ظرائف المحن التى مرت بى أنى بت ليلة عند قوم وحركتـنى الطبـيعة فـى بعـض الليـل ولم أعـرف طريق الخلاء فقمت أدور فى البيت فوجـدت بيـتاً فـيه مهـد وفـيه صـبى نـائم ولـيس عنده أحد نائم فعمدت إلى الصبى فأخرجـته مـن المهـد وجعلـته فـى حجـرى وضـممت ثـيابى وحولت استى إلى المهد وخرجت وذهبت أرد الصبى إلى مهده فإذا به قد خرى فى حجرى أضعاف ما خريت فى مهده فبقيت متحيراً لا أدرى ما أعمل وعلموا بحالى وكدت أموت خجلا .

(نادرة) قيل لإبرويز بن شيرويه بن كسرى أنوشروان وكان حكيما: ما شهوة ساعة؟ قال الجماع قيل: فما شهوة يوم؟ قال: دخول الحمام قيل: فما شهوة جمعة؟ قال: غسل الثياب قيل: فما شهوة شهر؟ قال: تجديد الثياب قيل: فما شهوة سنة؟ قال: تزوج الأبكار قيل: فما شهوة الأبد؟ قال: أما فى الدنيا فمجالسة الإخوان وأما الآخرة فنعيم الجنة .

(ونظر) إلى قذاة فى طعام فدعا الطباخ فقال: ما هذا؟ قال: حاولته بالليل فى وقت لم يكن فيه ماء معين فأمر بضرب عنقه فغضب الطباخ وقال: يا بن الأستوريان تفسيره يا بن سائس الدواب فعفا عنه وقال: إنا معاشر الملوك نعاقب على الصغيرة ونعفو عن الكبيرة .

(نادرة) قال الإمام الشافعى: رأيت بالمدينة أربع عجائب جدة بنت إحدى وعشرين سنة أى: حجرة ورأيت شيخاً كبيراً يدور على بيوت القيان يعلمهم الغنا فإذا حضرت الصلاة صلى جالساً ورأيت رجلا فلسه القاضى فى مدين من النوى ورأيت رجلا يكتب بالشمال أسرع ممن يكتب باليمين .

(نادرة) ذكر أن الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله كان فى بعض متنزهاته فى الرى وبين يديه طلبته وخدمه وإذا بحمامة سقطت فى حجره من بازى كان يقصدها فحماها الشيخ من ذلك البازى فأنشد فى ذلك بعض من حضر:

جاءت سليمان الزمان حمامة ::: والموت يلمع من جناحى خاطف
من علم الورقاء أن حماكم ::: حرم وفيه ملجأ للخائف

قال: فأمر الشيخ أن يملأ فم العمائك درا ففعل به ذلك (وقد عن لى أن) أن أختم هذا الباب الذى بتمامه يتم الكتاب بذكر نبذة من كلام الفضلاء الأجلاء فى التحذير من الأصدقاء والأخلاء ومن الأشعار الجيدة المتضمنة فى الحث على الوحدة .

(قال جعفر الصادق) رحمه الله لبعض الإخوان: أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم وإن كان لك مائة صديق فاطرح منهم تسعة وتسعين وكن من الواحد منهم على حذر .

(روى) عن محمد بن يوسف أنه قال: استشرت سفيان الثورى فى سكنى العراق

فقال: لا أراها لك لأنها بلاد فتنة ولكن إن صح جسمك فعليك بالسواحل ثم استفد مائة صديق ثم اطرح منهم تسعة وتسعين وكن من الواحد فى شك واعلم أنه لم يكن فى الأرض غير ولدى آدم فغضب أحدهما على الآخر فقتله .

(وقـــال) سفيان الثورى للحسن البصرى رحمهما الله تعالى: دلنى على من أجلس إليه قال: تلك ضالة لا توجد (وقال) ذو النون المصرى: الأنس بالله نور ساطع والأنس بالخلق غم واقع (وقال) رسول الله ﷺ: «**نعم صومعة المؤمن بيته يكف فيها نفسه وبصره ولسانه وفرجه**» (وقال) الجنيد للسرى: أوصنى قال: لا تكن مصاحب الأشرار ولا تشتغل عن الله بالأخيار .

(روى) أن مالك بن دينار لقى راهباً فى عبادته تاركا لدنياه فقال له: أوصنى فقال الراهب: إن استطعت أن يكون بينك وبين أهل الدنيا حائط من حديد فافعل قال: زدنى ويحك قال: أقل من معرفة الناس قال: زدنى ويحك قال: اقطع طمعك من المخلوقين تسكن ملكوت السماء (ويقال): العزلة عن الناس توقى العرض وتبقى الجلالة وتسر الغاية وترفع مؤن المكافآت فى الحقوق اللازمة والوجوه .

(وكان) مكحول يقول: إن كان الفضل فى الجماعة فإن السلامة فى العزلة .

(روى) عن سفيان الثورى أنه قال: قال لى جعفر بن محمد الصادق: يا سفيان فسد الزمان وقل الإخوان وتغلبت الأحيان فاتخذ الوحدة أمعك شيء يكتب فيه؟ فقلت: نعم فقال :

لا تجزعن لوحدة وتفرد ::: ومن التفرد فى زمانك فازدد
ذهب الإخاء فليس ثم أخوة ::: إلا التملق باللسان واليد
فإذا كشفت ضميره عن قلبه ::: وافيت منه. نقيع سم الأسود

(ومن أمثال العرب): الوحدة خير من جليس السوء . فى كتاب المنهج: من لازم الخلوة بربه كان فى الأمن والحصن الأمنع قال الشاعر:

كن بقعر البيت جالسا ::: وارض بالوحدة أنسا
لست بالوحدة خلا ::: أو ترد اليوم أمسا

ومن أحسن ما قيل فى هذا الباب قول منصور بن إسماعيل الفقيه :

الناس بحر عصيف ::: والبعد عنهم سفينه
وقد نصحتك فانظر ::: لنفسك المسكينه

ولله در أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى:

أنا لم أدر لذة العيش حتى ::: صرت للبيت والكتاب جليسا
أى شيء ألذ عندى من العلـ ::: م فما أبتغى سواه أنيساً
إنما الذل فى مخالطة النا ::: س فدعهم وعش عزيزاً رئيساً

وأنشأ أبو الفتح البستى لأبى سليمان الخطابى:

وقد أولع الناس بالتلاق ::: والمرء صب إلى مناه
وإن ما منهم صديقه ::: من لا يرانى ولا أراه

ومن أحسن ما قيل فى الانفراد قول أبى هفان:

إن أمس منفردا فالليث منفرد ::: والبدر منفرد والسيف منفرد

(ولابن وطواط)

إن كنت تسمع نصحى يا أخا ثقة ::: فاقبل كلامى بلا شك ولا ريب
خف من أمنت ولا تركن إلى أحد ::: فما نصحتك إلا بعد تجريب

(آخر فى المعنى)

إذا طلبت أخا مخلصا ::: فهيهات منك الذى تطلب
فكن بانفرادك ذا غبطة ::: فما فى زمانك من يصحب

(وفيه أيضاً)

خليلى لقد صاحبت فى الناس صاحباً ::: فما نالنى منه سوى الهم والعنا
وجربت أهلا للزمان فلم أجد ::: فتى منهم عند المضيق ولا أنا

(وفيه أيضاً للمنازى)

وصاحب خلته خليلا ::: وما جرى غدره ببالى
لم يحص إلا القبيح منى ::: كأنه كاتب الشمالى

(وفيه أيضاً)

سألت الناس على خل وفى ::: فقالوا لا ترم ولا يرام
خليلك أنت لا من قلت خل ::: وإن كثر التجمل والسلام

(ولبعضهم)

سألت الناس عن خل وفى ::: فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بذيل حر ::: فإن الحر فى الدنيا قليل

(وفيه أيضاً)

لما رأيت بنى الزمان وما بهم ::: خل وفى للشدائد أصطفى
أيقنت أن المستحيل ثلاثة ::: الغول والعنقاء والخل الوفى

(الشهاب الخفاجى)

إن ترد أن تعيش فى دعة ::: فى حياة إلى العلى ترتقى
فاعتزل سائر الأنام وكن ::: فى غنى عن جميع ما تلتقى
لا تكن ممسكا حبال رجاء ::: فالأمانى بضائع الحمقى

(وله أيضاً)

تجنب جميع الناس واحذر إذا هم ::: ونفسك أكرم عن أمور تضيمها
وما كانت الحياة يوماً تقطعت ::: لتجعل فى الترياق لولا سمومها

(وله أيضاً)

تجنب جميع الناس واحذر رجاءهم ::: رجاؤك غير الله سوف يخيب
فمن أسقمته النائبات بحرصه ::: فليس له غير الممات طبيب

(وله أيضاً)

إنى تركت ترددى ::: للناس عن رأى مصيب
فأنا الذى فى بيته ::: كالسر فى صدر اللبيب

وفى القصيدة الزينية بيتين فى المعنى وهما:

كن ما استطعت من الأنام بمعزل ::: إن القليل من الورى من يصحب
واحذر مصاحبة اللئيم فإنه ::: يعدى كما يعدى الصحيح الأجرب

وفى قصيدة أبى الفتح البستى بيتان فى المعنى وهما:

من عاشر الناس لاقى منهم نصباً ::: لأن سوسهم بغى وعدوان
ومن يفتش عن الإخوان يلقهم ::: أجل إخوان هذا الدهر خوان

(ولبعضهم من قصيدة)

وجانب الناس لا تركن إلى أحد ::: من البرية واحذر من توادده
ما فى البسيطة إلا من توادده ::: وقت الرخاء وعند الضيق فاقده
من كان ذا ثروة فالناس طامعة ::: فيما لديه وخير الناس حاسده
ومن يكن معسرا جلت نوائبه ::: فلا معين ولا خل يساعده

(فتح الدين بن سيد الناس)

صرفت الناس عن بالى ::: فحبل ودادهم بالى
وحبل الله معتصم ::: به علقت آمالى
وأهملت الورى طرا ::: فإنى عنهم سالى
فلا وجهى لذى جاه ::: ولا ميلى لذى مالى

(بشار بن برد من قصيدة)

توقَّ الناس يا أبى وأمى ::: هم تبع المخافة والرجاء
ألم تر مظهرين على عتبا ::: وكانوا إخوتى عند الصفاء
بليت بنكبة فغدوا وراحوا ::: على أشد أسباب البلاء
أبت أفكارهم أن ينصرونى ::: بمال أو بجاه أو براء
وخافوا أن يقال لهم خذلتم ::: صديقاً فادعوا قدم الجفاء

(ولله در القائل)

لقاء أكثر من تلقاه أوزار ::: فلا تبالى أصدوا عنك أو زار
أخلاقهم لمحبهم أوعار ::: وفعلهم مأثم للمرء أو عار
هم لديك إذ جاؤوك أوطار ::: فإن قضوها تولوا عنك أو طار
أوضار أخلاقهم تعدى معاشرهم ::: فلا يروك فقد ما من رؤا ضار

(أبو الجوائز الواسطى)

دع الـــناس طـــرا واصرف الود عنهم ::: إذا كنـــت فى أخلاقهـــم لا تســـمح
ولا تـــبغ مـــن دهـــر تظاهـــر رفقـــة ::: صـــفاء بنـــيه فالطـــباع جوامـــح
وشـــيئان معدومـــان فى الأرض درهـــم ::: حـــلال وخـــل فى الحقـــيقة ناصـــح

(المعتصم بن سماح)

وزهـــدنى فى الـــناس معـــرفتى بهـــم ::: وطـــول اختبارى صاحب بعد صاحب
فـــلم تـــرنى الأيـــام خـــلا يســـرنى ::: بواديـــه إلا ســـاءنى فى العواقـــب
ولا قلـــت أرجـــوه لدفـــع مـــلمة ::: مـــن الدهـــر إلا كـــان إحدى المصائب

(ولله در القائل)

لـــيس الخمـــول بعـــار ::: عـــلى امـــرئ ذى خـــلال
فلـــيلة القـــدر تخفـــى ::: وتلـــك خـــير اللـــيالى

(أحمد بن العريق الهاشمى)

ظهـــر اللـــؤم فى الأنـــام لهـــذا ::: صـــنت نفســـى عـــن الـــبرية طـــرا
رأيـــت الخمـــول أنفـــس شـــيء ::: ولـــزوم البـــيوت أولى وأحـــرى

(أبو إسحاق بن مسعود)

فخـــف أبـــناء جنســـك واخش منهم ::: ولا تخـــش الضـــراغم والســـبنتا
وخـــالطهم وزائـــلهم حـــذارا ::: وكـــن كالســـامرى إذا لمســـتا

(أبو العتاهية)

وحـــدة الإنســـان خـــير ::: مـــن جلـــوس الســـوء عـــنده
وجلـــوس الخـــير خـــير ::: مـــن جلـــوس المـــرء وحـــده

(ولبعضهم)

قـــد كنـــت حـــراً والهـــوى مـــالكي ::: فصـــرت عـــبداً والهـــوى خـــادمى
وصـــرت بالعـــزلة مستأنســـاً ::: مـــن شـــر أنـــواع بـــنى آدم
مـــا فى اخـــتلاط الـــناس خـــير ولا ::: ذواالجهـــل بالأشـــياء كالعـــالم
يـــا لائمـــى فى تـــركهم جـــاهلا ::: عـــذرى مـــنقوش عـــلى خـــاتمى

فنظر إلى نقش خاتمه فإذا مكتوب عليه: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

(وقال الأسوانى الشاعر)

أرى كل من نصفته الود مقبلا ::: علىَّ بوجه وهو فى القلب معرض
حذاراً من الإخوان إن رمت راحة ::: فقرب بنى الدنيا لمن صح ممرض
بلوت كثيراً من أناس صحبتهم ::: فما منهم إلا حسود ومبغض
فقلبى على ما يسخر الطرف منطو ::: وطرفى على ما يحزن القلب مغمض

(لبعضهم)

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً ::: سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا ::: لأخذ العلم أو إصلاح حال

(غيره)

اسمع مقالة ناصح ::: جمع النصيحة والمقه
إياك واحذر أن تكون ::: من الثقات على ثقه

(لبعض شعراء اليمن)

طوبى لمن عاش بعض يوم ::: ونفسه فيه مطمئنة
وما له فى الورى عدو ::: ولا لمخلوق عليه منة

(الحسن بن شارد)

لا تثق من آدمى ::: فى وداد وصفا
كيف ترج منه صفوا ::: وهو من طين وما

(لبعضهم)

عدوك من صديقك مستفاد ::: فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه ::: يكون من الطعام والشراب

(غيره)

نعيب زماننا والعيب فينا ::: وما لزماننا عيب سوانا
وقد نهجو الزمان بغير ذنب ::: ولو نطق الزمان بنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ::: ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

(ولقد أجاد فيما قال العماد)

يا إلهي أنت الكريم وقد ::: جئتك لا أرتجى سواك كريماً
فاعف عنى بآل طه ::: وياسين وكن لى يوم الحساب رحيما
ما لضعف سواك يا غافر الذنـ ::: ـب فذنبى أراه ذنباً عظيما

(للصاحب)

إلهى لا تعذبنى فإنى ::: مقر بالذى قد كان منى
فكم من زلة لى فى الخطايا ::: وأنت علىَّ ذو فضل ومنٍّ
يظن الناس بى خيرا وإنى ::: أشر الناس إن لم تعف عنى
فما لى حيلة إلا رجائى ::: لعفوك إن عفوت وحسن ظنى

تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وكان الفراغ من كتبه يوم السبت أوائل جمادى الآخرة عام ثمانية وثمانين ومائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية .

* * *

وقد عثرت يدنا على نبذة من الحكايات العجيبة والنوادر الغريبة فأحببنا جعلها كالذيل لهذا الكتاب . حيث إن موضوعه مما يحسن فيه الإطناب . وقد اقتصرنا فى ذلك على ما حوى من الفكاهات اللطيفة . والمحاورات الظريفة ؛ ليكون نزهة للمجالس وأنسا للمجالس وهى هذه .

* * * * *

ذيل الكتاب

في النوادر والطرف

حكاية مضحكة

قـيل: إن سـائلا أتى إلى باب رجل من أغنياء أصفهان فسأل شيئاً فسمعه الرجل فقـال لعـبده: يـا مـبارك قـل لعنـبر يقول لجوهر وجوهر يقول لياقوت وياقوت يقول للماس والماس يقول لفيروز وفيروز يقول لمرجان ومرجان يقول لهذا السائل يفتح الله علـيك فسـمعه السائل فرفع يديه إلى السماء وقال: يا رب قل لجبرائيل يقول لميكائيل وميكائـيل يقـول لدردائـيل ودردائـيل يقـول لكيكائـيل وكيكائـيل يقـول لإسـرافيل وإسـرافيل يقول لعزرائيل: يقبض روح هذا البخيل فخجل التاجر ومضى السائل إلى حال سبيله .

(غيرها أيضاً)

قيل: إن رجـلا من الوعاظ يقال لـه: أبو مسلم تعشى عصراً ودخل المسجد ليعظ الـناس وقعـد فى المحراب فتحركت بطنه فحب أن يفرج على نفسه بفسوة وخشى أن يضـرط فقـال للقوم: قولوا: لا إله إلا الله وارفعوا أصواتكم ففعلوا ففسا فسوة دارت فـى المحراب وفى جانبه شيخ كبير من أهل صنعاء اليمن ففطن منه واحتمله فتحركت بطـنه ثانـية ففعـل مـثل الأولى فكـاد الشيخ أن يقع مغشياً عليه من نتن الرائحة ولكنه صـبر ولم يفـه بشـيء فتحركـت بطـنه ثالثة فقال: قولوا سبحان الله وارفعوا أصواتكم فقال الشيخ: لا ترفعوا أصواتكم فإنه يريد أن يخرى لا ستره الله تعالى فضحك الناس وتشوش المجلس اهـ .

(غيرها أيضاً)

قيل: إنـه كان رجلان يسمى أحدهما الخف والآخر اسمه المغفل اشتركا فى تجارة فبينما هما فى بعض الطريق إذ وجدا كيساً فيه ألف دينار فلما وجداه بدا لهما الرجوع إلى بلدهمـا فـرجعا حتى دنيا من سور المدينة وقعدا للاقتسام فقال المغفل للخف: خذ

نصف المبلغ وأعطنى النصف وكان الخف قد قرر فى نفسه أن يأخذ المبلغ جميعه فقال له: لا تقسم فإن الشركة أقرب إلى المصافاة ولكن يأخذ كل واحد منا شيئاً ينفعه وندفن الباقى فى أصل هذه الشجرة فهو موضع حريز فإذا احتجنا إلى شيء جئت أنا وأنت وأخذنا حاجتنا منه فأخذا يسيراً ودفنا الباقى ومضيا فدخلا البلد ثم إن الخف جاء وحده إلى الشجرة فأخذ الدنانير المدفونة وعاد إلى بيته ثم جاء إلى المغفل بعد شهر وقال: اخرج بى إلى الشجرة لنأخذ شيئاً من النفقة فانطلقا إلى المكان فلما حفرا لم يجدا شيئاً فجعل الخف يلوم المغفل ثم لطم وجهه ونتف شعر لحيته وضرب صدره وقال: لا يثق أحد بأحد ثم قال للمغفل: أنت الذى أخذت الدنانير فجعل المغفل يحلف ويلعن من أخذها والخف فى صراخ وحده قائلا: أنت أخذت المال فما شعر به سواك ثم ترافعا إلى القاضى واقتصا للقاضى قصتهما فقال للخف: ألك على دعواك بينة؟ قال الخف: نعم الشجرة التى كانت الدنانير تحتها تشهد أن المغفل أخذ المبلغ وكان الخف قد أمر أباه أن يذهب فيتوارى بالشجرة وكانت مجوفة حتى إذا جاء أحد من عند القاضى وسأل الشجرة أجابه فيظن أن الشجرة تنطق فذهب فتوارى فيها ثم قال الخف للقاضى: انطلق بنا إلى الشجرة فانطلق هو وأصحابه والخف والمغفل معهم حتى وافوا الشجرة فسألها القاضى عن الأمر فقال الشيخ فى جوفها: نعم المغفل أخذ الدنانير فلما سمع القاضى ذلك اشتد تعجبه وجعل يطوف تحت الشجرة فبصر طرف ثوب الشيخ فدعا القاضى بحطب وأمر أن تحرق الشجرة فأضرمت حولها النيران فاستغاث أبو الخف وقد أشرف على الموت فسأله الحاكم فأخبر الشيخ بكل ما جرى فأوقع القاضى بالخف العقاب وأوجعه ضرباً شديداً وأخذ منه الدنانير فأعطاها المغفل وأركب أباه مشهورا مصفوعا اهـ.

(حكاية أيضاً)

حكى على بن سعيد الكندى قال: خرج الرشيد إلى الحج فلما صار بظهر الكوفة إذا هو ببهلول المجنون على قصبة وخلفه صبيان وهو يعدو فقال: من ذاك؟ قالوا: بهلول المجنون فقال: كنت أشتهى أن أراه فادعوه غير مروع فقالوا له: أجب أمير

المؤمنين فعدا على قصبته فقال الرشيد: السلام عليك يا بهلول فقال: وعليك السلام يا أمير المؤمنين فقال: كنت إليك بالأشواق قال: لكنى لم أشتق إليك قال: عظنى يا بهلول قال: وبم أعظك هذه قصورهم وهذه قبورهم قال: زدنى فقد أحسنت قال: يا أمير المؤمنين من يرزقه الله مالا وجمالا فعف فى جماله وواسى من ماله كتب فى ديوان الأبرار فظن الرشيد أنه يريد شيئاً فقال: قد أمرنا أن يقضى دينك فقال: كلا لا تقض ديناً بدين اردد الحق على أهله واقض دين نفسك من نفسك قال الرشيد: فإنا قد أمرنا أن يجرى عليك فقال: يا أمير المؤمنين إن الله لا يعطيك وينسانى ثم ولى هارباً وفى رواية ثم مر وهو يترنم فبعث خلفه من يسمع ما يترنم به فإذا هو يقول :

دع الحرص على الدنيا ::: وفى العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال ::: فلا تدرى لمن تجمع
وأمر الرزق مقسوم ::: وسوء الظن لا ينفع
ولا تدرى أفى أرضـ ::: ـك أم فى غيرها تصرع
فقير من له حرص ::: غنى كل من يقنع

(غريبة أيضاً)

مما حكى عن أبى معشر البلخى المنجم الإمام المصنف صاحب التصانيف المفيدة فى علم النجوم قيل: إنه كان متصلا بخدمة بعض الملوك وإن ذاك الملك طلب رجلا من أتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه فاستخفى وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطريقة التى يستخرج بها الخبايا والأشياء الكامنة فأراد أن يعمل شيئاً حتى لا يهتدى إليه ويبعد عنه حديثه فأخذ طستاً وجعل فيه دماً وجعل فى الدم هاونا من ذهب وقعد على الهاون أياما فتطلّبه الملك وبالغ فى الطلب فلما عجز عنه أحضر أبا معشر وطلب إظهاره فعمل المسألة التى يستخرج بها وسكت زماناً حائراً فقال له الملك: ما سبب سكوتك وحيرتك؟ فقال: أرى شيئاً عجيباً فقال: وما هو قال: أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل في بحر من دم ولا أعلم في العالم موضعاً على هذه الصفة فقال له: أعد نظرك ففعل ثم قال: ما أرى إلا ما

ذكرت وهذا شيء ما وقع لي مثله فلما آيس الملك نادى في البلد بالأمان للرجل ولمن أخفاه فلما اطمأن الرجل ظهر وحظى بين يدى الملك فسأله عن الموضع الذى كان فيه فأخبره بما اعتمد عليه فأعجبه حسن احتياله فى إخفاء نفسه براعة أبى معشر المنجم فى استخراجه وله غير ذلك من الإصابات .

(حكاية أيضاً)

قـال بعض أصحاب الإسكندر: إنه دعاهم فلكى ليلة ليريهم النجوم ويعرفهم خواصها وأحوال سيرها فأدخلهم إلى بستان وجعل يمشى معهم ويشير بيده إليها حتى سقط فى بئر هناك فقال: من تعاطى علم ما فوقه بلى بجهل ما تحته .

(حكاية أيضاً)

حكـى أن رجلا انكسرت به السفينة فى البحر فوقع إلى جزيرة فعمل شكلا هندسياً على الأرض فرآه بعض أهل تلك الجزيرة فذهبوا به إلى الملك فأحسن إليه وأكرم مثواه وكتب الملك إلى سائر ممالكه: أيها الناس اغتنموا هذا الرجل فإن ما كسرتم فى البحر صار معكم .

(حكاية الملك بهرام)

حكـى أن الملك بهرام جور خرج يوما للصيد فظهر له حمار وحش فاتبعه حتى خفى عن عسكره فظفر به فمسكه ونزل عن فرسه يريد أن يذبحه فرأى راعياً أقبل من البرية فقال له: يا راعى أمسك فرسى حتى أذبح هذا الحمار فمسكه ثم تشاغل بذبح الحمار فلاحت منه التفاتة فرأى الراعى يقطع جوهرة فى عذار فرسه فأعرض الملك عنه حتى أخذها وقال: إن النظر إلى العيب من العيب ثم ركب فرسه ولحق بعسكره فقال له الوزير: أيها الملك السعيد أين جوهرة عذار فرسك؟ فتبسم الملك ثم قال: أخذها من لا يردها وأبصره من لا ينم عليه فمن رآها منكم مع أحد فلا يعارضه بشيء .

(حكاية أيضاً)

حكى أن فقيراً جاء إلى قاض فى يوم عاشوراء وقال له: أعز الله القاضى إنى رجل فقير وذو عيال وقد جئتك مستشفعاً بهذا اليوم أن تعطينى عشرة أمنان لحماً ودرهمين لأشبع أطفالى فى هذا اليوم ولك الجزاء على الله فوعده إلى الظهر فلما جاء الظهر عاد إليه فوعده إلى العصر فلما جاء العصر عاد إليه وأولاده ذابت أكبادهم من الجوع فوعده إلى المغرب فعاد إليه عند الغروب فقال له: ما عندى شيء أعطيكه فرجع الفقير منكسر القلب باكى العين خائفاً من أطفاله كيف جوابه لهم فمر وهو يبكى بنصرانى جالس على بابه فرآه باكياً . فقال له: لم بكاؤك يا هذا؟ فقال له: لا تسأل عن حالى . فقال له: سألتك بالله أن تعلمنى بحالك . فأخبره بحاله مع القاضى . فقال له النصرانى: ما هذا اليوم عندكم؟ فقال له: هو يوم عاشوراء فرقَّ له النصرانى وأعطاه أكثر مما ذكر من الخبز واللحم وأعطاه عشرين درهما فوق الدرهمين فقال له: خذ هذا وهو لك ولعيالك علىَّ فى كل شهر فذهب به الفقير لأطفاله فرحا مسروراً فلما رآه أطفاله فرحوا فرحاً شديداً ثم نادوا بأعلى أصواتهم اللهم من أدخل علينا السرور فأدخل عليه الفرح عاجلا .

فلما كان الليل ونام القاضى سمع هاتفاً يقول له: ارفع رأسك فرفعه فإذا هو ينظر قصرين مبنيين لبنة من ذهب ولبنة من فضة . فقال: إلهى لمن هذان القصران؟ فأجيب إنهما كانا لك لو قضيت حاجة الفقير فلما رددته صارا للنصرانى فلان . فانتبه القاضى مرعوباً ينادى بالويل والثبور ثم سار إلى النصرانى وقال له: ما فعلت البارحة من الخير . فقال له: ولماذا سؤالك؟ فأخبره بما رأى . فقال له: بعنى هذا الجميل الذى فعلته البارحة بمائة ألف درهم فقال له النصرانى: إنى لا أبيع ذلك بملء الأرض ذهباً فرحم الله ثراه وجعل الجنة مثواه . اهـ .

(حكاية الوزير الحاسد)

حكى أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وكان له وزير حاسد فغار من البدوى وحسده وقال فى نفسه: إن لم أحتل على هذا البدوى فى قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدنى منه . فصار يتلطف بالبدوى حتى أتى به إلى منزله فطبخ له طعاماً وأكثر فيه من الثوم فلما أكل البدوى منه قال له: احذر أن تقرب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوى يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوى على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول له فيه: إذا وصل إليك كتابى هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوى ودفع إليه الكتاب وقال له: امض به إلى فلان وائتنى بالجواب فامتثل البدوى ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان فقال الوزير فى نفسه: إن هذا البدوى يحصل له من هذا التقليد مال جزيل فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذى يلحقك فى سفرك ويعطيك ألفى دينار؟ فقال: أنت الكبير وأنت الحاكم ومهما رأيته من الرأى أفعل قال: أعطنى الكتاب فدفعه إليه وأعطاه الوزير ألفى دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذى هو قاصده فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة فى أمر البدوى وسأل عن الوزير فأخبره بأن له أياماً ما ظهر وأن البدوى بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوى فحضر فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التى اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها فقال له: أنت قلت عنى للناس إنى أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لى به علم وإنما كان ذلك مكراً منه وحسدا وأعلمه كيف بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعد له بدأ

بصاحبه فقتله . ثم خلع على البدوى واتخذه وزيراً وراح الوزير بجسده اهـ .

(حكاية المأمون والفقير)

حكى أن المأمون أشرف يوماً على قصره فرأى رجلا يكتب بفحمة على حائط قصره فقال المأمون لبعض خدمه: اذهب إلى ذلك الرجل فانظر ما كتب وائتنى به فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه وقال: ما كتبت؟ فإذا هو قد كتب هذين البيتين:

يا قصر جمع فيك الشوم واللؤم ::: متى يعشش فى أركانك البوم
يوم يعشش فيك البوم من فرحى ::: أكون أول من ينعاك مرغوم

ثم إن الخادم قال له: أجب أمير المؤمنين فقال الرجل: سألتك بالله لا تذهب بى إليه فقال الخادم: لابد من ذلك ثم ذهب به فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين وأعلم بما كتب . فقال له المأمون: ويلك ما حملك على هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلى والحلل والطعام والشراب والفرش والأوانى والأمتعة والجوارى والخدم وغير ذلك مما يقصر عنه وصفى ويعجز عنه فهمى وإنى قد مررت عليه الآن وأنا فى غاية من الجوع والفاقة فوقفت مفكراً فى أمرى وقلت فى نفسى: هذا القصر عامر عال وأنا جائع ولا فائدة لى فيه فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسمار أبيعه وأتقوت بثمنه أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ ::: نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه ::: يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون: يا غلام أعطه ألف درهم . ثم قال: هى لك فى كل سنة ما دام قصرنا عامرا بأهله مسروراً بدولته وأنشدوا فى معنى ذلك:

إذ كنت فى أمر فكن فيه محسناً ::: فعما قليل أنت ماض وتاركه

(الأدب يرفع الخامل)

روى أن المأمون لم يكن من خلفاء بنى العباس خليفة أعلم منه فى جميع العلوم وكان له فى كل أسبوع يومان يجلس فيهما لمناظرة العلماء فيجلس المناظرون من

الفقهاء والمتكلمون بحضرته على صفاتهم ومراتبهم فبينما هو جالس معهم إذ دخل فى مجلسه رجل غريب وعليه ثياب بيض رثة فجلس فى آخر الناس وقعد من وراء الفقهاء فى مكان مجهول ثم ابتدؤوا فى الكلام وشرعوا فى معضلات المسائل وكان من عادتهم أنهم يديرون المسألة على أهل المجلس واحداً بعد واحد فكل من وجد زيادة لطيفة أو نكتة غريبة ذكرها فدارت المسألة إلى أن وصلت إلى ذلك الرجل الغريب فتكلم وأجاب بجواب أحسن من أجوبة الفقهاء كلهم فاستحسن الخليفة كلامه وأمر أن يرفع من ذلك المكان إلى أعلى منه فلما وصلت إليه المسألة الثانية أجاب بجواب أحسن من الجواب الأول فأمر المأمون أن يرفع إلى أعلى من تلك المرتبة فلما دارت المسألة الثالثة أجاب بجواب أحسن وأصوب من الجوابين الأولين فأمر المأمون أن يجلس قريباً منه فلما انقضت المناظرة أحضروا الماء وغسلوا أيديهم وأحضروا الطعام فأكلوا ثم نهض الفقهاء فخرجوا ومنع المأمون ذلك الشخص من الخروج معهم وأدناه منه ولاطفه ووعده بالإحسان إليه والإنعام عليه ثم تهيأ مجلس الشراب وحضر الندماء الملاح ودارت الراح فلما وصل الدور إلى ذلك الرجل وثب قائماً على قدميه وقال: إن أذن لى أمير المؤمنين تكلمت كلمة واحدة . قال له: قل ما تشاء فقال: قد علم الرأى العالى زاده الله علوا أن العبد كان اليوم في هذا المجلس الشريف من مجاهيل الناس ووضعاء الجلاس وأن أمير المؤمنين قربه وأدناه بيسير من العقل الذى أبداه وجعله مرفوعا على درجة غيره وبلغ به الغاية التى لم تسم إليها همته والآن يريد أن يفرق بينه وبين ذلك القدر اليسير من العقل الذى أعزه بعد الذلة وكثره بعد القلة وحاشا وكلا أن يحسده أمير المؤمنين على هذا القدر الذى معه من العقل والنباهة والفضل . لأن العبد إذا شرب الشراب تباعد عنه العقل وقرب منه الجهل وسلب أدبه وعاد إلى تلك الدرجة الحقيرة كما كان وصار فى أعين الناس حقيراً مجهولا .

فأرجو من الرأى العالى أنه لا يسلب منه هذه الجوهرة بفضله وكرمه وسيادته وحسن شيمته فلما سمع الخليفة المأمون منه القول مدحه وأكرمه وأجلسه فى رتبة ووقره . وأمر له بمائة ألف درهم وحمله على فرس وأعطاه ثياباً فاخرة وكان فى كل

مجلس يرفعه ويقربه على جماعة الفقهاء حتى صار أرفع منهم درجة وأعلى مرتبة .

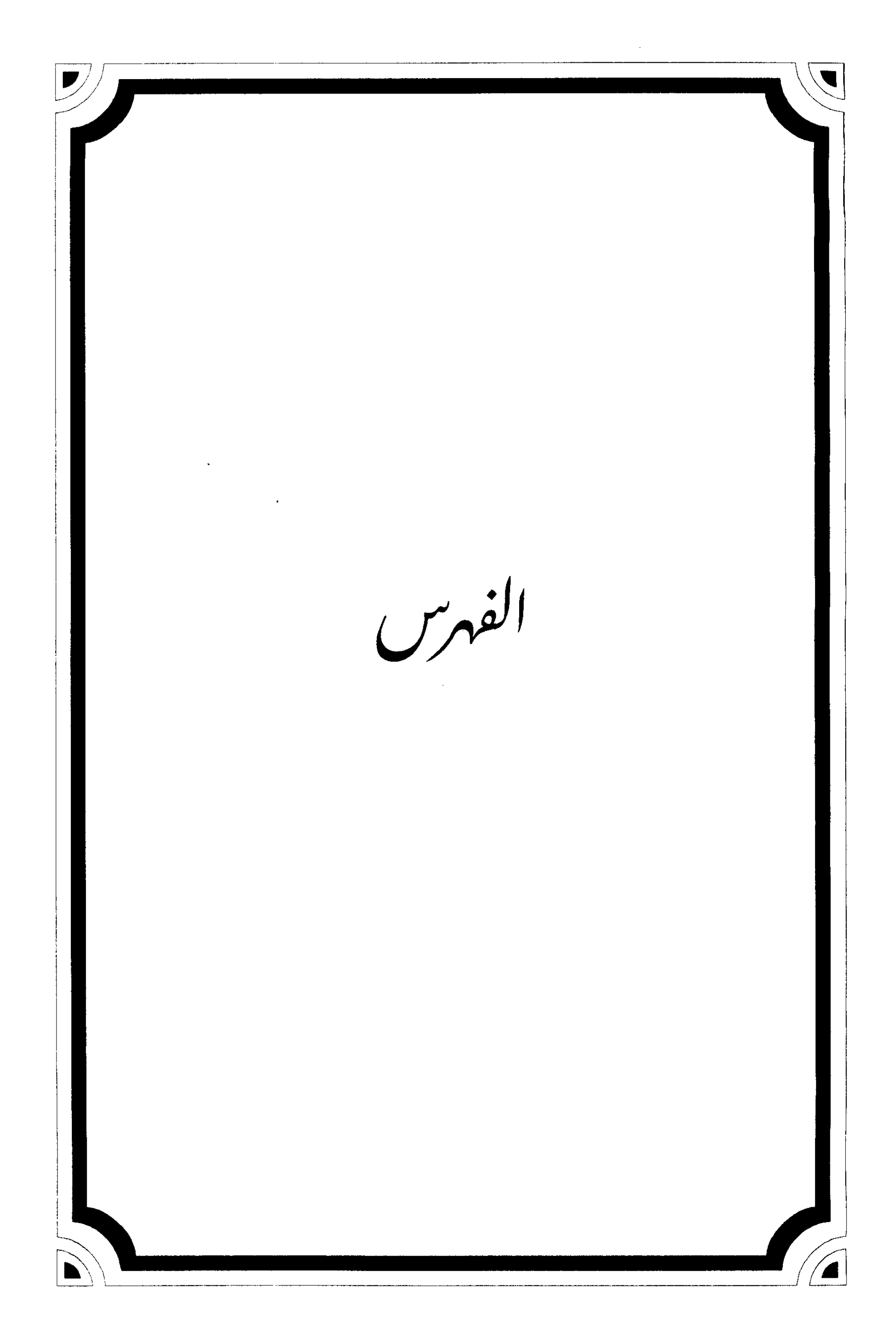
(حكاية الهادى والخارجى)

ذكر صاحب السكردان أن الهادى كان يوماً فى بستان يتنزه على حمار ولا سلاح معه وبحضرته جماعة من خواصه وأهل بيته فدخل عليه حاجبه وأخبره أن بالباب بعض الخوارج له بأس ومكائد وقد ظفر به بعض القواد . فأمر الهادى بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضا على يديه . فلما أبصر الخارجى الهادى جذب يديه من الرجلين واختطف سيف أحدهما وقصد الهادي ففر كل من كان حوله وبقى وحده وهو ثابت على حماره حتى إذا دنا منه الخارجى وهم أن يعلوه بالسيف أومأ إلى وراء الخارجى وأوهمه أن غلاماً وراءه وقال: يا غلام اضرب عنقه فظن الخارجى أن غلاماً وراءه . فالتفت الخارجى فنزل مسرعاً عن حماره فقبض على عنق الخارجى وذبحه بالسيف الذى كان معه ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره والخدم ينظرون إليه ويتسللون عليه وقد ملؤوا منه حياء ورعباً فما عاتبهم ولا خاطبهم فى ذلك بكلمة ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم .

(حكاية)

يحكى أن أعرابياً استضاف حاتماً فلم يقريه فبات جائعاً مقروراً فلما كان فى السحر ركب راحلته وانصرف فتقدمه حاتم فلما خرج من بين البيوت لقيه متنكراً فقال له: من كان أبا مثواك البارحة؟ قال: حاتم قال: فكيف كان مبيتك عنده؟ قال: خير مبيت نحر لى ناقة فأطعمنى لحماً عبيطاً وأسقانى الخمر وعلف راحلتى وسرت من عنده بخير قال: فقال له: أنا حاتم وإنك لا تبرح حتى ترى ما وصفت فرده وقال له: ما حملك على الكذب؟ فقال له الأعرابى: إن الناس كلهم يثنون عليك بالجود ولو ذكرت شراً كنت أكذب فرجعت مضطراً إلى قولهم إبقاء على نفسى لا عليك اهـ .

* * * * *



الفهرس

الفهـــرس

* * * * *